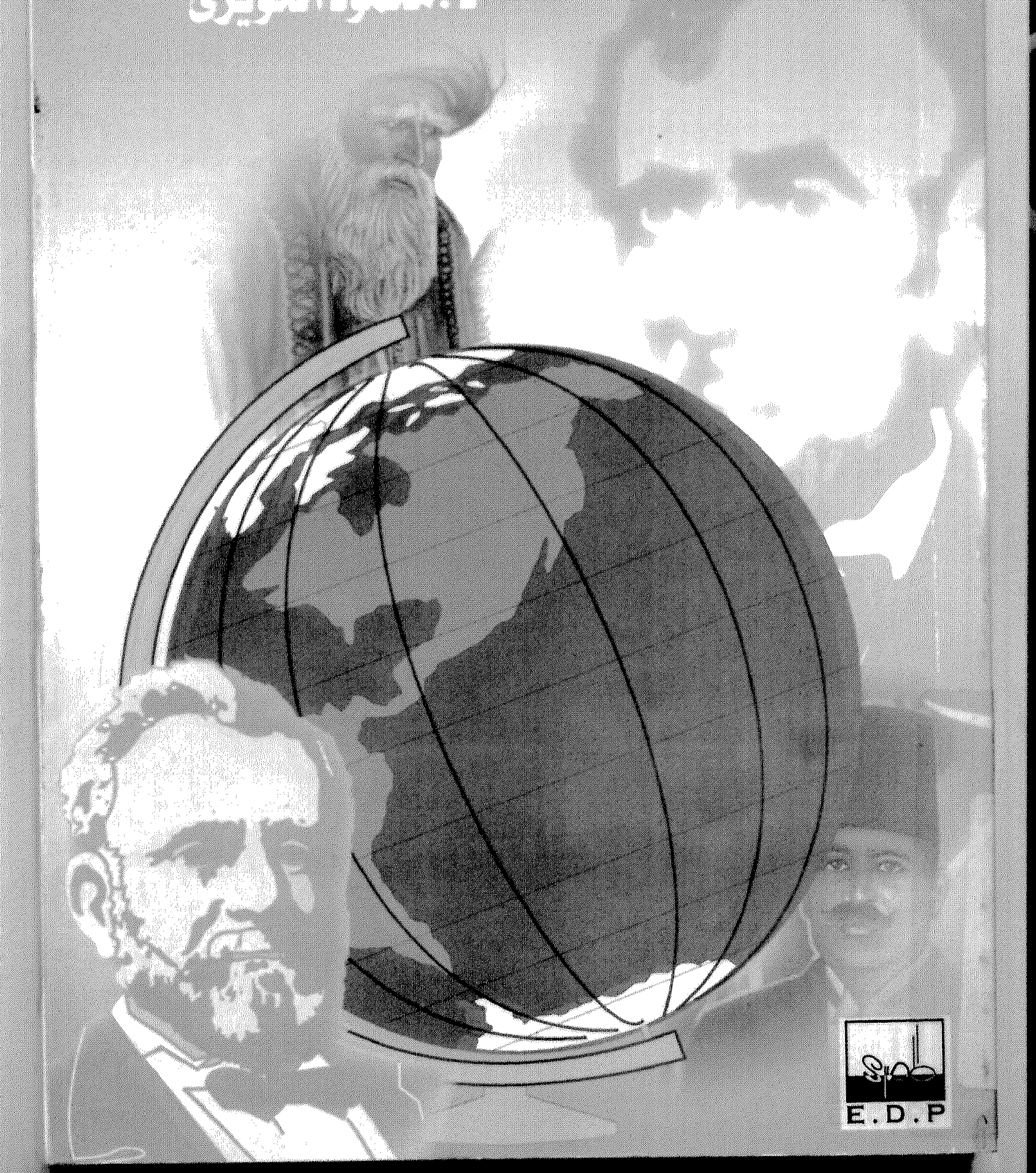
منهج البحث فى التاريخ

د. محمود الحويرى





منهج
البحث فى التاريخ

تأليف
دكتور محمود محمد الحويرى
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب بسوهاج

٢٠٠١م

الناشر
المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات
ت: ٣٦٥٥٤٨٧

الناشر

المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

٥ ش مصطفى طموم، المنيل القاهرة

تليفاكس : ٣٦٥٥٤٨٧

منهج البحث فى التاريخ

د. محمود محمد الحويرى

رقم الإيداع ٩٩/٢٣٢١

الترقيم الدولى I.S.B.N -977-5841-29-1

مقدمة

تدور جهود المؤرخين حول النفاذ إلى الماضى، بهدف استلهام أحداثه والتأمل فيها، ومعرفة كل ما طرأ عليها من تغيير. ولاشك أن التنقيب عن تلك الأحداث والوقوف على كنه دوافعها ونتائجها، يكشف لنا عن الدروس التى تفيد فى توجيه وفهم مستقبلنا، وكيف ينبغى له أن يجىء، فالمستقبل ملتقى أنظار الجميع ومحط آمالهم.

وقد تغير مفهوم التاريخ كثيراً فى أوربا فى القرن التاسع عشر، فلم يعد قاصراً على سرد أحداث ووقائع الأسر الحاكمة والحروب والمعارك التى دارت بين الدول والأمم، بل امتدإلى كافة جوانب الحضارة الاجتماعية والفنية، والتيارات المختلفة التى تؤثر فى حياتها. وفى هذا القرن صار التاريخ علم دراسة وتحليل ومقارنة ونقد، له قوانينه وقواعده ومناهجه التى لايعيها إلا المؤرخ المقتدر الذى يجمع بين الحاسة التاريخيةالأمينة والوعى العلمى المتين. وبعبارة أخرى انتقل علم التاريخ من فرع ثانوى من فروع المعرفة الإنسانية إلى أحد أعمدتها الأساسية، تخصص له الكراسى والأقسام فى الجامعات الأوربية، ويقوم بالعمل فى ميدانه مؤرخون كبار، ويدرسه طلاب كثيرون.

وهذا الكتاب الذى أضعه بين يدى القارىء الكريم هدفه إعطاء الطالب المتخصص فى التاريخ، والقارىء الذى تستهويه كتب التاريخ ويرغب فى معرفة المقاييس التى يستطيع بها أن يحكم على الكتابة التاريخية، فكرة عامة عن علم التاريخ ومناهج بحثه وتفسيره وكتابته ومساره واتجاهاته. ولقد دارت فكرة تأليف هذا الكتاب فى ذهنى منذ قمت بتدريس مادة منهج البحث التاريخ لطلبتى بقسم التاريخ بجامعة جنوب الوادى وغيرها.

ويتناول هذا الكتاب أصل كلمة التاريخ، ووضعه بين العلوم، وفائدته، والصفات الأساسية التي يجب توفرها فيمن يتصدى لكتابة التاريخ. وينتقل الكتاب بعد ذلك إلى كتابة التاريخ فى العصور القديمة عند قدماء المصريين والبابليين والآشوريين، واليهود، والصينيين، واليابانيين، والهنود، واليونان، والرومان.

وتعرض الكتاب بعد ذلك لكتابة التاريخ فى العصور الوسطى الأوروبية، فتناول كتابة التاريخ بعد ظهور المسيحية، وفى العصور الوسطى الأوروبية الباكرة، وتدوين التاريخ فى العصور الوسطى الأوربية فيما بين سنتى ٩٥٠ و١٠٥٠م، وتأثير الحروب الصليبية فى التدوين التاريخى فى العصر الوسيط الأوربى.

وانتقلنا بعد ذلك إلى الكلام على كتابة التاريخ فى عصر النهضة، وهو المصطلح الذى يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة فى الفترة بين القرن الرابع عشر والقرن السادس عشر. ثم تناولنا تأثير حركة الاستنارة أو التنوير فى القرن الثامن عشر فى كتابة التاريخ، وهى الحركة التى استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية فى كل ميادين الحياة الإنسانية والتفكير.

كما عالج الكتاب المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام، والتدوين التاريخى عند المسلمين. وألقى الضوء على أقدر مؤرخى العصور الوسطى من المسلمين وأعظمهم العلامة ابن خلدون الذى فاق بمراحل أى مؤرخ مسيحى فى العصور الوسطى فى تفهمه لمبادىء التقدم الإنسانى والعمران، حتى عرف بأنه واضع أساس علم الاجتماع.

ويتطرق الكتاب بعد ذلك إلى المدارس التاريخية التى ظهرت فى مجال تفسير التاريخ، وتناولته من خلال اهتمامات خاصة فى النواحى

السياسية والاقتصادية والدينية والقومية، وفى مثل هذه الحالة ترفض تلك المدارس قبول الآراد المتعارضة، وذلك على حساب الحقيقة التاريخية. ومن المعروف أن كل العلوم على الإطلاق تعد علوما مساعدة للتاريخ، وذلك لطبيعة التاريخ نفسه، كعلم يتناول جميع الجوانب السياسية، والاجتماعية والاقتصادية والفنية والفكرية. ولذلك تناولنا العلوم المساعدة للتاريخ، والتى لايستطيع الباحث فى التاريخ إغفالها، مهما كان نوع التخصص الذى يكتب فيه.

ومن الموضوعات الهامة التى تناولها الكتاب كتابة التاريخ بين الموضوعية والذاتية، وهو من الموضوعات الذى اختلفت فيه الآراء واحتدام الجدل، لأن التاريخ يكتبه باحثون ينتمون إلى مجتمعات معينة، ويلونون كتاباتهم فى كثير من الاحيان بنوازعهم الشخصية وانعكاسات التيارات السائدة فى مجتمعاتهم. وانتقلنا بعد دلك الى موضوع دار الجدل حوله فى الوقت الحاضر و ظهرت وجهات نظر متعددة متباينة تدعو الى ذلك، وهو موضوع «إعادة كتابة التاريخ». فالبعض يرى ضرورة إعادة كتابة التاريخ من منطلق أن أحداث التاريخ تتجدد رؤيتنا لها، بالإضافة إلى أن ما كتب من التاريخ فى موضوع ما قليل وتنقصه الموضوعية.

وينتقل الكتاب بعد ذلك إلى دراسة «كتابة البحث التاريخى»، فتحدث عن اختيار موضوع البحث الذى يختلف من باحث لآخر تبعا لاختلاف المستوى العلمى وحصيلة الثقافة، ثم تحدث عن وضع خطة البحث التى تعنى تبويب الرسالة تبويبا أوليا، أى تقسيم البحث إلى أبواب وفصول تسهيلا للدراسة. وتعرض الكتاب بعد ذلك لجمع المادة التاريخية، ومن الأفضل للباحث أن يبدأ بجمع مادته العلمية من المصادر الأصلية، ثم من المراجع الحديثة بعد ذلك، لأن المادة التاريخية التى تأتى من الأصول، هى التى تبرز عناصر البحث، وتوجهه إلى ما هو أقرب إلى الكمال،

وعندما ينتهى الباحث من جمع المادة العلمية المتعلقة بموضوع بحثه، يدخل فى عملية أساسية قبل الشروع فى كتابة البحث فى شكله النهائى، وهى عملية تحليل هذه المادة وفرزها والتثبت من صحتها، وهذه العملية إحدى عمليات المنهج الأساسية، وتعرف بنقد الأصول.

وكل تلك الموضوعات وغيرها تأتى فى صفحات الكتاب، ولا أدعى أننى جئت فيه بجديد، وكل ما أستطيع أن أقوله، أن لى فيه ثواب المجتهد وعذر المخطىء.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه...

ثكنات المعادى فى سبتمبر ١٩٩٨م

جمادى أولى ١٤١٩هـ

المؤلف

الفصل الأول

علم التاريخ

أصل كلمة التاريخ

هل التاريخ علم؟

فائدة التاريخ

الصفات الواجب توفرها فى المؤرخ

التاريخ هو دراسة الحوادث، أو هو الحوادث نفسها، والحوادث جمع حادث، والحادث هو كل ما يطرأ من تغيير على حياة البشر، وكل ما يطرأ من تغير على الأرض متصلا بحياة البشر. وإذا كان التاريخ فى حقيقته هو الحوادث، وكانت الحوادث هى التغيرات، والتغيرات وليدة الزمان إنتهينا إلى أن التاريخ هو الزمان[١].

والتاريخ هو وعاء الخبرة البشرية، هو العلم الخاص بالجهود البشرية، أو هو المحاولة التى تستهدف الإجابة على الأسئلة التى تتعلق بجهود البشرية فى الماضى، وتستشف منه جهود المستقبل[٢]. وقد يحدث الظن أن التاريخ هو الماضى أو الأحداث التى طواها الزمن فى غيابه، ولم تعد تهمنا فى قليل أو كثير. وليس هذا بصحيح، فالتاريخ يشمل الماضى والحاضر والمستقبل معا، ولايمكن الفصل بينهم، بل هو بالضبط وحدة لاتتجزأ، كالنهر الدفاق المياه، المتلاحق الأمواج، لاتجد فى تياره فجوة، ولاترى بين أمواجه ثغره.

ويرى المؤرخ راوس[٣] أن التاريخ يبحث فى المجتمع الإنسانى وفى حكايته وكيف أصبح الإنسان كما هو الآن. ويقول السير تشارلز فيرث عن التاريخ: «التاريخ شيء لايسهل تعريفه، ولكن يبدو لى أنه سجل لحياة المجتمعات الإنسانية وللتغيرات التى اجتازتها تلك المجتمعات وللأفكار التى تحكمت فى توجيه نشاط تلك المجتمعات وللظروف المادية التى ساعدت أو عاقت تطورها».

ويعتبر ابن خلدون (١٣٣٢ ـ١٤٠٦) أول من أشار صراحة إلى فكرة

---

(١) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون (القاهرة ١٩٨٤)، ص ٢١ ـ ٢٢.

(٢) ويدجرى (آلبان. جـ): التاريخ وكيف يفسرونه، من كنفوشيوس إلى توينبى، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد (القاهرة ١٩٩٦)، جـ١ مقدمة المترجم.

(٣) التاريخ أثره وفائدته (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٥.

التاريخ في مقدمته بقوله: «وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفات الوقائع وأسبابها عميق، فهو أصيل في الحكمة عريق». والحكمة في المفهوم العربي هي أعلى مراتب العلم.

وفي رأى كثير من المؤرخين - مثل المؤرخ السخاوي[1] - أن التاريخ بالأولى هو كيان الأمم، فلا توجد أمة أو دولة إلا ولهاتاريخ يرجعون إليه ويعولون عليه، ينقلها خلفها من سلفها، وحاضرها عن غابرها، ولولا ذلك لانقطع الوصل، إذ النظرة السليمة تستشرف إلى معرفة البدائيات، وتشربت إلى إدراك المنشئات.

وهناك من عّرف التاريخ بأنه فرع عظيم من فروع المعرفة، وكتابته فن قديم العهد، وكل فرد يعرف ما هو التاريخ، فكلمة التاريخ مألوفة لديه، ويعرف تماما ما تعنيه، والتاريخ يتعامل مع أفكار، وأعمال الرجال والنساء الذين عاشوا في الأزمنة الماضية، وكلنا يعرف أن التاريخ يرقد خلفنا مثل بلد متعرج وغير مستو، ومن الصعب الاستدارة والعودة لهذا البلد[2].

أصل كلمة التاريخ:

وقد اختلفت الآراء في تفسير كلمة تاريخ وأصلها. ففي اللغة العربية يقول المؤرخ السخاوي في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»[3]: «التاريخ في اللغة الإعلام بالوقت، يقال أرخت الكتاب وورخته أى بينت كتابته، قال الجوهري التاريخ تعريف الوقت، والتوريخ مثله يقال أرخت وورخت، وقيل اشتقاقه من الأرخ يعني بفتح الهمزة وكسرها، وهو الأنثى من بقر الوحش، لأنه شيء حدث كما يحدث المولد. وقد فرق الأصمعي

---

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (القاهرة ٣٤٩ (هـ)، ص ٢٥.

(٢) Shyder (Phil L.), Detachment and the Writing of History. Essays and Letters of Carl L. Becker (New York, 1958), P. 41.

(٣) ص ٧.

بين اللغتين، فقال: بنو تميم يقولون ورخت الكتابة توريخا، وقيس تقول أرخته تأريخا، وهذا يؤكد كونه عربيا، وقيل إنه ليس بعربى محض بل هو معرب مأخوذ من «ماه روز» بالفارسية، ماه القمر وروز اليوم (ومعناها حساب الشهور والأيام)، قال أبو منصور الجواليقى فى كتابه المعرب من الكلام الأعجمى: «يقال إن التاريخ الذى يؤرخه الناس ليس بعربى محض، وإنما أخذه المسلمون من أهل الكتاب، وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة، كتب فى خلافة عمر رضى الله عنه فصار تاريخا إلى اليوم». والواقع أن الذين رجحوا هذا التأويل قد اعتمدوا على رواية فى نشأة التقويم الإسلامى تقول إن سبب وضع التاريخ الهجرى أن أباموسى الأشعرى كتب إلى عمر رضى الله تعالى عنه يقول: إنا قد قرأنا صكا من الكتب التى تأتينا من قبل أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه، وكان محله شعبان فما ندرى أى الشعبانين هو: الماضى أو الآتى؟ فجمع أعيان الصحابة واستشارهم فيما تضبط به الأوقات، وكان فيهم ملك أهواز إسمه الهرمزان وقد أسلم على يده حين أسر، فقال له: إن لنا حسابا نسميه «ماه روز» أى حساب الشهور والأعوام، وشرح كيفية استعماله، فأمر عمر بوضع التاريخ، فاستقر رأيهم على تعيين يوم من أيامه عليه الصلاة والسلام لذلك، فجعل مبدأ الهجرة من مكة إلى المدينة إذ بها ظهرت دولة الإسلام. وإذا صحت هذه الرواية فى تحليل نشأة التقويم الهجرى عند المسلمين، فلا يقتضى ذلك بالضرورة علاقة لغوية متكلفة وغير واضحة بين «ماه «روز» الفارسية و«مؤرخ» العربية[1]. وقال أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب فى كتابه الخراج، تاريخ كل شيء آخره ووقته الذى ينتهى إليه فى شرف قومه كما قال المطرزى وذلك بالنظر لإضافة الأمور الجليلة من كرم أو فخر أو نحوها إليه، وإما لكونه ذاكراً للأخبار ومشاكلها.

(١) عفت الشرقاوى: أدب التاريخ عند العرب (القاهرة ١٩٧٦) جـ١ ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

ويبدو ان أصول كلمة التاريخ مستمدة من الكلمة السامية التى تعنى القمر أو الشهر، وهى فى الأكادية (أرخو) وفى العبرية (يرخ)، وهذه الكلمة لم تستعمل فى العربية. فأما استعارة العربية لهذه الكلمة من الأكاديمة فبعيد الاحتمال، كما وأنه ليس من المحتمل الافتراض أنها استعيرت مباشرة من العبرية أوالآرامية، وخاصة لوجود حرف (ى) فى الصورة العبرية والآرامية لهذه الكلمة. لذا لم يبق بعد هذا إلا العربية الجنوبية والأثيوبية، أو الافتراض بأن هذه الكلمة كانت مستعملة فى إحدى اللهجات العربية الشمالية التى لانعرفها الآن. إن كلمة تاريخ هى ليست الشكل البسيط للجذر، بل هى صيغة الاسم التى توجد فى اللغة العربية والعربية الجنوبية، وهذا غير موجود فى الأثيوبية، مما يجعل احتمال اشتقاقها من الأثيوبية، بعيدا، ثم إنه يبدو أن العرب أخذوها كتعبير فنى، وهذا بدوره يبعد أصلها الأثيوبى إذ لو كان أصلها أثيوبيا لكانت باقية فى لغتهم، يضاف إلى ذلك أن احتمال كون أصلها من العربية الشمالية بعيد(١). وأغلب الاحتمال أن أصل كلمة تاريخ من العربية الجنوبية، فمما لاشك فيه أن عرب الجنوب اهتموا بأمر التوقيت لعوامل عديدة، منها الزراعة التى تخضع لتقلبات الجو وتبدل المواسم، ومنها الأعياد والشعائر الدينية التى لها ارتباط وثيق بضبط الأوقات، ومنها التجارة فى البر والبحر، وقد ورد لفظ «ورخ» فى نقوش العربية الجنوبية، وجمعها أورخم بمعنى الشهر القمرى(٢).

ويقول المؤرخ روزنثال(٣) إن الأصل التاريخى لكلمة إيستوريا Istoria

---

(١) فرانز روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة، صالح أحمد العلى، مراجعة محمد توفيق حسين (بغداد ١٩٦٣)، ص ٢٠ - ٢١..

(٢) عفت الشرقاوى: المرجع السابق، جـ ١ ص ٢٥٠ - ٢٥١؛ السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب (الإسكندرية ١٩٨٧)، ص ٢٣.

(٣) علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٦ - ١٧.

الإغريقية (وهى ماتقابل كلمة تاريخ فى اللغة العربية) ذو أهمية أكبر، فعندما نشطت الحركة الفكرية والسياسية نشاطا عظيما فى الدويلات الأيونية فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، كان تعبير Istoria يقصد منه البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة، أى لنوع من المعرفة كان يهم كل مواطن دولة المدينة الواحدة، ألا وهى معرفة البلاد والعادات والمؤسسات السياسية المعاصرة أو الماضية، وسرعان ما أصبحت كلمة Is-toria مقتصرة على معرفة الأحداث التى رافقت هذه الظواهر، وبذلك ولد تعبير التاريخ بمعناه الشائع، وقد أخذ الرومان تلك الكلمة بمعناها ومبناها، وظلت كلمة Istoria تعبيراً فنيا لم تتبدل حروفه بانتقاله إلى اللغات الأوربية كما كان يحدث لو كانت هذه الكلمة دارجة الاستعمال عند العامة. ومن كلمة Histotia اشتقت الكلمات الأوربية الحديثة مثل كلمة History الإنجليزية Histotia وكلمة Histoire الفرنسية.

وقد أصبح الشائع حاليا التفريق بين كلمة التاريخ History كتعبير دال على مسيرة الإنسانية الحضارية على سطح الأرض منذ القدم، وعبارة تدوين التاريخ أو كتابة التاريخ Historiagraphy كتعبير عن العملية الفكرية الإنشائية التى تحاول إعادة تسجيل وبناء وتفسير مسيرة الإنسان على كوكبه. فالتاريخ أشبه ما يكون بنهر هائل متدفق تحوى مياهه كل تفاصيل نشاط وأفكار وتطلعات وأحاسيس ونجاح وإحباطات الإنسان منذ الخليقة. أماتدوين التاريخ، أى العملية الفكرية الإنشائية فليست سوى مشهد يلتقطه المؤرخ من الماضى القريب أو الماضى البعيد، ويحاول من خلال مصادره المتاحة، ومنهج علم التاريخ، وخياله العلمى كمؤرخ، أن يعيد تركيبه[١].

---

(١) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ (القاهرة ١٩٨٥)، ص ٢٧ ـ ٢٨.

هل التاريخ علم:

حدث اختلاف حول التاريخ هل هو علم؟ أم أنه فن وأدب؟ فذكر وليم ستانلى جيفونز (١٨٣٥ ـ ١٨٨٢) Gevons الأستاذ بجامعة لندن أن التاريخ لايمكن أن يكون علماً لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة، وبذلك لايمكن فى دراسته استخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة، على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلم الطبيعة أو علم الكيمياء مثلا. فقيام عنصر المصادفة، ووجود عنصر الشخصية الإنسانية وحرية الإرادة، مما يهدم الجهود الرامية إلى إقامة التاريخ على أسس علمية، على غرار ما يفعل علماء الطبيعة أو الكيمياء وأضرابهم.

وقد أيد هذا الرأى كارل بوير[١] Karl Popper فى كتابه «عقم المذهب التاريخى»، وأوجز أدلته على كذب المذهب التاريخى، وحصرها فى القضايا الخمس التالية:

١ ـ يتأثر التاريخ الإنسانى فى سيره تأثراً قويا بنمو المعرفة الإنسانية.

٢ ـ لايمكن لنا بالطرق العقلية أو العلمية، أن نتنبأ بكيفية نمو معارفنا.

٣ ـ وإذن فلا يمكننا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنسانى.

٤ ـ وهذا معناه أننا يجب أن نرفض إمكان قيام تاريخ نظرى، أى إمكان قيام علم تاريخى إجتماعى يقابل علم الطبيعة النظرى. ولا يمكن أن تقوم نظرية علمية فى التطور التاريخى تصلح أن تكون أساساً للتنبؤ التاريخى.

٥ ـ وإذن فقد أخطأ المذهب التاريخى فى تصوره للغاية الأساسية التى يتوسل إليها بمناهجه. وببيان ذلك يتداعى المذهب التاريخى.

---

(١) عقم المذهب التاريخى، ترجمة عبدالحميد صبره (الإسكندرية ١٩٥٩)، ص ٥ ـ ٦.

ويرى البعض أنه من الصعب جداً أن يعد التاريخ علماً، خصوصا إذا لاحظنا أن التاريخ لايخلف لنا نفسه، وإنما يخلف لنا تعبيرات وأوصافاً للأحوال التي جرت فيه، والأوصاف كلها تتوقف على أمور نفسيه أو ذاتية هي الأحوال الذاتية الخاصة بمؤلف الوثيقة ماعدا أحوالا قليلة هي أحوال الأشياء الدالة على آثار مثل الآثار الكثيرة أو اللوحات في دلالتها على ما أنتجه الفنان(١). ومن هنا كان علم التاريخ شاء أو لم يشأ أن يكون ذاتياً وأن يتوقف على قدرة ذاتية خالصة للقائم بالبحث التاريخي، خصوصاً إذا لاحظنا من ناحية أخرى، أن الوثائق لاتعطينا صورة سينمائية عن الحادث، وإنما هي صور متناثرة بينها وبين بعض الكثير من الهوات وأنواع النقص والاختلاط وعدم الارتباط، الأمر الذى يمثل عبئا هائلا على المؤرخ ليقوم به من حيث إكمال كل نقص وسد كل ثغرة بين الوسائل المختلفة. ومن هنا كان التاريخ إلى حد كبير يقوم على الفن وعلى موهبة خاصة عند المؤرخ الذى يستطيع أن يحيا الماضي بكل ماكان عليه وأن يستعيد كل تجاربه في الماضي ابتداء من الوثائق،وابتداء من الوثائق وحدها، وكأنه أحياها من جديد وتراءت له عيانا. ذلك أن غاية المؤرخ هي أن يستعيد الوقائع التاريخية في ذهنه كما كانت عليه بالفعل في الماضي، وكأنه عاينها بنفسه وجها لوجه، فبهذا وحده يمكنه أن يؤرخ تاريخا حقيقيا، وكل هذا إنما يعتمدعلى قدرة ذاتية، ولاتجدى الوثائق وحدها نفعاً مهما كان تعددها،ولهذا سيظل البحث التاريخي بالضرورة ذاتيا(٢).

ويتفق مع هذا الرأى المؤرخ وولش الذى يرى أن المؤرخين لايجمعون على تفسير واحد لأى عصر، فهناك تفسيرات مختلفة ـ كما سنرى فيما بعد ـ للماركسين والأحرار والبروتستانت والعقليين والملكيين

---

(١) عبدالرحمن بدوى: مناهج البحث العلمي (بيروت ١٩٧٧)، ص ٢١٨ ـ ٢١٩.
(٢) نفس المرجع، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

والجمهوريين وغيرهم، ويتمسك أنصار هذه النظريات بها، حتى إن كل واحد منهم يعتبر أن نظريته إن لم تكن هى الكلمة الأخيرة الخاصة بالعصر الذى يدرسه، فهى على الأقل صحيحة فى أفكارها الرئيسية. وهذا الاعتقاد يجعلهم يرفضون جميع الآراء المنافسة باعتبارها خاطئة خطأ مطلقا، الأمر الذى يجعل من المستحيل على الأقل تحقق ادعاء اتخاذ الموقف العلمى الذى يدعيه المؤرخون المحدثون[1]. ويمكن القول إن المؤرخين لايتأثرون بعوامل ذاتية فحسب، بل إنه من الواجب أن يتأثروا. فالتاريخ غير المتحيز ليس مثلا أعلى فحسب، بل هو مستحيل استحالة مطلقة أو يكاد، فكل مؤرخ ينظر إلى الماضى من وجهة نظر معينة، فهو لايستطيع أن يتجنبها، وتجنبها يشبه مطالبته بتغير طبيعته. ويمكن القول أيضا إن التحليل الدقيق لاختلاف المؤرخين يبين أن هذه الاختلافات تدور حول نقاط ليست موضع اتفاق، بل هى تعتمد على مصالح ورغبات الأطراف المتشاحنة، سواء كانت هذه الاختلافات لأسباب شخصية أوجماعية. فالخلافات التاريخية وفقا لهذا الأسلوب فى التفكير لاتعنى فى صميمها بما هو صحيح أو باطل، بل بما هو مرغوب وما هو غير مرغوب فيه. ولذا فلم تعد الأحكام التاريخية الرئيسية معرفية بمعنى الكلمة، بل أصبحت عاطفية. وقد تذهب هذه الفكرة بعيداً وتزيل الفارق بين التاريخ والدعاية، ويترتب على ذلك إضعاف الإدعاء القائل إن التاريخ دراسة علمية صحيحة أو يستطيع أن يصبح ذلك[2].

وفى سنة ١٨٧٤م وقف جـ. زير فى (١٨٢١ - ١٨٩٢) يحاضر فى «الجمعية التاريخية الملكية» بلندن، فتحدث عن إخضاع جميع الظواهر التاريخية بوساطة منهج علمى دقيق لقوانين العلية (السببية)، وصرح بأن

---

(١) وولش: مدخل لفلسفة التاريخ (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٢١ - ٢٣.

(٢) نفس المرجع، ص ٢٤.

الدراسة العلمية للتاريخ مستحيلة، لو فرضنا وجود عامل الصدفة والقدر المحتوم وحرية الاختيار. ثم عاد فى بحث كتبه بعد ذلك حول «علم التاريخ»، فكتب قائلا: «إن أهم ما يجب على المؤرخ أداؤه أن يظهر بصورة مقنعة أن الحقائق لم يكن فى الإمكان حدوثها بطريقة خلاف التى حدثت بها، وأنه لو أن الأسباب نفسها عملت عملها، لأدت دون شك إلى إحداث نفس النتائج للمرة الثانية»[1].

غير أن هرنشو[2] Hearnshaw فى كتابه «علم التاريخ» يشير إلى أن التاريخ ليس علم تجربة اختبار كالكيمياء، ولكنه علم نقد وتحقيق، وأقرب العلوم الطبيعية شبهاً به هو علم الجيولوجيا، فكل من الجيولوجى والمؤرخ يدرس اثار الماضى ومخلفاته، لكى يستخلص مايمكنه استخلاصه عن الماضى والحاضر على السواء. ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجى من حيث اضطرار المؤرخ إلى أن يدرس ويفسر العامل البشرى والفكرى والعاطفى حتى يقترب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخية. وكما أن الجيولوجى يجد مادته الأساسية فيما سلم فى بقايا الطبيعة من أدلة قليلة تثبت التطورات الجيولوجية القديمة، فكذلك المؤرخ فى الموجود من مخلفات الماضى وسجلاته التى قد تعين على جلاء الحاضر وتوضيحه، وهو هدف البحث التاريخى.

وعلى أية حال، استقر الرأى على أن التاريخ علم بالمنهج، أى أن موضوعه الأساسى وهو الإنسان لايسمح بأن تكون له قوانين لها دقة قوانين العلوم، ولكننا ندرسه بمناهج البحث العلمى من دراسة للمادة وتحليلها تحليلا دقيقا، ثم استخلاص الحقائق. وكان هذا هو الرأى الذى جال بخاطر بيورى[3] بكل وضوح عندما وصف التاريخ فى العبارة

(١) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ٢ ص ١٥٣.

(٢) علم التاريخ (القاهرة ١٩٤٤)، ص ٩٨.

(٣) كان جون باجنل بيورى (١٨٦١ - ١٩٢٧) John bagnell Bury فيلولوجيا كلاسيكيا قبل أن يصبح مؤرخا. وتتميز أعماله التى تتناول فترة الإمبراطورية الرومانية المتأخرة=

الأخيرة من محاضرته الافتتاحية في يناير سنة ١٩٠٣ قائلا: «وإذا كان علم التاريخ يصبح عاما بعد عام وأكثر فأكثر قوة عظيمة تعمل على نزع غشاوات الخطأ، وتعين على تكوين الرأى العام، وعلى السير إلى الأمام بقضية الحرية الفكرية والسياسية، فإن ذلك العلم سيعمل جاهداً على تكوين طلابه على نحو يمكنهم من القيام بذلك الواجب لا للانتفاع به في سد مطالب الأسبوع التالى أو العام القادم أو حتى القرن الذى سيجيء، ولكن لكى يذكر دائماً أن التاريخ، وإن كان يقدم مادة للتاريخ الأدبى أو للتأمل الفلسفى، إلا أنه علم، لا أكثر ولا أقل History is a science, no more, no less» وقد لقيت تلك العبارة قبولاً واسعاً.

وقد سار فى هذا الاتجاه المؤرخ البريطانى جورج ماكولى تريفليان (١٨٧٦ ـ ١٩٦٢) Trevelian ، الذى أصدر مقالة رائعة عن طبيعة علم التاريخ وحدوده ، خلاصتها ان التاريخ لا يمكن ان يكون علما دقيقا كما هو الحال فى العلوم الطبيعية ، ولكنه علم فى حدود معينة هى الدقة فى جمع المادة ، والدقة كذلك فى الموازنة بين الادلة ، والمؤرخ الذى يستطيع ان يفعل ذلك يستلفت اهتمام العقول بكلامه، ويثير إحدى العواطف الإنسانية، ويفتح الباب أمام قوى التخيل والتصور(١).

=والإمبراطورية البيزنطية بالمقدرة العالية فى التاريخ والفيلولوجيا. وفى سن الثامنة والعشرين أخرج كتابه «تاريخ الإمبراطورية المتأخرة من أرحاديوس حتى إيرين ٣١٥ إلى ٨٠٠م (مجلدان ١٨٨٩)، ويعتبر هذا الكتاب إسهاماً ملحوظاً فى الأدب. وقد عمل بيورى محرراً فى مجموعة كامبردج للتاريخ القديم. وفى سنة ١٩٠٢ خلف لورد آكتون فى منصب أستاذ كرسى التاريخ الحديث بجامعة كامبردج، حيث ألقى محاضرة افتتاحية عن «علم التاريخ». أنظر:

Stern (First), The Varieties of History. (New York). 1964). P. 209:

حسين مؤنس: «التاريخ والمؤرخون»، ص ١٦٣، مجلة عالم الفكر أبريل مايو يونيو، الكويت ١٩٧٤، ص ٩٢ ـ ٩٣؛ كار (إدوارد): ما هو التاريخ، ترجمة د. أحمد حمدى، راجعه على أدهم، ص ٧٥ ـ ٧٦، ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ٢، ص ١٥٤.

(١) حسين مؤنس: التاريخ والمورخون، ص ١٥٥ ـ ١٥٦

وفى اعتقاد المؤرخ كولنجوود(١) أن كل مؤرخ يتفق معه أن التاريخ نوع من أنواع البحث العلمى، ويندرج من حيث «الأصل» تحت مانسميه العلوم، والتاريخ هو العلم الخاص بالجهود الإنسانية، أو هو محاولة تستهدف الإجابة عن الأسئلة، التى تتعلق بجهود البشرية فى الماضى.

ومن المؤكد أن التاريخ علمى فى منهجه، فإذا قلنا أن اثنين واثنين تساوى أربعة أو أن الهيدروجين والأكسجين إذا خلطا معاً بنسب خاصة تحت ظروف خاصة فإنهما يكونان الماء، فليس هناك من شك أنه فى يوم ١٢ كتوبر عام ١٩٤٢، نزل جماعة من التجارة بقيادة كريستوفر كولومبس على جزيرة واتلنج. وحقيقة هذه الحادثة تثبتها سلسلة من الوثائق اختبرت صحتها وقابليتها للتصديق بعناية كبيرة، وستظل على ذلك إلى أن يحين ظهور وثائق أكثر صحة وقابلية للتصديق منها(٢).

وقد أصر المؤرخ الفرنسى فوستل دى كولانج (١٨٣٠ - ١٨٨٩) الذى يعتير مؤسس المنهج العلمى فى دراسة التاريخ، على أن «الوطنية فضيلة والتاريخ علم، والإثنان ينبغى ألا نخلط بينهما». كما قال فى محاضرة ألقاها فى سنة ١٨٦٢: «أيها السادة، أريد أن يكون واضحا مفهوماً أن التاريخ شىء أكثر من التسلية، وليس المقصود منه أن يشبع فضولنا أو يشغل ذاكرتنا، فالتاريخ علم وينبغى أن يكون كذلك، وهدفه أعظم سمواً.(٣).

فائدة التاريخ:

تدور جهود المؤرخين حول النفاذ إلى الماضى، بهدف استلهام أحداثه والتأمل فيها، ومعرفة كل ما طرأ عليهامن تغيير. ولاشك أن التنقيب عن تلك الأحداث والوقوف على كنه دوافعها ونتائجها، يكشف

---

(١) فكرة التاريخ (القاهرة١٩٦٨)، ص ٤١ - ٤٢.

(٢) لويس جوتشلك: كيف نفهم التاريخ - مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخى، ترجمة د. عائدة سليمان عارف، د. أحمد مصطفى أبو حاكمة (بيروت ١٩٦٦)، ص ٢٠.

(٣) Stern, The Varieties of History... PP. 178-179.

لنا عن الدروس التى تفيد فى توجيه حاضرنا وفهم مستقبلنا، وكيف ينبغى له أن يجىء فالمستقبل ملتقى أنظار الجميع ومحط آمالهم.

والتاريخ فى حقيقته يحاول الإجابة على سؤالين هامين هما: كيف كانت حياة الإنسان فى العصور الماضية؟ وكيف وصل الحاضر إلى ما هو عليه الآن؟ فإذا كنا نهتم بالماضى من أجل معرفته، فينبغى ألا ننسى القيمة العظيمة التى يفرزها لنا الماضى، وهى الوقوف على أوضاع المجتمعات السابقة لنا، والعادات والتقاليد والأفكار التى اندثرت وتركت القليل - أو لاشىء - خلفها. فأنت لاتستطيع أن تفهم وطنك ما لم تعرف شيئاً من تاريخه، كذلك لايمكنك أن تفهم أفكارك الخاصة وميولك وأهواءك وردود الفعل العاطفية الكامنة فى داخلك، ما لم تعرف تراثك وكيف أنه جاء إليك. فعلى سبيل المثال لماذا يتصرف الإنجليزى بطريقة معينة، والفرنسى بطريقة مختلفة عنها؟ الواقع أن دراسة التاريخ وحدها هى التى تخبرنا، إذ لا فرق بين الماضى والحاضر، فكل جزء من حاضرنا يبتلعه الماضى أولا بأول(١).

ويذكر كولنجوود إن فلسفة التاريخ لاتعنى بالماضى فى ذاته، ومعرفة هذا الماضى ليست - ولايمكن أن تكون - هدف المؤرخ، وإنما هدفه - وهو هدف كل مخلوق يفكر - هو معرفة الحاضر، إلى هذه الغاية ينبغى أن ينتهى كل تفكير، وحول هذه الغاية ينبغى أن يدور كل شىء. إن الماضى الذى يدرسه المؤرخ ليس ماضيا ميتا، بل هو ماض بمعنى مازال يحيا فى الحاضر، ولكن أى فعل ماض لايعنى شيئاً للمؤرخ حتى يتسنى له فهم الفكر الكامن وراءه. ومن ثم «فإن كل التاريخ تاريخ فكر»(٢) ويذهب

(١) Trevelyan (G.M.), Hist, and the Reader (London, 1945), PP. 16-20.

(٢) كار: ما هو التاريخ؟ ص ٢٨-٢٩؛ حسين مؤنس: التاريخ والمورخون، ص ١٦٨ - ١٦٩.

المؤرخ الإيطالى بنديتو كروتشه[1] (١٨٨٦ - ١٩٥٢) Benedetto Croce إلى اعتبار التاريخ كله معاصراً، ولايستطيع أن يفهم حاضره دون أن يفهم الماضى، والتأمل فى الماضى يبعد الإنسان عن ذاته، ومعرفة الإنسان بنفسه لاتقف عند حد معرفته الشخصية التى تفرق بينه وبين إنسان آخر، بل أقدر على حسن التصرف فى الحاضر والمستقبل[2]. وعلى هذا يخبرنا باحث فى التاريخ أنه «لايوجد فى الحقيقة شىء مفاجىء فى التطورات العظمى للتاريخ، ولاشىء يمكن توضيحه فى الأمور الإنسانية دون الرجوع إلى الماضى، ومن هنا تظهر قيمة التاريخ وجدواه، إذ هو يتضمن الأسباب التى أوجدت الرجال والشعوب والإمبراطوريات فى الوقت الحاضر، ويمدنا بالوسائل الوحيدة التى تمكننا من فهم الحاضر، والأرض الصلبة التى نستطيع بها وضع الأساس لخطط مستقبلنا»؛ وتشير إحدى النصوص القديمة إلى أنه «لو عرفنا شيئا من ماضى أى جماعة من الرجال، فلن يتوفر لدينا بعض الوضوح عن معنى سلوكهم الحاضر فحسب، بل أيضا قدراً من الارشاد لما نتوقعه منهم»[3].

وكان المؤرخ اليونانى بوليبيوس (١٩٨ - ١١٧ ق.م) يعتبر التاريخ أفضل وسيلة لتعليم الفلسفة عن طريق العبر والأمثلة التى يقدمها. وخلاصة رأيه فى هذا المجال أن الإنسان يتعلم من أخطاء غيره الشىء

---

(١) بنديتوكرتشه: فيلسوف ومؤرخ إيطالى، ظل طوال النصف الأول من القرن العشرين، يعتبر أبرز المفكرين الإيطالين وأعظمهم، كما اعتبر المؤسس لتيار فكرى هام كان الوجه البارز فى الفكر الأوربى والغربى عموما المناقض لكل من الماركسية والوجودية، خصوصا فى مجالات فلسفة التاريخ وفلسفة الجمال. وكان تأثيره قويا على أصحاب الاشتراكية العلمية الذين رفضوا تفسير ماركس الاقتصادى لحركة التاريخ، وأكدوا أهمية العوامل الفكرية والثقافية أو الأخلاقية فى النهاية.

(٢) كولنجوود: فكرة التاريخ، ص ٤٣ - ٤٤؛ حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص١٣.

(٣) Smellie (K.B.), Why we read History. Ed. By H.M. Burton (Londin. 1947), p. 60.

الكثير، والتعلم من أخطاء الغير أفضل وأقل خطراً من تعلم الإنسان من أخطائه الشخصية لأنه يرى نتائج أخطاءه غيره فيتجنب سلوك نفس المسلك، أما أخطاؤه هو فقد تكون مميتة ولاتتيح له فرصة الاستفادة منها. وهكذا يصل إلى القول بأن «أحسن ثقافة من أجل الحياة الحقيقية هى معرفة الأشياء والعبر التى قدمها لنا التاريخ الفعلى التى تتيح للإنسان دون أن تعرضه للأخطار معرفة الطريق الأفضل والسلوك الأحسن فى كل الظروف والمناسبات». وقد انطلق بوليبيوس من هذا المفهوم فى تدوين التاريخ، فاعتمد على صدق الحقائق التايخية أكثر من شيء آخر من أجل إعطاء القارىء الدرس الحقيقى الذى يفيد منه فى سلوكه سواء كان حاكما أم محكوما، كبيراً أم صغيراً. وكان بوليبيوس يعتقد أن زخرفة الكلام وتنميقه والاعتناء بالحشو والأساطيرلايخدم الهدف الذى من أجله يجب أن نقرأ التاريخ، وإنما يخدم هذا الهدف الحقائق البسيطة التى لايشوهها تزويق أو بهرجة أو تحوير. إن مايهمه هوالحقائق المجردة التى يقبلهاعقل الإنسان السوى ويفيد منه. ولماكان التاريخ «ذريعة» للوصول إلى هدف هو «العبرة»، فإن هذه «الذريعة» يجب أن تكون سليمة من كل غش حتى يمكن الوصول إلى الهدف مأمونا سليم النتائج(١).

ويقدم المؤرخ البيزنطى بروكوبيوس (٥٠٠ ـ ٥٦٥م) Procopius الدليل القوى، فى مقدمة كتابه عن الإنجازات المعمارية الضخمة، على أهمية كتابة التاريخ لما يحفظه من عبرة تتعلق بالفضيلة والرذيلة. وقال أنه من الواجب على الأجيال القادمة أن تقتدى بالأعمال الفاضلة، وتتجنب الأعمال الشريرة، ثم قال متعجبا: «ما أكثر الفوائد التى من الممكن أن تحققها الدول من دراسة التاريخ! وما أعظمها! إن التاريخ ينقل إلى الأجيال التالية ذكرى الذين رحلوا، ويقف بثبات ضد عوامل النسيان.

---

(١) نورالدين حاطوم وآخرون: المدخل إلى التاريخ (دمشق ١٩٦٥) ص ١٢١ ـ ١٢٢.

ويحض الذين يطلعون عليه من حين إلى آخر على الفضيلة، بفضل الثناء الذى يطرحه عليها، ويهاجم التاريخ الرذيلة باستمرار بالعمل على تجنب الوقوع تحت سيطرتها. وهكذا يجب أن يكون ذلك هو اهتمامنا الكلى،فكل أعمال الماضى ستوضح بجلاء، مع ذكر فاعلها، أيا كانت شخصيته»(١).

وقد كتب فى علم التاريخ وفوائده كثيرون من المسلمين، حتى قل أن تجد مصنفا فى التاريخ خلا من الإشارة إلى هذا العلم وبيان منفعته. وهذا ابن الأثير يعبر عن ذلك بكل وضوح فى تاريخ الكامل الذى وضعه لبدر الدين لؤلؤ بن عبدالله الأتابكى، الملقب بالملك الرحيم، صاحب الموصل المتوفى سنة ٦٥٧هـ (٢٣٥٩م) فهو يبين مانصه «فمن فوائد التاريخ: أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهى، إذا وقفوا على ما فيه من سيرة أهل الجور والعدوان ورأوها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس، فيرويها خلف من سلف، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر، وقبيح الأحدوثة، وخراب البلاد وهلاك العباد، وذهاب الأموال، وفساد الأحوال، استقبحوها وأعرضوا عنها وأطرحوها. وإذا رأوا سيرة الولاة العدالين وحسنها، ومايتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وأن بلادهم وممالكهم عمرت وأموالها درت، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه، وثابروا عليه وتركوا ماينافيه. هذا سوى مايحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التى دفعوا بها مضرات الأعداء وخلصوا بها من المهالك واستعانوا نفائس المدن وعظيم الممالك، ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخراً. ومنها مايحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها، فإنه لايحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره، فيزداد بذلك عقلا، ويصبح لأن يقتدى به أهلا»(٢).

---

(١) جوزيف داهموس: سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر (القاهرة ١٩٨٩)، ص ٢١ ـ ٢٢.

(٢) الكامل فى التاريخ (بيروت ١٩٦٥). جـ١ ص٧.

ولم يخرج عن ذلك ماقاله ابن خلدون[1] (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) فى قيمة التاريخ وجدواه: «إعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم، والأنبياء فى سيرهم، والملوك فى دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا..». وخلاصة ما قاله ابن خلدون هى أن التاريخ ينفع فى العظة والعبرة، فنحن ندرس تواريخ الدول والملوك لنتعلم، وندرس سير الأنبياء لنتأسى بهم، وندرس تجارب الأمم ونرى ماوقعت فيه من الأخطاء لننجو بأنفسنا عن المزلات ومواطن الضرر، ولهذا نجد ابن خلدون يسمى تاريخه الكبير «كتاب العبر»[2].

وفى كلام السخاوى[3] عن فائدة التاريخ نجده يقول: «والتاريخ يتناول أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم وسننهم، فهو مع أخبار العلماء ومذاهبهم والحكماء وكلامهم والزهد والنساء ومواعظهم، عظيم الغناء، ظاهر المنفعة، فيه ما يصلح الإنسان به أمر معاده ودينه وسريرته فى اعتقاداته وسيرته فى أمور الدنيا ومايصلح به أمر معاملاته ومعاشه الدنيوى. وكذا مايذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم وأسباب مبادىء الدول وإقبالها ثم انقراضها وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء وما يتصل بذلك من الأحوال التى يتكرر مثلها وأشبابها أبداً فى العالم، غزير النفع، كثير الفائدة، بحيث يكون من عرفه كمن عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها، وباشر تلك الأحوال بنفسه، فيغزر عقله، ويصير مجرباً غير غِرٍّ ولا غمْز...».

وقد كتب المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) فى مقدمة كتابه

(١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. على عبدالواحد وافى (القاهرة ١٩٦٥)، ص ٣٦٢ - ٣٦٣؛ مقدمة ابن خلدون، جـ١ (بيروت ١٩٨٨)، ص ١٣.

(٢) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ١٤.

(٣) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٣٣.

«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»[1] ما يعبر عن رؤيته لوظيفة التاريخ، إذ يقول: «وبعد، فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدراً، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطرا، لما يحويه من المواعظ والإنذار بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار، والإطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها، واستعلام مذام الفعال ليرغب عنها أولو النهى...». كما يقول أيضا: «وأما منفعة هذا الكتاب، فإن الأمر فيها يتبين من الغرض في وضعه ومن عنوانه، أعنى أن منفعته هى أن يشرف المرء في زمن قصير على ماكان فى أرض مصر من الحوادث والتغييرات فى الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة، فتتهذب بتدبر ذلك نفسه وترتاض أخلاقه، فيحب الخير ويفعله، ويكره الشر ويتجنبه، ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالإعراض عنها، والإقبال على ما يبقى». وهو مايعنى أنه يرى فى التاريخ علماً ذا وظيفة أخلاقيه، وهدف عملي تعليمي.

ويرى الفيلسوف والمؤرخ كوندرسيه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) Condorcet الذى عاش السنوات الأولى من الثورة الفرنسية وشارك فى أحداثها، أن التقدم «ضرورة»، أما التدهور أو النكوص فهو «عرض»، والتقدم يعبر عن قانون التاريخ نفسه، على حين أن التدهور يعبر عن الإلغاء المؤقت لهذا القانون. وكل جيل من أجيال الإنسانية يرتبط ارتباطا وثيقا بالإجيال التى سبقته ويعتمد عليها، وهذه الحتمية التاريخية هى ضمان التقدم الإنسانى .ومما لاشك فيه أن من ضروب هذا التقدم ما سيسير بسرعة، ومنها ما سيسير ببطء، ولكن هذا السير لن يعود القهقرى، مادامت الأرض تحتل دائما مكانها فى النظام الكونى[2]. ولاحظ كوندرسيه أن

---

(١) جـ (بولاق ١٢٧٠هـ)، ص ٢ - ٤؛ قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص٢٣٨.

(٢) Heilbroner (Robert L.).The Future as History (New York. 1960). P. 22.
السيد محمد بدوى: مخطط تاريخى لتقدم العقل البشرى لكوندرسيه (القاهرة ١٩٩٥)، ص ٢٦ - ٢٧.

وظيفة المؤرخ هى اكتشاف العقبات التى وقفت - أو قطعت - المجرى الطبيعى للتقدم والتخلص منها، وعمله هو انتزاع الماضى من ظهر الحاضر، حتى يمكن للحاضر أن ينهض ويواصل رقيه ورخاءه وسعادته وكماله[١]. وأساس تقدم الإنسانية هو تقدم العقل البشرى، فعن طريق تقدم القوى العقلية تتقدم الجوانب الإنسانية الماديةوالاجتماعية. ودراستنا للتقدم الذى تم فى العصور القديمة والسابقة والذى يحدث فى عصرنا تساعدنا فى معرفة التقدم الذى سيحدث فى المستقبل.ويحدد كوندرسيه أهم العقبات التى تلعب دوراًهاما فى عرقلة تقدم الإنسانيةوهى المعتقدات المسلم بها سابقا دون برهنة على صحتها، وتعد الخرافات أوضح مثل لتلك المعتقدات[٢]. وقد وضع كوندرسيه قانوناً عاما لتقدم الإنسانية، ويقوم هذا المبدأ على أساس تقدم العقل البشرى، فإن مراحل تقدم الإنسانية هى ذاتها مراحل تقدم العقل البشرى، أى أن كل مرحلة منها تعبر عن سمات أساسية فى تقدم العقل البشرى. وقد مر التقدم الإنسانى فى عشر مراحل، تمثل المرحلة العاشرة فيه مستقبل الإنسانية فى العصور التى تلى عصر كوندورسيه (ما بعد القرن الثامن عشر الميلادى)[٣]. وعند عرضه للمستقبل نلاحظ سيطرة نزعته التفاؤلية على تنبؤاته، ولذلك رسم صورة جميلة مشرقة لمستقبل الإنسان، وتتلخص أمنياته التى ستتحقق فى المستقبل فى النقاط الثلاث الأساسية: قيام المساواة بين الأمم،وتقدم المساواة بين أفراد الشعب الواحد، والتحسن الخلقى للإنسان[٤].

وقد كتب العالم دافيدهيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) David Hume مقالة موجزة جعل عنوانها «عن دراسة التاريخ»، بدأها بالإصرار على أنه

(١) Heilbroner< Op. Cit.. 43: Smellie. Why we read History. P. 60.

(٢)عاطف وصفى: كوندرسيه (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٣٨ - ٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٩٩، السيد محمد بدوى: المرجع السابق، ص ٤٦.

«تسلية مناسبة» أمتع وأروح للعقول من القصص، وفى التاريخ يشهد المرء قيام وتقدم وسقوط وتمام الفناء النهائى لأشد الإمبراطوريات ازدهارا، والفضائل التى أسهمت فيما بلغته من عظمة، والرذائل التى اجتلبت عليها دمارها. ودراسة التاريخ «توسع» بمعنى ماحياة الإنسان، وهى فى حد ذاتها قصيرة وجيزة الأمد، والرجل الملم بالتاريخ يمكن من بعض النواحى أن يقال عنه أنه عاش منذ بداية العالم. وقد اقتنع هيوم بأن التاريخ يدور حول ما هو واقعى، وأن العنصر الخلقى Ethical يسيطرعليه، ولذلك كتب يقول: «لقد كان المؤرخون جميعا بلااستثناء أصدقاء الفضيلة المخلصين(١).

وتكمن ميزة التاريخ أساسا فى المقارنة التى يمكن أن يضعها أى رجل دولة أو مواطن بين القوانين والعادات الأجنبية وتلك السائدة فى بلده، وهذا هو الذى يحث الناس فى العصر الحديث على المنافسة فى مجالات الفنون والزراعة والتجارة. كما أن الأخطاء الجسيمة التى حدثت فى الماضى نافعة للغاية فى صور شتى، فمثلا الاطلاع على تاريخ أحد الطغاة من الممكن أن يمنع شعب من إعطاء سلطة مطلقة إلى طاغية(٢).

ولعل أوضح فوائد التاريخ أنه يعنى بالتربية المدنية والسياسية، وقد عبر عن ذلك المؤرخ الإنجليزى جون سيلى (١٨٣٤ - ١٨٩٥) John Seeley فى محاضرة له فى «فى تدريس العلوم السياسية» سنة ١٨٦٩، فقد قال: «إن التاريخ مدرسة السياسة»، ويعنى ذلك أن التاريخ هو السياسة الماضية، والسياسة هى التاريخ الحاضر وبدون مقدار يسيرمن التاريخ على أقل تقدير لايمكن أن يعنى الإنسان عناية معقولة بالشئون السياسية، وبدون حظ وفير منه لايمكنه أن يصدر حكما معقولا فى الأحداث المعاصرة، كما أن التاريخ دراسة هامة لكل مدنى، ورجال الحكم والتشريع أشد الناس حاجة إلى فهمه(٣).

(١) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ٢ ص ٤١-٤٢؛ هرنشو: علم التاريخ، ص١١٣-١١٤.

(٢) Stern, The Varieties of History., p. 441.

(٣) Rowse (A.L.), The use of History (New York, 1948(, pp. 5-

ويلاحظ أن معظم الصحفيين من ذوى النفوذ، والذين يلعبون دوراً بارزاً فى تكوين رأى صائب فى الشئون العامة، يتمتعون بعقلية تاريخية. وفى مجال الخدمة المدنية Civil Scrice وخاصة وظائفها العالية، يعتبر التاريخ أحد العوامل الهامة لمن يريد شغل هذه الوظائف، ذلك أنه يعطى خلفية صحيحة لمعظم الأمور التى سوف يجرى ممارستها فى الخدمة المدنية الإدارية .وإذا كان التاريخ هاما لمن يعملون فى الخدمة المدنية، فلاشك أنه لاغنى عنه لمن يعمل فى السلك الدبلوماسى خارج الوطن(١)، والزعماء السياسيين ورؤساء الحكومات الذين يحتلون قمة الخدمة المدنية، ذلك أنه لايستطيع شعب أن يتحمل وجود زعيمه السياسى دون أن يكون ملما بحقائق التاريخ ونزعاته وتاريخ أوربا الحديثة وتاريخ العالم(٢).

ومن أولى فوائد التاريخ أنه يعينك عل أن تفهم - أفضل مما تفهم بمساعدة أية معرفة أخرى - الأحداث العامة والاتجاهات المعاصرة لك، فهل هناك ماهو أهم من ذلك؟ وإذا أنت لم تفهم العالم الذى تعيش فيه، فما أنت إلامجرد لعبة فى يده، وعرضة لأن تكون ضحيته(٣)· ولكن للأسف فإن القلة القليلة هى التى تستفيد من التاريخ، بصورة مطابقة لمايقوله الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel: «الشيء الوحيد الذى يتعلمه المرء من التاريخ، أنه لاأحد يتعلم شيئا من التاريخ»، وعلى الرغم مما يحمله هذا القول من يأس، فإننا نستطيع أن نتعلم الكثير من التاريخ، فهو يقدم لنا معيناً لا ينضب من التجارب الإنسانية المفيدة التى نستطيع الاعتماد عليها(٤).

وقد سبقت الإشارة إلى أن التاريخ يدورحول المجتمعات الإنسانية وما

---

(١) Ibid., p. 10.
(٢) Ibid., p. 16.
(٣) Ibid., Pp 16.
(٤) †Ibid., p. 29.

أصبحت عليه، وتطورها خلال تعاقب العصور، والقوى التى كانت تحركها، والدوافع والنزعات - العامة والخاصة - التى شكلت أحداثها، أى أن التاريخ دراسة تتناول الطبيعة البشرية كل الوقت وتتعامل معها. ولهذا كانت قراءة سير الشخصيات التاريخية العظيمة مفيدة إلى حد بعيد، ولكن التاريخ لايتناول حياة تلك الشخصيات فحسب، بل يتكون من رواسب حياة الملايين من الرجال والنساء الأقل شأنا الذين لم يتركوا لنا أسماءهم، رغم أن حياتهم شكلت مادة التاريخ(١).

ومن الواضح أن للتاريخ غرضا أخلاقيا، فيقول المؤرخ الإنجليزى تريڤليان إن التاريخ يساعد المواطن على نبذ التعصب والتحيز، ويشحذ نشاطه ويدرب عقله على اتخاذ نظرة متوازنة إزاء المسائل السياسية، والتاريخ أساس تعليم الشعوب، وينبوع ثقافتها، وبه تتذوق تراثها الأدبى، وتندمج مع المثل العليا(٢).

ومهما كان من أمر، فالإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا لاغنى له ن دراسة ماضيه أو تاريخه، وما يتبع ذلك من ضرورة التوجه بالنظر إلى آفاق المستقبل فى عصرنا الحالى الملىء بالتحديات. ومن هذا المنطلق، فإن الأمة التى تسترجع أمجادها، وتكشف عن مآثرها العلمية والأدبية، وماوصلت إليه من رقى وازدهار، ثم انطوت على نفسها تتغنى بما كان لهامن أمجاد تعويضا لها عما تقاسيه من تخلف حاضرها، هى أمة مشدودة إلى الماضى، ضاع منها طريق الحاضر والنظرة الصائبة إلى المستقبل. ويبدو الفارق واضحا بين تلك الأمة وغيرهامن الأمم التى تعود إلى ماضيها لتأخذ منه الدروس التى تنهض أساساً لإفادة الحاضر،

---

(١) Ibid., pp. 16-17.

(٢) Winkler, (Hernry R.), George Macaulay Trvelyan, p. 32, in Some the century Historians, ed. by William Halperin, (U.S.A., 1961).

والانتفاع بتجاربهافى المستقبل لتلاحق متطلبات العصر وإنجازاته. ولاشك أن مثل هذه الأمة قد تحررت من تبعية التاريخ وأصفاده الثقيلة، وتكونت لديها رؤية تاريخية حقيقية تتيح لها الانطلاق فى ميادين العلم والثقافة والاقتصاد والاجتماع والسياسة بعزيمة قوية، وروح وثابة.

الصفات الواجب توفرها فى المؤرخ:

لايدرس التاريخ عفواً ولايكتب اعتباطا، وليس كل من يحاول الكتابة فى التاريخ يصبح مؤرخا، كما قد يتصور بعض الناس، أو كما يتخيل بعض الكتاب، حينما يسطرون صفحات طويلة عن حوادث ماضية أو معاصرة، ويعتقدون بذلك أنهم يكتبون تاريخا، ماداموا قد أمسكوا بالقلم، فلابد من أن تتوفر في المؤرخ الصفات الضروريةوأن تتحقق له الظروف التى تجعله قادراً على دراسة التاريخ وكتابته[١].

وأول صفة ينبغى أن يتحلى بها كاتب التاريخ ليصبح مؤرخا هى صفة عامة لابدمنهافى كل الباحثين فى شتى العلوم، تلك هى حب الدراسة. فقد يكون البحث شاقا، وقد تكون المصاعب التى تعترض الباحث أثناء عمله مصاعب جمة، كندرة المصادر وغموض الوقائع أواختلاطها واضطرابها.لكن ذلك لاينبغى أن يصد الباحث عن بذل الجهد والصبرعلى مواصلة الدراسة ولو أخذ منه السنين تلو السنين، ذلك إن الإسراع والتعجل سوف يؤديان دون شك إلى طمس الحقيقة التاريخية[٢].

ومن الصفات الأساسية المؤرخ عدم التحيز، فعليه أن يحرر نفسه من العطف أوالإعجاب أو الكراهية لجماعة من الناس: أمة، حزب، فرقة، إقليم، مدينة، أسرة، أو لمجموع من المذاهب أوالمؤسسات: دين،فلسفة،

---

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى (القاهرة ١٩٨٠)، ص ١٨.
(٢)حسنين محمد ربيع: محاضرات فى علم التاريخ (القاهرة ١٩٩٦). ص ٣٦ ـ ٣٧.

فرقة سياسية، وإلا شوه الوقائع ابتغاء ان يعطى فكرة حسنة عن أصدقائه، وسيئة عن خصومه، ومنذ العصر القديم كان الشائع عند المؤرخين أن يتباهوا بأنهم تجنبوا هذا أو ذاك، أى التحيز مع أو ضد[1]. ويقول بوليبيوس: «إن التاريخ يجب أن ينزه عن الأغراض التى تشوه الحقائق، وإذاماوقف الإنسان موقف المؤرخ فعليه أن يتخلى رأساً عن جميع الاعتبارات كحب الإنسان لصديقه وكرهه لعدوه .... وعليه فى بعض الأحيان ألا يتورع عن مدح أعدائه وذم أصدقائه. وكما أن الإنسان يفقد كل قيمته فيما إذا انتزعت منه عيناه، كذلك التاريخ يفقد كل أهميته إذا ما انتزعت منه الحقيقة ولا يبقى منه إلاقصة لاقيمة لها»[2]. وفى مكان آخر يقول بوليبيوس: «إن واجب المؤرخ ليس إثارة دهشة القارىء بما يقدمه من مبالغات وأساطير، فهذا من اختصاص كتاب المأساة (التراجيديا)، إن المؤرخ الحق هو الذى يقدم الحقائق الخالصة مهما كان نوعها أو مضمونها كما حدثت تماما دونما تحريف أو تزوير أو مبالغة، لأن هدف التاريخ مختلف تماماعن هدف التراجيديا ومعاكس له. فالتراجيديا تهدف إلى استثارة الجمهور استثارة مؤقتة، فى حين أن التاريخ يهدف إلى إبراز الحقائق والأحداث الصحيحة، ليتعلم الإنسان ويكتسب المعرفة على مر العصور. إن كاتب التراجيديا يرضيه أن يصفق له جمهوره، ولو كان هذا التصفيق كذبا وزوراً، فى حين أن المؤرخ لاتقنعه إلا الحقائق لأنه يروم نشر الفائدة بين تلاميذه»[3].

وقد أعطى لوشيان من ساموساتا (١٢٥ ـ ٢٠٠م) وهومؤرخ يونانى متشكك صفات المؤرخ المالى بقوله: «لايعرف الخوف، غيرقابل للفساد،

---

(١) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى (الكويت ١٩٧٧)، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) نور الدين حاطوم وآخرون: المدخل إلى التاريخ، ص ١٠٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٢.

حر، صديق للتعبير الحر والحقيقة، لايتأثر بالكراهية أو الصداقة، لايفضى عن أى شخص، لا يظهر رثاءً ولاخجلا ولاخضوعا، قاض محايد، حسن السلوك مع كل الرجال إلى الحد الذى لايعطى فيه جانبا أكثر مما يستحق، ورجل لا ينتمى إل بلد من البلاد، مستقل، لايخضع لأى سلطان، غير عابىء بما يظنه هذا الرجل أو ذاك ولكنه يقرر الحقائق». وكتب بييربايل من روتردام فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى أن «المؤرخ بوصفه مؤرخا هو كأنه بلا أب، ولا أم، ولا أجداد. ويجب حين يسأل من أين جاء: أنا لست فرنسيا ولا ألمانيا ولا أسبانيا، وأنا مواطن عالمى. أنا لا أخدم الإمبراطور أو ملك فرنسا، وإنما أخدم الحقيقة وحدها: إنها ملكتى الوحيدة التى أقسمت على طاعتها»[1].

ويكون المؤرخ بمثابة القاضى الذى لايكون حكمه أقرب إلى العدل إلابقدر المستوى الذى يصل إليه البعد عن التحيز والهوى[2]. ومع هذا فإن الأصول القضائية أرحم من الأصول التاريخية، فمن أصول الأحكام القضائية براءة الذمة، وأن المتهم برىء إلى أن تثبت إدانته، أما فى التاريخ فكل رواية متهمة إلى أن يقوم الدليل على براءتها، ولذا كان لابد للذى يتصدى لدراسة التاريخ أن يتجهز بالشك النافذ المتزن، وأن ينمى فى ذاته الحس النقدى الحاد الواعى، ولكن ينبغى اتخاذ الحذر من المغالاة فى الشك والنقد[3]. ويرى المؤرخ الأديب على أدهم «أن إسناد وظيفة القاضى، إلى المؤرخ ليس من الصواب، لأن عمل القاضى أن يفصل فيما بين المتهم والشاكى، ويحكم بالإدانة أو البراءة. وعمل المؤرخ يختلف عن ذلك، فهو يراقب الأعمال والرجال ويصف ما يرى دون أن يمدح أو يذم»[4].

---

(١) هانزكوهن: عصر القومية، ترجمة عبدالرحمن صدقى، مراجعة مصطفى حبيب (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٨٩.

(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ١٦.

(٣) قسطنطين زريق: نحن والتاريخ (بيروت ١٩٥٩)، ص ٥٩.

(٤) أحمد حسين الطماوى: على أدهم بين الأدب والتاريخ (القاهرة ١٩٩٠)، ص ١٠٥.

ومن المزايا المطلوبة فى علم التاريخ أنه ينبغى على المؤرخ أن يكون بعيداً عن حب الشهرة والظهور، وألا يحفل بالكسب والألقاب والجاه والمناصب، وأن يكرس نفسه لعمله العلمى فى صمت وسكون، من غير أن يوزع جهده هنا وهناك، ودون أن يقوم بأعمال أخرى، نافعة بغير شك، ولكن يمكن أن يقوم بأدائها آخرون على خير وجه، إذ أن الحقيقة العلمية التى قد يكشف عنها تعدل كل ألوان الكسب وصفوف المناصب أو تزيد عنها .ولا شك أن العاكفين المتفرغين للدرس والبحث فى كافة العلوم والآداب والفنون ـ ومنهم المؤرخون ـ هم الذين يقوم على أكتافهم تقدم الإنسانية وازدهار الحضارة(١).

وقبل العصر الذى أصبح فيه التاريخ علما، نلاحظ فى التراث الإسلامى أن أكثر المؤرخين المسلمين قد التزموا فى غالبية كتاباتهم الحيدة والتجرد عن الهوى، وقدموا لنا رؤية سليمة فيما ينبغى أن يكون عليه المؤرخ من دقة وموضوعية وصدق، فقد اكتفوا بسرد الأحداث دون تعليق، وأقدموا على تسجيلها دون وجهة نظرمسبقة، وألزموا أنفسهم بقسط من الموضوعية يندر أن نجدها فى غيرهم.وهذه الصفات التى ينبغى على المؤرخ العمل بها،هى التى ـ على سبيل المثال ـ جعلت مؤرخا واعيا بصيرا من مؤرخى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)، وهو ابن طباطبا العلوى المعروف بابن الطقطقى (ت ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) يقول: «والتزمت فيه ـ يعنى فى كتابته ـ أمرين: أحدهما ألا أميل فيه إلا مع الحق، ولا أنطق فيه إلا بالعدل، وأن أعزل سلطان الهوى، وأخرج من حكم المنشأ والمربى (اعتبارات البيئة)، وأفرض نفسى غريباً منهم وأجنبيا بينهم»(٢).

---

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ١٩.

(٢) محمد عبدالغنى حسن: علم التاريخ عند العرب (القاهرة ١٩٦١)، ص ٣٧.

ويشترط العلامة ابن خلدون[1] فى المؤرخ أن يكون عالما «بقواعد السياسةوطبائع الموجودات، واختلاف الأمم والبقاع والأعصار فى السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون مابينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على أصول الدول والملل،ومبادىء ظهورها، وأسباب حدوثها، ودواعى كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوفيا لأسباب كل حادث، واقفا على أصول كل خبر.....».

أما المؤرخ السخاوى[2] (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) فيقول عن الشروط التى ينبغى أن تتوفرفى المؤرخ: «ويشترط فى المؤرخ الصدق، وإذا نقل يعتمد على اللفظ دون المعنى، وألايكون ما نقله مما أخذه فى المذاكرة ثم كتبه بعد، وأن يسمى المنقول عنه، فهذه شروط أربعة فيما ينقله، أما ما يقوله من قبل نفسه وماعساه يطول فيه من المنقول بعض التراجم دون بعض، فيشترط فيه أن يكون عارفا بحال المترجم علما ودينا وغيرها من الصفات وهو عزيز جدا، وأن يكون حسن العبارة عارفا بمدلولات الألفاظ حسن التصوير بحيث يتصور حين ترجمة الشخص جميع حاله، ويعبر عنه بعبارة لاتزيد عنه ولا تنقص، وأن لايغلبه الهوى فيخيل إلية هواه فى الإطناب فى مدح من يحبه والتقصير فى غيره، وذلك بأن يكون عنده من العدل، ما يقهر به هواه ويسلك معه طريق الإنصاف، وإلا فالتجرد عن الهوى عزيز».

(١) المقدمة، ص ٢٥١.
(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٧٣ ـ ٧٤.

وفى تاريخ مصر الحديث يقدم لنا الشيخ عبدالرحمن الجبرتى (ت ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م) صورة كاملة للمجتمع المصرى خلال العصر العثمانى فى موضوعية تبين دقته، وتبين كذلك أنه يؤكد أنه يكتب للحقيقة والتاريخ. فهو يقول فى مستهل كتابه «عجائب الآثار فى التراجم والاخبار»: «ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير، ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفسى أو غرض جسمانى». ولكن هذه الموضوعية لاتجعل من تاريخ الجبرتى تاريخاً بارداً، فكتاباته تفيض بالحياة الدافئة، والسبب فى ذلك أنه ينفعل بالأحداث انفعالا عميقا. وأول ما يسترعي النظرلمن يقرأ الجبرتى حب الرجل لبلده التى شاركها فى أفراحها ومصائبها بكل قطرة، فهويكتب عنها وكأنه يكتب بلحمه ودمه[1].

ونخلص من هذا إلى أن الشروط الواجب توفرها فيمن يتصدى لكتابة التاريخ تنقسم إلى قسمين: قسم يرجع إلى مادة المؤرخ ومعلوماته ومعارفه كما سنرى فيما بعد، وقسم يرجع إلى أخلاق المؤرخ ونفسيته. فالمعرفة بحال المترجم، وحسن العبارة، وحسن التصور، ومدلولات الألفاظ، كل ذلك من الشروط المادية المتصلة بمعارف المؤرخ ومعلوماته ومادته التاريخية، والصدق وعدم غلبة الهوى فى الأحكام، وسلوك طريق الإنصاف والبعد عن التحيز والتعصب، كل ذلك من الشروط الخلقية فى المؤرخ[2].

---

(١) محمد أنيس: مدرسة التاريخ العثمانى (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٢٩.

(٢) محمد عبدالغنى حسن: علم التاريخ عند العرب، ٢ ٢ ٢٧ ـ ٣٠

الفصل الثانى

كتابة التاريخ فى العصور القديمة

كتابة التاريخ فى الشرق القديم
كتابة التاريخ عند اليهود
كتابة التاريخ عند الصينيين
كتابة التاريخ عند اليابانيين
كتابة التاريخ عند الهنود
كتابة التاريخ عند اليونان
كتابة التاريخ عند الرومان

الحقيقة أن علم التاريخ علم قديم يرجع إلى العصر الذى ترك فيه الإنسان آثاره على الصخر. فالإنسان البدائى الذى عاش فى الكهوف زين كهفه بالنقوش البدائية التى تصورحياته ليراها ويدرسها من يأتى من بعده . وربما كانت تلك الصور التى حفظتها لنا كهوف الإنسان الأولى هى أول مـادون الإنسـان من تاريخـه. وهذا يؤدى بنا إلى القـول بأن التدوين التاريخى يسبق بكثير اهتداء الإنسان إلى الكتابة، إذ عمل الإنسان على أن يصور حياته ويسجلها فى تلك الصور التى حفرها على جدران كهفه البدائى، وبالتالى نستطيع القول إن التاريخ نفسه يسبق مرحلة التدوين التاريخى، فهو قديم قدم الحياة الإنسانية على الأرض، وإن لم يصل علمنا به إلا من ثنايا الحفريات التى تكشف كل يوم عن الجديد من حياة الإنسان الأول أو تطور الحياة على سطح الأرض. غير أن علمنا بالتاريخ لا يصل إلا إلى عدة آلاف من السنين، وهو عمر قصير إذا قيس إلى الحياة الإنسانية الطويلة(١) .

كتابة التاريخ فى الشرق القديم:

وكتابة التاريخ بالمعنى المعروف اليوم كانت نادرة قليلة التقدم عند سكان الشرق الأدنى القديم، وبرغم تقدم الحضارةفى مصر وفى أرض ما بين النهرين، فإنه لم تخرج ما يستحق أن نسميه تاريخا، والملاحظات اليسيرةعن انتصارات الفراعنة المصريين، والقوائم القليلة الحاوية لأسماء الملوك التى حفظت كان باعثها جميعا تمجيد شأن الفرعون الحاكم، وذكر أحداث حياته(٢) . فرغم التقدم الكبير الذى أحرزته دراسات مصر

---

(١) حسنين ربيع: محاضرات فى علم التاريخ، ص ١٢٥

(٢) بارنز (هارى إلمر): تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة د. محمد عبدالرحمن برج، مراجعة د. سعيد عبدالفتاح عاشور، جـ١ ، ٣٣؛ على أدهم: تاريخ التاريخ (القاهرة ١٩٧٧)، ص ١١ـ ١٢.

القديمة، فلسنا فى موقف يسمح لنا بتصور أننا قد أصبحنا مدركين لأصول التاريخ الفرعونى إدراكاً تاماً أو ملمين بمعالم الحضارة المصرية القديمة إلماما دقيقا، ولازالت بعض عصور وحوادث ذلك التاريخ الطويل المطرد الذى استمر أكثر من ثلاثة آلاف سنة غامضة، ولازالت بعض نواحى الحياة فى مصر القديمة مبهمة، ولازالت معلوماتنا عن ذلك التاريخ وتلك الحضارة عرضة للتغيير والتنقيح كلما توصل باحث إلى نتيجة علمية جديدة أونقب أثرى فى أرض مصر[1].

وظهرت عند الاشوريين وثائق حوليات ملكية فى تسلسل حول مغامرات الحكام فى الحرب والصيد والقيام ببناء بعض القصور، ولم يظهر أثر للحاسة الناقدة فى هذا التسجيل البدائى للتاريخ، وكان الهدف المقصود من هذه النقوش تمجيد الملك الحاكم وإعلاء شأنه فى نظر الأجيال التالية، وكانت الحقائق التى تزرى ونشوه ذكره تحذف جميعها ولايشار إليها، وتغلب على تلك النقوش المبالغة والتهويل والروح الدينية ونسبة المبانى الشسيدة للآلهة[2].

ويذكر الأستاذ بارنز Barnes أن الأحوال الجوية جعلت مصر متحفا تاريخيا حقيقيا، أو كما قال الأستاذ برستد Breasted «كتابا تاريخيا ضخما»، وساعدت على حفظ مصادر وافية وقيمة للمعلومات التاريخية المصرية إلا القليل، ومها ما كتبه أحد كتاب تحتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٦٨ق.م) تقريبا،وقد وصف فيما كتبه حروب هذا الملك القدير وصفا جيداً. وحينما تأثرت الثقافة المصرية القديمة بالثقافة الهلينية ظهر كاتب مصر هيلينى الثقافة وجمع حوليات عن تاريخ مصر، وكتب سرداً

(١) عبدالحميد زايد: مصر الخالدة (القاهرة ١٩٦٦)، ص ١١٣ - ١١٤.

(٢) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ١١.

تاريخيا كان له شأن على ما يبدو فى عصره، وعرف بالدقة والموضوعية فى جمع المادة التاريخية وتفسيرها[1]. وهذا الكاتب هو مانيتون السمنودى (٣٢٣ ـ ٢٤٥ق.م) Manetho الذى يعد أول مؤرخ أنجبته مصر القديمة، وأبوالتاريخ الفرعونى بحق، وقد عاش فى بلاط الملك بطليموس الثانى (فيلادلفوس)، وكان على جانب كبير من العلم والثقافة، ملماً إلماما كبيراً باللغة المصرية القديمة، متمكنا من اللغة اليونانية، متعمقا فى دراسة تاريخ بلاده القديم وعقائد الديانة المصرية. وقد كتب مانيتون تاريخ مصرحوالى عام ٢٨٠ ق.م باللغة اليونانية،ولكن كتاباته فقدت للأسف الشديد، ولم يصل إلى أيدينا منها إلا فقرات مختصرة أو مبتورة عن طريق مؤرخين جاءوا بعده ببضع قرون وتناقضوا فى التواريخ وسنى حكم الملوك، مثل المؤرخ اليهودى يوسف Josephus الذى عاش فى القرن الأول الميلادى، والمؤرخين المسيحيين القديمين چوليوس الأفريقى الذى عاش فى القرن الثالث الميلادى، ويوسيبيوس الذى عاش فى بداية القرن الرابع الميلادى[2].

ويبدو أن الكتاب الإغريق لم يهتموا كثيراً بكتابات مانيتون نظرا لطابع كتاباته القومى، أما الكتاب اليهود فقد نقلوا عن مانيتون لأنهم اعتقدوا أنه يؤيد حجتهم فى محاولاتهم تمجيد قومهم.وترجع أهمية كتابات مانيتون إلى تدوينه أسماء ملوك مصر كما نطقها الإغريق، ثم إلى انفراده بتوزيع فراعنة مصر بين ثلاثين أسرة ـ وهو تقسيم لازلنا نسير عليه حتى الآن ـ حكمت بالتوالى مصر منذ توحيد مينا لشطرى الوادى حتى فتح الإسكندر الأكبر للبلاد عام ٣٢٣ ق.م[3].

---

(١) بارنر: المرجع السابق، جـ١ ص ٣٣ ـ ٣٤؛ على أدهم: المرجع السابق، ص ١٢.

(٢) عبدالحميد زايد: مصر الخالدة، ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٣) عبدالحميد زايد: مصر الخالدة، ص ١١٥.

وقد يعتمد المؤرخ على المعلومات التى تمدنا بها دراسة حضارات الشرق القديم الأخرى، كالبابلية والآشورية والأرامية والفينيقية والحثية، التى عاصرت بعض أدوار الحضارة المصرية، وتفاعلت وتجاوبت معها، وأثرت أو تأثرت بها، وارتبطت تواريخها بتواريخ مصر القديمة ارتباطا وثيقا، وانتقلت شعوبها بالشعب المصرى إتصالا مباشراً أو غير مباشر، وضمت عناصر حضارة مشتركة تساعد على فهم تاريخ مصر القديمة وحضارتها، ولكن هذه المعلومات مضللة فى كثير من الأحيان. وتمثل وجهات نظر تلك الأمم من زاوية مصالحها الخاصة، وترسم صور الأحداث الجارية بما يتفق مع أهدافها، فطالما حولت الهزائم إلى انتصارات، أو عولجت بعض الحالات بطريقة تبرر رفعة شأن هذه الأمم أو تمجد ملوكها(١).

والجدير بالذكر أن البابليين والآشوريين تقدموا على المصريين القدماء تقدماً قليلا فى جمع الوثائق التاريخية، ولكن لم يظهر بينهم مؤرخ من طراز مانيتون، حتى تأثرت الحضارة البابلية بالحضارة الهيلينية، فقد ظهر حينئذ المؤرخ الكاهن بيروسوس Berossos، وكتب تاريخ بابل باللغة الإغريقية فى نفس القرن الذى عاش فيه مانيتون، أى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد. ولقد كان تاريخ بيروسوس مصدراً هاماً للمؤرخين فى العالم الإغريقى - الرومانى وذلك لندرة المصادر الأخرى، وعلى الرغم من أننا فى الوقت الحاضر لانملك سوى مقتطفات منه، إلا أن قيمتها تزداد يوماً بعد يوم(٢).

ومهما يكن من أمر، فإن الوثائق التاريخية الخاصة بقدماء المصريين والبابليين والآشوريين لم تتجاوز أنساب الملوك، وتسجيل الحملات

(١) المرجع السابق، ص ١١٣.
(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١، ص ٣٤ - ٣٦.

الحربية، وأساليب المدح الموجهة إلى الملوك، والملابسات الاجتماعية التى مهدت لظهور هذا اللون من ألوان التاريخ الممل لم تسمح بازدهار لون آخر من ألوان التاريخ أرقى مستوى وأكثر أصالة(١).

كتابة التاريخ عند اليهود:

اهتم اليهود بتاريخهم اهتماماً كبيراً، وعبرت الكتب العبرانية المقدسة عن أفكارهم حول طبيعة التاريخ وموقفهم منه. وقد نظر اليهود إلى التاريخ نظرة تقوم أساساً وفى أوسع شمول على المذهب التأليهى، فالطريق إلى فهم التاريخ هو فكرة السيطرة الإلهية. ومع أنه جاء على اليهود أوان ربما سار فيه اعتقاد بأن للشعوب المختلفة أربابا متفرقين، فالذى حدث منذ عهد مبكر أنه نشأ بينهم اقتناع بوجود إله فقط. ومع أن الإصحاحات الأولى من سفرهم الأول وهو سفر «التكوين»، ربما اعتبرها بعضهم أسطورية ميثولوجية، فإن تلك الكتب تنطوى على فكرة جوهرية هى أن بداية التاريخ البشرى إنما ترجع إلى الله. فهو الذى خلق الأرض بكل مالها من خصائص تجعل التاريخ ممكنا على ظهرها. وهو الذى خلق الكائنات البشرية فى صورة أرواح لها أبدان، وهو الذى أدخلهم فى رفرف من السعادة والحبور: «جنات عدن»(٢). ولكن التاريخ يحتوى على الشر، كما أن قصة «سقوط» آدم وحواء، وهما أول الكائنات البشرية، تقدم إلينا تبيانا لأصل ذلك الشر. وتنطوى القصة ضمناً على فكرتين دامتا بقوة فى نظر اليهود إلى التاريخ. وأولى هاتين الفكرتين أن للإنسان مطلق الحرية فى طاعة الله أوعصيانه، وابتعاد الإنسان عن الله عن طريق المعصية هو أصل الشر وأساسه، كما أن جميع أنواع الشرور الأخرى تتوقف توقفا مطلقا عليها. ومع أن الله قد طرد آدم وحواء من

---

(١) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ١٣ ـ ١٤.

(٢) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ ١، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

جنة عدن، فإنه لم يباعد بين ذاته وبين البشر، إذ ذهب اليهود إلى أن الله ظل دائما على إتصال بالناس فى التاريخ(١).

ويقول الأستاذ بارنز فى كتابه «تاريخ الكتابة التاريخية»(٢): «إن شرف إخراج أول سرد تاريخى حق متسع المجال ويحظى بنسبة عالية من الدقة يلزم أن يعزى إلى يهود فلسطين القديمة». ومعظم هذه الكتابات اليهودية التاريخية قد احتواها الكتاب المقدس (التوراة)، وفى عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخرة أبدى بعض آراء الكنيسة الذين يميلون أكثر من غيرهم إلى التشكك، شكوكهم فى صحة أفكار معينة تقليدية عن تأليف الكتاب المقدس. ويذكر بارنز أيضا أن الباحثين المحدثين مثل دلتشى Delitzsch، ونكلر، وروجرز، قد أظهروا تأثير الأساطير البابلية والتقاليد فى الديانة اليهودية، وبخاصة فى اقتباس قصة الخليقة وبرج بابل والطوفان، إلى ذلك من العقائد والأساطير البابلية، كما أشار غيرهم من الباحثين إلى الأسس الفارسية فى اقتباس فكرةالجحيم والشيطان وخلود الروح(٣).

وكان آخر المؤرخين اليهود القدامى البارزين هو يوسف أو فلافيوس يوسيفوس (٣٧ ـ ١٠٥م)، وهو مؤرخ اليهود القومى، وكتب أكثر ما كتبه بعد فقد اليهود وحدتهم وسقوط دولتهم سنة ٧٠م على أيدى القائد الرومانى تيتوس وتشتيت شملهم وتشريدهم فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. وقد حاول المؤرخ يوسف أن يهون الأسى الذى خالج نفوس اليهود بإعادة ذكرى أمجادهم السالفة، ولذلك عمد إلى المبالغة فى الإشادة بماضى اليهود(٤).

(١) المرجع السابق، جـ١ ص ١٥٠.
(٢) جـ١ ص ٣٦ ـ ٣٧؛ على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ١٩.
(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ٣٧ ـ ٣٨.
(٤) المرجع السابق، جـ١ ص ٤٢؛ على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٢١.

كتابة التاريخ عند الصينيين:

شهدت الصين منذ أقدم العصور قدراً ضخماً من التاريخ المكتوب. ويتضح من البقايا الباقية منه أنه كان في معظمه «حوليات» تدور في الأغلب حول أفراد من الطبقات الحاكمة، وأحداث حياتهم وصراعاتهم المدنية،وقيام الأسرات الحاكمة المتعاقبة ومصائرها، ولكن لم يتجل فيها إلا القليل من التأمل حول طبيعة التاريخ ومعناه. ولم تتوافر أية جهود مستمرة لكشف أي مغزى وعبرة في الأحداث التاريخية في أي هدف بعيد، فكان الالتفات كله مركزاً على الحاضر والماضي[1].

ويرى الأستاذ روبرت فلنت أن الصينيين تفوقوا على سائر الأمم الشرقية في الأدب التاريخي، ويرجع ذلك إلى شدة إحساسهم بحقائق الحياة، وفرط احترامهم لأسلافهم، وشدة تعلقهم بالماضي وحسن إدراكهم السياسي، واعتدالهم في إصدار الأحكام، وبعدهم عن الاسترسال مع الخيال، وتقديرهم العالي للمعرفة والثقافة، وميلهم إلى الجد في طلب العلم[2]. وعند الصينيين عدد كبير من المؤرخين، وعلى ما يبدو منذ ألفين وستمائة سنة شكلت لجنة في العاصمة لتسجيل الأحداث التي قد تكون لها أهمية من الناحية القومية؛ والأدب الصيني حافل ضخم، وهو يشمل تاريخ أسر خاصة وملخصات حولية ومذكرات مختلفة الأنواع وتراجم وسيراً لايكاد يحصيها العد، ومدونات تاريخية، ومعاجم تاريخية زاخرة بالمعلومات، وهي تتناول شتى العصور ومختلف جوانب الحياة، وهي مكتوبة بأسلوب شيق يرتضيه الذوق الصيني، ولكن الكتابة التاريخية برغم ذلم لك ترتفع عن مستوى الطريقة الحولية، وقد بذل المؤرخون الصينيون جهداً في جمع المعلومات واستقصاء الوقائع

(١) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ ١ ص ٢٥.
(٢) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ١٤.

وتنسيقها، ولكنهم لم يضعوها فى موازين النقد، ولم يسبروا غورها،ولم يتابعوا التطور الجوهرى لأحداث التاريخ(١).

وأبعد المؤرخين الصينيين شهرة هما سيزماتيان الذى ولد حوالى سنة ١٤٥ قبل الميلاد، وسيريما كوانج الملقب بأمير المؤرخين، وقد ذاعت شهرته فى القرن الحادى عشر، وينتسب هذان المؤرخان إلى أسرة واحدة على الرغم من تباعد مولدهما، وقد كتب الأول وثائق تاريخية تشمل كل ما له أهمية فى الحوليات الصينية منذ عهد هوانج تى، أى منذ ٢٦٩٧ قبل الميلاد، إلى العصر الذى عاش فيه، واستقصى الآخر تاريخ الصين خلال ألف وثلثمائة واثنتين وستين سنة، وقد أضيفت إليه بعد ذلك إضافات أوصلت السرد التاريخى إلى القرن الثامن عشر، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية(٢).

كتابة التاريخ عند اليابانيين:

عنى اليابانيون بكتابة التاريخ مثل الصينيين، ويرى المؤرخون اليابانيون أن الأسرة الملكية الحاكمة بدأ حكمها منذ القرن السادس قبل الميلاد، وهى أقدم الأسر المالكة تاريخا. ومن المسائل التى لاتزال موضع خلاف ونقاش مسألة نشأة كتابة التاريخ اليابانية، وهل كانت نتيجة حافز قومى أو كانت أثراً من آثار الاحتكاك بالصين، ويرى المتخصصون الأوربيون فى الدراسات اليابانية أن كتابة التاريخ اليابانى الصحيح لاترجع إلى أبعد من القرن السادس قبل الميلاد(٣).

وقد جمعت أقدم الوثائق التاريخية اليابانية سنة ٧١٢م فى كتاب،

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤ ـ ١٥.
(٢) المرجع السابق، ص ١٥.
(٣) المرجع السابق، ص ١٦.

جرى ترجمته إلى اللغة الإنجليزية، والحوليات اليابانية المسماة نيهونجى التى تمت سنة ٧٢٠م يبدو فيها طابع التأثير الصينى، وفى القرنين الثامن والتاسع اشتركت طائفة من الكتاب فى كتابة وثائق تاريخية، وكان أنبه هؤلاء الكتاب ذكراً وأبرزهم أثراً المؤرخ سيجوارا ميشيزن، ومن القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر حدث تطور ملحوظ فى كتابة التاريخ اليابانى، واتسم بإحكام السرد وإجادة التفكير التاريخى[١].

وفى خلال العهد الإقطاعى ظهرت حوليات كثيرة، ولكن قبل ظهور المؤرخين الممتازين كما حدث فى عهد الإقطاع الأوربى، وقرب انتهاء ذلك العهد ظهر مؤلف تاريخى ضخم ذائع الصيت كتبه الأمير ميتو (١٦٢٢ ـ ١٧٠٠) وعاونه فى ذلك عدد من العلماء اليابانيين والعلماء الصينيين، وقد شمل تاريخ اليابان حتى سنة ١٤١٣م، وكان الغرض الذى رمى إليه الأمير بهذا المؤلف هو النيل من مكانة الشوجانات (وكان الشوجان هو القائد الأعلى للجيش اليابنى فى عهد الإقطاع) واعتبارهم مغتصبين للسلطة، وإعلاء شأن الميكادو باعتباره المصدر الوحيد للسلطة الشرعية والحكم الصالح، وقد كتب الكتاب بحذق وبراعة جعلته صالحا لتحقيق هذا الغرض، وهو مصدر الحركة التى انتهت بثورة سنة ١٨٦٨م[٢].

وأول مؤرخ يابانى وصل بالتاريخ إلى المرتبة العلمية هو هاكيسيكى (١٦٥٧ ـ ١٧٢٥)، ويعده اليابانيون أعظم مؤرخيهم أصالة، وأوسعهم إحاطة. ومن كبار مؤرخى اليابان رابى سانجو (١٧٨٠ ـ ١٨٣٣)، وقد عرف بنفاذ بصيرته، وقدرته الناقدة، وتدل المقتطفات التى ترجمت من مؤلفاته على أنه كان يريد تصوير الأحداث ويحسن عرضها. وظهر فى

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦ ـ ١٧.

اليابان الحديثة مؤرخون لهم وزنهم مثل موتورى نوريناجا (١٧٣٠ - ١٨٠١م) وهيرانا اسيتانى (١٧٧٦ - ١٨٤٣). ومن مميزات الأدب اليابانى كثرة الروايات اليابانية التاريخية، وكثير منها يرجع تاريخه إلى القرنين العاشر والحادى عشر[١].

كتابة التاريخ عند الهنود:

الحقيقة إن تاريخ الهند وإن توغل فى القدم آلافا من السنين، فإن القليل منه نسبيا هو الذى تم كشفه مسجلا حتى الان. وأشد ما أثر عن بلاد الهند من أدب جدير بالذكر، هو أدب دينى وفلسفى. وتحتوى الملاحم السنسكريتية العظيمة وهى «المهابهارتا والراماىانا والبورانات» على إشارات تاريخية، ولكنه حتى هذه الكتابات نفسها يغلب عليها الطابع الميثولوجى (الأسطورى)، كما أنها ذات مدلول خلقى ودينى[٢]. ويحوى سفرا «المهابهارتا والبورانات» إشارة إلى فكرة الدورات المتكررة فى التاريخ، وفى كل دورة أربع «يوجات»، أى عصفور. فالعصر الأول عصر «الكريتا» أو العصر الذهبى، كل شىء فيه بالغ حد الكمال. وأما الثانى وهو عصر «الترتيا» فتصاب فيه الفضيلة بالانحطاط، على حين تنتشر فى الثالث وهو «الدفابارا» الأمراض والخطايا وتزداد المراسم الظاهرية وتصاغ القوانين، وفى الرابع وهو «الكالى» أى أسفل درك فى الدورة، فتتسلط فيه الالام ويهمل الدين. وعند نهايته يجرى امتصاص كل شىء فى البرهمى، وتبدأ الدورة سيرتها الأولى مرة ثانية، وهكذا دواليك إلى الأبد. ونحن نعيش فى «الكالى يوجا» أى عصر الدرك الأسفل، والأيام يغلب عليها السوء[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ١، ص ٦٧.

(٣) المرجع السابق، جـ١، ص ٦٨.

والواقع أن الهند تمتاز بثرائها الأدبى، فالشعر الهندى والفلسفة الهندية من أسمى طراز، ولكن كثرة امتزاج الشعوب والسلالات فى الهند منذ القدم وعدم وجود وحدة سياسية تجمع شملها، وتزيل أسباب الخلاف والتنافر فى العادات والتقاليد واللغة، لم يساعدا على ظهور الكتابة التاريخية، ولذلك ليس للهندوس تاريخ قومى مكتوب. وقد استطاع الهنود أن يعبروا عن أفكارهم وخوالج نفوسهم فى الكتب المسماة «فيدا»، وهى تتضمن وصف الحياة الاجتماعية لطائفة الهنود الآريين وآرائهم فى الله والكون والإنسان، ولكنهم لم يعنوا بتدوين أخبار الحياة الاجتماعية، والأحداث الخارجية العادية(١). ويجد الباحثون صعوبات جمة فى استخلاص الحقائق التاريخية من القصائد الشعرية الهندية، وأقدم مؤلفات هندية يمكن إلحاقها بالأدب التاريخى لاترجع إلى أبعد من القرن الحادى عشر الميلادى، وهى مع ذلك لاتخلو من الشوائب، وأشهرها كتاب «ملوك كاشميرا»، وتغلب عليه الروح الشعرية والنزعة الأسطورية(٢).

ولو تأملنا رجال العلم فى الشطر الأعظم من تاريخ الهند، لوجدناهم من البراهمة الذين ركزوا اهتمامهم على الدين دون التاريخ. وظهرت فى عهد الإمبراطورية المغولية تدوينات تاريخية وضعها كتاب من المسلمين، ولكن التدوين تم على يد قوم ارتبطوا ببلاطات الإمبراطور والأمراء، كما أنه قام إلى حد كبير على حياة الحكام وغزواتهم(٣).

وعلى أية حال، إن القلة النسبية للتدوين التاريخى بالهند قد دفعت بعض الناس إلى القول بأن الهندوس ليس لديهم «إحساس بالتاريخ». وربما أعوزهم ذلك الإحساس بمعنى تلك العبارة عند أهل الغرب الأوربى. ولكن

---

(١) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ١٨.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) ويدجرى: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١، ص ٦٨.

ربما كان كل ما فى الأمر أن الناس أساءوا فهم ذلك القول. إذ كانت لهم اتجاهات من التاريخ، وأنهم فى أغلب شأنهم لايزالون يحتفظون باتجاهات محددة من التاريخ يعبرون عنها فى كتاباتهم الفلسفية والدينية، كما يعبرون فى ديانتهم العملية وحياتهم اليومية[١].

كتابة التاريخ عند اليونان:

الرأى القائل إن أول كتابة تاريخية ذات شأن ظهرت عند اليونان كانت فى الأشعار المنسوبة إلى هوميروس صاحب الملحمتين الخالدتين الإلياذة والأوديسا له أساس من الواقع. وفى أشعار هوميروس معلومات وافرة عن المجتمع اليونانى والثقافة اليونانية، ويمكن تكوين صورة واضحة لحضارة عصره من الإطلاع على أشعاره. ولكن ميلاد الكتابة التاريخية الحقيقية عند الإغريق كان يستلزم خلفية تاريخية لم يتيسر ظهورها عند اليونان إلا فى القرن السادس قبل الميلاد، وهذه الخلفية هى ظهور الكتابة النثرية والنظرةالناقدة إلى الأساطير الشائعة، وبواعث الاهتمام بالبحث عن أصول المجتمع ونشأة النظم والقوانين والعادات والتقاليد[٢].

ويعتبر هيكاتيوس Hecataeus الذى ولد فى مدينة ملطية حوالى عام ٥٥٠ ق.م وكان رحالة، أول مؤرخ إغريقى. وقد كتب فى أصل الشعب الإغريقى، واتخذت كتاباته التاريخية إتجاها نقدياً صريحا تجاه الأساطير اليونانية التقليدية التى دارت حوله نشأة الخلق، وهو يقول: «لست أدون هنا إلا الرواية التى أعتقد صحتها وصدقها، فإن أساطير اليونان كثيرة، وفى رأيى أنها تدعو إلى السخرية[٣]». وقد زار هيكاتيوس مصر فى

(١) المرجع السابق، جـ١، ص ٦٩.
(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١، ص ٤٧، على زدهم: تاريخ التاريخ، ص ٢٢.
(٣) هرنشو: علم التاريخ، ص ١٨.

القرن السادس قبل الميلاد، وسجل في كتابه الذي فقد الكثير من المعلومات التاريخية التي أمده بها الكهنة، ولو أنه اهتم بفيضان النيل وتكوين الدلتا وحيوانات مصر أكثر من اهتمامه بسكان البلاد وتاريخهم.

وجاء من بعد هيكاتيوس مؤرخ كبير هو هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ق.م)، واختلف الناس في أمره والحكم على كتاباته، على أن اختلافهم هذا لم يغض مطلقا من شهرته، فهو بين الناس دائما «أبو التاريخ»، وبين المؤرخين إمام خالد، ومثل غير مسبوق[١]. ولقد فطن هيرودوت - عن إدراك وتقدير دقيق - أن التاريخ علم، أو من الممكن أن يكون علما، ومن ثم لابد أن يعرض لأعمال الإنسان، وأدرك هيرودوت أن التاريخ ليس من قبيل الأساطير، وإنما هو من قبيل البحث العلمي. إن كلمة «تاريخ يونانية في الأصل ومعناها بحث أو استقصاء» التي اتخذها هيرودوت عنوانا لكتابه قد «استحدث بهذا ثورة في التأليف». إن تحويل الأساطير إلى تاريخ «علمي» لم يكن بالأمر المألوف عند العقلية الإغريقية، وإنما كان فتحا جديداً في القرن الخامس قبل الميلاد أتى به هيرودوت[٢].

وقد ولد هيرودوت في هاليكارناسوس إحدى مدن الركن الجنوبي الغربي من آسيا الصغرى التي كانت تتبع آنذاك دولة فارس، وزار كثيراً من أقاليم الدنيا في قارتي آسيا وأفريقية، ثم في أوربا أيضاً. ويهمنا أنه قام بزيارة مصر التي كانت خاضعة للحكم الفارسي، وقد تمت تلك الزيارة ما بين عامي ٤٤٨، ٤٤٥ق.م.، وزار خلالها الكثير من مدن الدلتا، كما تجول في الصعيد حتى الجندل الأول، وشاهد إقليم الفيوم. وقد خصص هيرودوت الجزء الثاني من كتابه الشهير لمصر فتحدث فيه عن

---

(١) محمد صقر خفاجة: هرودوت يتحدث عن مصر (القاهرة ١٩٨٧)، ص ٩ - ١١.
(٢) كولنجوود: فكرة التاريخ، ص ٥٦ - ٥٨.

جغرافيا ومدنها، والحوادث التى مرت بها، وأعمال ملوكها ومظاهر حضارتها. ومن الغريب أنه قد أسهب فى الحديث عن أهرام الجيزة ولكنه لم يشر مطلقاً إلى تمثال أبى الهول، كما أوجز هيرودوت إيجازاً مخلا حينما تحدث عن طيبة، ولجأ إلى تدوين كل ماسمعه أو رآه أثناء إقامته بمصر دون تدقيق أو تمحيص، فجاء كتابه جامعاً الثمين والغث، حاويا الكثير من الحقائق والأنباء الصادقة بجانب الكثير من المفتريات والأكاذيب والمزاعم التى لاتستحق ذرة من الثقة[1].

وعلى الرغم من ذلك كان هيرودوت رحالة مطبوعاً على حب الاستطلاع والحرص على التزود من المعرفة، وكان يسأل ويستفسر ويجمع المعلومات والأخبار بمختلف الوسائل والطرق، ويحاول أن يتعرف على العادات والتقاليد والعقائد والأديان والقوانين والنظم، ولايكاد يفلت من اهتمامه الفاحص ونظرته الشاملة شيء، وبقوة عبقريته استطاع أن يضمن كتابه كل ما رآه بعينيه وسمعه بأذنيه، فى أسلوب جذاب، وعرض شائق، مما جعل كتابه من طرائف كتب التاريخ الخالدة[2].

وقد انتهز هيرودوت فرصة الصراع بين الفرس واليونان، و بين أوربا وآسيا، أو بين الشرق والغرب، فأمكنه تدوين هذا الصراع فى كتاب تجرد فيه عن الهوى والتعصب الجنسى. وفى هذا الكتاب تصدى هيرودوت لوصف الحضارات الشرقية، ولكم يكن معنيا بتاريخ الأقوام المتحضرين فحسب، بل كان كذلك حريصا على الوقوف على أخبار الأقوام المتخلفين وعاداتهم وتقاليدهم، وهو لذلك لايعد أباً للتاريخ فحسب، بل يعد كذلك أبا لعلم التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية (الأنثروبولوجى)[3].

(١) عبدالحميد زايد: مصر الخالدة، ص ١١٢ - ١١٣.
(٢) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٢٦. (٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ص ٤٩.

ومن معاصرى هيرودوت ثيوكيديدس (٤٥٦-٣٩٦ق.م) الذى ركز كتابته حول موضوع واحد هو موضوع الحروب البلوبونيزية، التى قامت بين أثينا وإسبرطة فى الثلث الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد، وبذلك جاءت كتابته ملمة بكل تفاصيل الموضوع، وفى أنه كان معاصراً معاصرة كاملة لما يكتب منه، بل إنه اشترك فى بعض مراحل هذه الحرب كقائد من القواد الأثينيين اشتراكا مباشرا، كما كان على صلة بالساسة الكبار الذين كانوا على رأس الفئات السياسية المتعارضة فى أثينا، وعلى هذا جاءت معلوماته مباشرة إلى أبعد حد ممكن. وقد امتاز ثيوكيديدس بأنه حلل الحوادث والمواقف والشخصيات تحليلا اجتماعيا ونفسيا عميقا، فكان بذلك أول مؤرخ يتبع المنهج العلمى التحليلى فى كتابة التاريخ[١].

كان ثيوكيديدس أقرب إلى روح المؤرخ الحديث من هيرودوت بتحرره من سرد القصص والاستطراد وتشدده فى استبعاد الأساطير والخرافات وسخريته من التنبؤات والغيبيات حتى جاء عرضه علميا فى غير جفاف، إذ استطاع أن يعوض عن الخيال دقة تصوير الواقع وما فيه من مآسى، وبذلك إستبقى عنصر التشويق بعد أن احتفظ بالحقيقة المجردة الخالدة على مدى العصور، وبذلك لم يكن مجرد راوية وإنما يعد مبتكر التاريخ النقدى[٢]. فقد كان لايقبل الأخبار والروايات التى تصل إليه على علاتها، بل يخضعها لمقاييس النقد والموازنة ويستخلص منها ما يعتقد أنه أقرب إلى الصدق من غيره، وقد استعمل هذه الطريقة النقدية فى جميع ما كتب فجاءت كتاباته، ومنها موضوعه عن حرب البلوبونيز أقرب ما تكون إلى الطريقة الحديثة فى التأليف التاريخى، بعكس أسلافه الذين كانوا أدباء أكثر منهم مؤرخين[٣].

---

(١) لطفى عبدالوهاب: اليونان، مقدمة التاريخ الحضارى (بيروت ١٩٧٩)، ص ٦١ - ٦٢.

(٢) أحمد صبحى: فى فلسفة الحضارة. الحضارة الإغريقية (الإسكندرية بدون تاريخ)، ص ١٢٤.

(٣) نور الدين حاطوم وآخرون: المدخل إلى التاريخ، ص ٩٨ - ٩٩.

أما آخر كبار المؤرخين اليونانيين فقد كان بوليبيوس (١٩٨ - ١١٧ ق.م) وهو نظير ثيوكيديدس في تحرى الدقة العلمية، ولكن أسلوبه ليس سلساً مثل أسلوب هيرودوت أو ثيوكيديدس، وكان ذلك من أسباب أن القراء لم يقبلوا على قراءته إقبالهم على قراءة الاثنين الآخرين، وتاريخه محاولة لتناول امتداد الجمهورية الرومانية وتطور نظامها السياسي حتى سنة ١٤٦ ق.م. وكان أكثر تأكيداً من ثيوكيديدس لمسألة أن المؤرخ المؤهل لكتابة التاريخ لابد أن يكون من كبار رجال الأعمال، ويفضل أن يكون قائداً سياسياً[١].

وبوليبيوس يوناني الأصل والنشأة والثقافة، ولكنه قضى معظم حياته في روما. ولد في مدينة ميجالوبوليس بمقاطعة أركاديا، وبدأ حياته مجاهداً ضد سيادة روما على بلاده، ودعا إلى الاتحاد ضدها مخالفا ما ذهب إليه معظم الزعماء من الرغبة في الاندماج في الدولة الرومانية. ولكنه سرعان ما خضع لمنطق الحوادث بعد أن انتصرت روما واستقرت في يديها مقاليد الأمور، وانتقل إلى روما وشغل وظائف هامة، لاسيما أنه كان رجل حرب، كما هو رجل سياسة وتاريخ. وقام وهو في روما بتثقيف طائفة من أبناء الأسر الحكمة. وقد أتاحت لهذه الصلة التعرف إلى كثير من رجال الدولة وكبار ساستها. وشغل فيما شغل وظائف التمثيل السياسي، فكثيرا ما كان يقوم بدور المبعوث السياسي إلى بلاد الإغريق، وإلى كثير من بلاد العالم المتمدين في أوربا وأفريقية كمصر وأسبانيا وبلاد الغال (فرنسا). وقد أفادته هذه الأسفار فائدة محققة، وأتاحت له الوقوف على طائفة من نظمها السياسية وأخبارها وتقاليدها الاجتماعية. وكان يسترشد وهو يكتب بما شاهده من تجارب وحوادث، لاسيما وقد لمس بنفسه أهوال الحروب ومشاقها. وكانت حياته مليئة بالعبر والعظات،

---

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١، ص ٥٤، على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٣١.

فما كان يقنع بسرد الأخبار، ولكنه كان يتعمق فى تحليلها، ويستنتج منها ما تنطوى عليه من علل وأسباب أصيلة. ويبدو أنه كان من أنصار النظرية القائلة بأن «التاريخ هو المدرسة الحقيقية للنظريات السياسية»(١).

وكان بوليبيوس أقرب ما يكون إلى النزاهة فى كتابة تاريخ الرومان واليونان. ويعد الجزء السادس من كتابه خير تحليل للمثل العليا السياسية الرومانية وأساليب الرومان فى الحرب، وقد رأى أن العبقرية السياسية الرومانية قد تجلت فى اتخاذ نظام للحكم يجمع بين النظام الملكى والنظام الديمقراطى. وكان بوليبيوس نافذ الرأى فى الحكم على السياسات ودارساً متعمقاً للأحداث والشخصيات، وكان يؤكد قيمة المعرفة الجغرافية فى استجلاء حقائق التاريخ وتقلباته، والتاريخ فى نظره من الدراسات النافعة، ومعرفة الحقائق التاريخية المؤكدة قد تعين فى تنظيم إدارة الحكم وتوجيه الأحوال العامة، وحل المشكلات العارضة، وتفريج الأزمات المفاجئة(٢).

وكان بوليبيوس أثناء سعيه جاهداً إلى البحث عن علل الحوادث وترابطها، قد تكشفت له عدة نظريات فى العلة التاريخية، مما حمله تدريجيا على أن يعدل تفسيره لسيادة روما على العالم. ففى أول الأمر بدا له أن الحظ أو الصدفة - وهى قوة علوية لاسبيل إلى التنبؤ بها - هى القوة الرئيسية الدافعة أو المحركة فى التاريخ. فلما ازداد إعجابه بالرومان على مر الزمان، بدأ يعلل سيطرتهم العالمية بعوامل إنسانية كخصالهم القومية ونظمهم السياسية. وفى هذه المرحلة من تفكيره أشاد بالتوسع الاستعمارى الرومانى باعتباره نعمة على العالم، وتراءى له أن يشرح لبنى قومه اليونان تفوق روما السريع وتبوأها مركز السيادة فى العالم فى غضون

---

(١) مصطفى الخشاب: تاريخ الفلسفة والنظريات الساسية (القاهرة ١٩٥٣)م ص ١٩٠ - ١٩١.

(٢) بارنز: المرجع السابق، جـ١ ص٥٤ ــ ٥٥؛ على أدهم: المرجع السابق، ص٣٢ - ٣٣.

مدة لاتزيد كثيراً عن نصف قرن (٢٢٠ ـ ١٦٨ ق.م)، وهو أمر لانظير له فى التاريخ، وأن ينصحهم بعدم جدوى الاستمرار فى مقاومة مثل هذه الدولة القوية[١] .وأخيراً امتد به الأجل ليرى بعينيه تفشى الفساد بين الطبقة الارستقراطية وتدهور هيئة السناتو، مما زعزع إيمانه باستقرار روما الدستورى. ومن ثم أصبح أقل محاباة للرومان، وعدل آراءه السابقة وارتد إلى نظرية الحظ أو القدر الآلية. ونجد ما يوحى باعتناقه فكرة الدورات التاريخية المتكررة فيما يتصل بحلقات التدهور فى روما من حكم الارستقراطية إلى حكم الدهماء أو الرعاع[٢].

وعلى أية حال،يعتبر بوليبيوس فريداً ين المؤرخين القدامى، لم يهدف إلى إنتاج مؤلف ذى صبغة أدبية، فاستبعد الصور البلاغية، ولم يدمج فى تاريخه إلا عددا قليلا من الخطب. وقد عالج مادته التاريخية بطريقة علمية لانلتقى بمثلها فى ميدان التاريخ حتى القرن التاسع عشر الميلادى. وحلل أسباب الأحداث السياسية تحليلاً موضوعيا يدل على نظرته الواقعية، وخبرته العسكرية، وإلمامه بجغرافية الأقاليم وتخطيط البلدان، واعتقاده بوحدة التاريخ المتكاملة، غير أنه كان كأغلب المؤرخين القدماء، يأخذ بنظرية نفعية التاريخ باعتباره سجلا حافلا بالدروس العملية لرجال الحكم والساسة، وقد عنى مثلهم بإبراز دور الفرد فى التاريخ.

كتابة التاريخ عند الرومان:

تأثرت كتابة التاريخ عند الرومان أثناء بلوغها مرحلة النضج تأثراً

(١) عبداللطيف أحمد على: مصادر التاريخ الرومانى (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٥٧ ـ ٥٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٥٨.

كبيراً بمبادىء ومناهج مؤرخي اليونان الذين كانت كتاباتهم نموذجا حرص المؤرخون الرومان على احتذائه منذ البداية، ولذا نجد الرومان كاليونان يعتبرون التاريخ فرعاً من فروع الأدب. ولم يكن المؤرخون اليونان ومقلدوهم من الرومان - باستثناء عدد قليل منهم - علماء بقدر ما كانوا أدباء فنانين. ولم يخضعوا لمناهج البحث العلمي، بل لمعايير الذوق الفني، وتصوروا التاريخ كأنه فرع من علوم البلاغة كالخطابة أو شيء من هذا القبيل. وكان صقل الأسلوب وتجانس العبارة عند كبار المؤرخين من أمثال سللوستيوس وليفيوس وتاكيتوس غاية أسمى من تحرى الحقيقة، وفي ذلك يقول الخطيب الروماني شيشرون (١٠٦ - ٤٣ق.م): «نحن نسلم للبلاغيين بحق تشويه التاريخ حتى تكون روايتهم أشد وقعا في النفس»[(١)]. وقد ظهر بين الرومان مؤرخون لهم مكانتهم، ولكنهم لم يبلغوا مستوى ثيوكيديدس أو بوليبيوس في تحرى الدقة، وإخضاع المراجع للنقد الصارم والنظر الفاحص، ولم يستطع الوصول إلى أعظم المؤرخين اليونان أسلوبا سوى المؤرخين الرومانيين ليفيوس وتاكيتوس[(٢)].

وأقدم المؤرخين الرومان الذين نسمع عنهم هو بكتور حوالي عام ٢٠٠ ق.م، وكتب حولياته عن روما باللغة اليونانية. وقد حذا حذوه كل المؤرخين الذين جاءوا بعده مباشرة ما عدا كاتو Cato (٢٣٤ - ١٤٩ق.م) الذي ولد في أسرة من العامة، وقد عرف بصراحته في الرأي وجرأته في الحق، وصلابته وصرامته وتزاهته وتطرف وطنيته. وقد وضع تاريخا باللاتينية في سبعة كتب بدأه مثل بكتور من أسطورة أينياس الطروادي، وتأسيس روما الذي يؤرخه كاتو بعام ٧٥١ق.م.، بينما يؤرخه بكتور بعام ٧٤٧ق.م[(٣)]. وتلى ذلك العديد من المؤرخين الذين تناولوا تاريخ روما

---

(١) المرجع السابق، ص ١١.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١، ص ٥٩، على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٣٤.

(٣) عبداللطيف أحمد على: مصادر التاريخ الروماني، ص ٦ - ٧.

المبكر حتى ظهر أساطين المؤرخين الرومان في القرن الأول قبل الميلاد.

وكان أول مؤرخ كبير يبرز من صفوف الرومان هو يوليوس قيصر (١٠١-٤٤ق.م) أبرز شخصية سياسية وعسكرية في منتصف القرن الأول. فقد كتب أثناء حملاته مذكرات تعد خير ما كتب عن المذكرات في العالم القديم، منها «مذكرات في الحرب الغالية»، وهي عن سياسته وحملاته في إقليم الغال (فرنسا الحالية)، وقد تضمنت تلك المذكرات وصفاً موجزاً عن أصل سلالات الجرمان وثقافتهم[1]. ولم يقصد قيصر بهذه المذكرات أن تكون تاريخا للأحداث، بل مقالات سياسية للدعاية. وقد حاول أن ينشرها بسرعة لكي يوطد بها نفوذه السياسي في روما أثناء غيابه عنها، ويدافع عن سياسته العدوانية ضد الشعوب القاطنة وراء الألب. ويمتاز أسلوب قيصر بالرشاقة والوضوح والإيجاز، والبساطة والبعد عن التكلف والزخرف والتنميق، فهو من النوع السهل الممتنع[2].

ويتصدر المؤرخ سللوستيوس (٨٦-٣٤ق.م) الكتاب الذين أرخوا لعصر الجمهورية الرومانية (٥٠٩-٥٧ق.م). وقد ألف العديد من الكتب التاريخية أشهرها وأهمها كتابه في التاريخ، وهو عبارة عن سجل لتاريخ روما في الفترة بين سنتي ٧٨ و٦٧ ق.م، ولم يصلنا هذا الكتاب كاملا بل وصلتنا بعض أجزائه. أما مؤلفاته التي وصلتنا كاملة فأهمها مؤامرة كاتيلينا، وهو كتاب يشرح فيه سللوستيوس المؤامرة التي دبرها كاتيلينا أحد النبلاء الرومان، عاش بين سنتي ١٠٩ و٦١ ق.م، ضد مجلس الشيوخ الروماني والتي فضحها شيشرون. أما الكتاب الاخر من كتب

(١) Tayler (H.O.), TheMediaeval Mind _Vol. I. London, 1936,)pp. 138-139;

محمود الحويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية ص ٨٤.

(٢) عبداللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، ص ٢٢.

سللوستيوس التى وصلتنا كاملة فهى كتابة عن الحرب ضد جوغورتا ملك نوميديا وهى مقاطعة رومانية فى شمال أفريقية، الذى ثار ضد روما وتمكن القائد الرومانى ماريوس القضاء عليه فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد(١).

ويعتبر سللوستيوس فريداً بين المؤرخين الرومان الذين وصلتنا مؤلفاتهم فى عزوفه عن طريقة الحولايات وإقباله على كتابة بحث مطول فى موضوع واحد، وفى أخذه بمذهب ثيوكيديدس الواقعى ومقاييس بوليبيوس فى معالجة مادته التاريخية. ومما يعاب على سللوستيوس عدم مراعاته التسلسل الزمنى للحوادث، وعدم دقة معلوماته الجغرافية، وولعه بالموازنة بين الشخصيات(٢).

وجاء مؤرخ تاريخ روما العظيم تيتوس ليفيوس (٥٩ق.م - ١٧م) Liviusبعد سللوستيوس فى فترة الانتقال من الجمهورية إلى الإمبراطورية. وقد ولد ليفيوس فى بتافيوم (وهى بادوا الحالية)، ويعتبر من أعظم كتاب الحوليات الرومان إن لم يكن أعظمهم، وكتب تاريخ روما منذ تأسيس المدينة حتى سنة ٩م، وهى مدة طويلة من الزمن عالجهابتفصيل وإسهاب. وتغلب على ليفيوس النزعة الأدبية، فهو أديب كبير قبل أن يكون مؤرخاً كبيراً. ولايباريه أحد فى تصوير الوقائع والأشخاص، وأسلوبه فخم رائع ويكشف عن دراية بالحيل البلاغية ويعتبر تاريخ ليفيوس ملحمةتشيد بأمجاد روما نثرا. وهو لايهدف إلى التحرى العلمى أو الاستقصاء الدقيق، بل إلى الإصلاح الخلقى عن طريق العبر المستخلصة من الماضى، وعن طريق إبراز الفضائل القديمة والبطولة

---

(١) نور الدين حاطوم وآخرون: المدخل إلى التاريخ، ص ١٢٦.

(٢) عبداللطيف أحمد على: المرجع السابق، ص ١٤.

والتضحية الوطنية، والورع الديني. ويؤخذ عليه عدم فهمه العميق للظروف الجغرافية والعلوم العسكرية والتيارات السياسية، ويعوزه قدر كبير من ملكة النقد، وفي كتبه الأولى يروى بإسهاب كثيراً من الأساطير الرومانية القديمة. ومهما وجه إلى ليفيوس من نقد، فإنه مصدرنا الوحيد عن كثير من الفترات في عصر الجمهورية، وهو الذى حدد إطار تاريخ الجمهورية الرومانية بالشكل الذى ظل محتفظا به حتى بداية حركة النقد الحديث في القرن التاسع عشر(١).

أما آخر المؤرخين الرومان الكبار فهو بوبليوس كورنيليوس تاكيتوس (٥٥ ـ ١٢٠ تقريبا) Tacitus الذى رسم صورة رائعة عن حياة الشعوب الجرمانية وعاداتها وتقاليدها في كتابة «جرمانيا» Germania. وقد ألف تاكيتوس كتابه زمن الإمبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧)، وهو أعظم وصف قام به مؤرخ قديم، تناول حياة الجرمان. والجدير بالذكر أن تاكيتوس لم يزر الجرمان في مناطقهم الأصلية على حدود الإمبراطورية الشمالية، ولكن بوصفه من الطبقة الأرستقراطية، كان باستطاعته التحدث مع الجند العائدين من الجبهة، والاطلاع في حرية على الوثائق الحكومية. وقد وضع كتابه بهدف عقد مقارنة بين البساطة المثالية في المجتمع الجرماني التى ذكرته بفضائل روما القديمة من ناحية، والتدهور والانحطاط الذى وصل إليه المجتمع الروماني من ناحية أخرى، وحث مواطنيه الرومان على أن ينهجوا نهج الفضائل الجرمانية، وأن ينفضوا ما علق بحياتهم من مظاهر الانحلال والترف من ناحية ثالثة(٢). وقد عرف تاكيتوس بمتانة أسلوبه وبلاغته وقدرته الفائقة في تصوير

---

(١) عبداللطيف أحمد على: مصادر التاريخ الروماني، ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) إبراهيم طرخان: تاكيتوس والشعوب الجرمانية (القاهرة ١٩٥٩)، ص ١١ـ١٥؛ محمود العويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ٨٤ ـ ٨٥.

الشخصيات، وكانت تغلب عليه مراعاة الدقة فى تحرى ما يروى من الأحداث، ولكن تغلب على كتاباته الدعاية الأخلاقية، والاكتفاء فى تعليل الأحداث بالأسباب الداخلية.

ومن الجدير بالذكر أن اليونان القدماء والرومان قد نظروا إلى الزمان من خلال النظرية الدورية القائلة بأن الزمن يتجدد على دورات يحدث فى كل منها ما سبق حدوثه من قبل (إعادة التاريخ نفسه كما يقال أحيانا). ووفقا لوجهة النظر الدورية تحدث كل الحوادث الإنسانية فى دورات. وقد تتغير الأسماء والتواريخ والأشخاص، ولكن فى كل دورة يحدث ما سبق حدوثه فى الدورة السابقة ولنفس الغرض[1].

وعلى أية حال، لم يكن للمؤرخين الرومان بوجه عام أصالة المؤرخين اليونان، وقد عالجوا الكتابة التاريخية متأثرين بطريقة المورخين اليونان فى كتابة التاريخ ومتخذيهم قدوة ومثلا. ومهما يكن فى كتابة المؤرخين الرومان من عيوب، فإن كتاباتهم التاريخية أصبحت منهجا وأجدر بالثقة وأقل تأثراً بالأساطير والتعصب الدينى من الكتابات التاريخية التى ظهرت خلال العصور الوسطى[2].

---

(١) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص ٣١.

(٢) بارنز: كتابة الكتابة التاريخية، جـ١، ص٦٣؛ على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٣٨.

الفصل الثالث

كتابة التاريخ فى العصور الأوربية

كتابة التاريخ بعد ظهور المسيحية

كتابة التاريخ فى العصور الوسطى الأوربية الباكرة

تدوين التاريخ فى العصور الوسطى الأوربية فيما بين سنتى ٩٥٠ و١١٥٠م

تأثير الحروب الصليبية فى التدوين التاريخى فى العصر الوسيط الأوربى

ظل اصطلاح العصور الوسطى يطلق على الفترة الممتدة بين سنة ٤٧٦م وهى السنة التى سقطت فيها الإمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى، وسنة ١٤٥٣م وهى السنة التى سقطت فيها القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية فى أيدى المسلمين الأتراك، وهى فترة طولها ألف عام تقريبا. والواقع أننا لا نستطيع على وجه الدقة أن نضع حداً فصلا أو تاريخا معينا يؤكد نهاية عصر وبداية عصر آخر، لأن الأحداث التاريخية متداخلة بطبيعتها، وإن كانت هناك خصائص عامة لفترة الانتقال التى انسلخت خلالها ملامح العصور الوسطى من العصور القديمة، أبرزها انحلال المجتمع الرومانى، وتأسيس الممالك الجرمانية، واعتراف الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية واتخاذها ديانة رسمية، ونقل عاصمة الإمبراطورية إلى القسطنطينية سنة ٣٣٠م. ويمكننا أن نلمس فترة الانتقال وتتبعها برجوعنا إلى الوراء عندمستهل القرن الرابع، دون أن نرتبط خلاله بسنة معينة نحدد بها مطلع العصور الوسطى. فالقرن الرابع يمثل العصر الذى اجتمعت وتفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التى كونت تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، وهى المسيحية والجرمان والإمبراطورية(١).

كتابة التاريخ بعد ظهور المسيحية:

رغم أن الإمبراطورية الرومانية فى القرنين الثالث والرابع قد أصابها التفكك والانحلال فى جميع الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، حتى بات من الواضح أنها تسير فى طريق الأفول، إلا أنها من ناحية العقيدة والحياة الروحية قد سلكت طريقا مغايراً لذلك تماما، فقد ازدهرت الحياة الدينية بأرجائها فى نشاط وحيوية بالغين، بشكل يطابق الحقيقة المعروفة فى التاريخ، من أن الناس فى أوقات الأزمات السياسية والاقتصادية، يتجهون دوماً نحو القوى الروحية ويتعلقون بها، أملا فى

(١) محمود الحويرى: رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ٤٩.

الخلاص والنجاة. ومن المعروف أن هذين القرنين شهدا انتشاراً سريعا للديانة المسيحية، إلى جانب ما كان موجوداً من العبادات الوثنية.

وقد انتصرت الديانة المسيحية على الوثنية عندما غيرت الإمبراطورية الرومانية موقفها من الديانة المسيحية تغييراً جذريا باعتلاء قنسطنطين العرش، فقد أصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣م Edict of Milan† اعترف فيه بوضع المسيحية على قدم المساواة مع بقية الديانات الأخرى المعترف بها داخل الإمبراطورية، وبذلك وضع مبدأ التسامح الدولى للأديان من الناحية الرسمية فى التاريخ(١). وعندما اعتلى ثيودسيوس الكبير عرش الإمبراطورية الرومانية (٣٧٨ ـ ٣٩٥م) جعل المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية.

وكان لانتصار الديانة المسيحية على الوثنية تأثير بعيد المدى فى كتابة التاريخ وفى الأفكار التى كان يسترشد بها المؤرخون، فقد نبذت الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان، واعتبرت الكتابات التاريخية التى أنتجها العصر الوثنى أقل مستوى من الكتابات التاريخية المقدسة التى فى التوارة، وحامت الشكوك حول قيمة التفكير العقلى الذى كانت له المكانة العليا عند اليونان، وأصبح للإيمان الدينى المحل الأعلى، وصار الاعتقاد بما فوق الطبيعة محك الفضائل، ونبذت منجزات الفنانين والفلاسفة والشعراء والساسة والحكماء، وأخذت كتب اليهود المقدسة مكانة الأدب القديم، وأعرض عن شعر هوميروس ومؤلفات ثيوكيديدس وبوليبيوس وغيرهم من مؤرخى العصر الوثنى وكتابه وشعرائه. وقد أضر ذلك بكتابة التاريخ وعاق تقدمها، وعلى الرغم من ذلك فإنه من غير الممكن التغلب على تأثير الثقافة الوثنية، وكثير من رجال الدين الأوائل كانوا يستعملون اللغة الوثنية، وقد تلقوا ثقافة وثنية قبل دخولهم فى الديانة

(١) المرجع السابق، ص ٦٥.

الجديدة، ولذلك تأثرت مثلهم العليا السياسية وممارساتهم للشئون العملية بالعناصر الوثنية[1].

وأول طراز مسيحي واسع النطاق في التدوين التاريخي، فهو ذلك الذي كتبه إيوسيبيوس (حوالي ٢٦٠-٣٤٠م) أسقف قيصرية. وقد فرغ من تأليف كتابه «التاريخ الكنسي» بالإغريقية سنة ٣٢٥م، ولم يلبث أن ترجم إلى اللاتينية. وليس هناك مسيحي قبله تمكن من تطويع التاريخ العالمي واستغلاله في الجدل مع الوثنيين، كما أن يوسيبيوس أطلق لنفسه العنان لكي يروي قصة العناية الإلهية[2]. ذلك أن النشاط الإنساني وفق المفهوم الكنسي المبكر، تسيره دوماً «العناية الإلهية»، وما جميع أعمال الإنسان إلا أدوات في تنفيذ المشيئة العلوية. هذا المفهوم عن العناية الإلهية وثيق الصلة بمفهوم كاثوليكي آخر هو مفهوم «الإثم الأول» للبشرية، فمنذ أن سقط آدم في الجنة سقطته الكبرى، تولت عناية الله عن بني آدم توجيه كافة نشاطاتهم وأعمالهم. وعليه فإن عقلية العصور الوسطى الكهنوتية قد أعفت الإنسان من مهمة صنع تاريخه، وترك الأمر كلية للسماء، وذلك توافقا مع التسليم الكاثوليكي «بالمقدر والمكتوب». ويجتهد كتاب العصور الوسطى في التدليل بحجج غريبة على أن الإمبراطورية الرومانية ذاتها قد خلقت لتحقيق غاية علوية، وعندما تؤدي الغرض الذي كان عليها أن تقوم به، تؤذن السماء بزوالها[3].

ومن المعروف أن إيوسيبيوس كان صديقا مقربا إلى الإمبراطور

---

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، ص ٦٦؛ على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) بيريل سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، ترجمة د. قاسم عبده قاسم (القاهرة ١٩٨٤)، ص ٤٤ - ٤٥.

(٣) إسحق عبيد: معرفة الماضي من هيرودوت إلى توينبي، ص ١٨.

قنسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧)، ولذلك أسرف في كتاباته عن الإمبراطور، ووضع كتاباً عنه سماه «حياة قنسطنطين» عرض لمآثره وأياديه البيضاء على الكنيسة، واعتبره مبعوث العناية الإلهية لإنقاذ المسيحية من محنتها، ومن ثم أضفى على أعماله وسياساته وصراعاته مسحة من تأييد مقدس يلهمه الرشاد ويكتب له الظفر والنجاح.

وكان لفلسفة التاريخ التي أوردها القديس أوغسطين[1] (٣٥٤ - ٤٣٠) في كتابه «مدينة الله» أثر كبير في تاريخ الفكر المسيحي، ولم يكن أوغسطين يهدف إلى كتابة رسالة أكاديمية عن فن تدوين التاريخ. وإنما قصد بالأحرى تفسيراً من وجهة النظر المسيحية لسقوط الإمبراطورية

---

(١) القديس أوغسطين آخر آباء الكنيسة العظام، بل وأعظم مفكري عصره على وجه الإطلاق، الذي لازال ظله يخيم على الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية. ولد سنة ٣٦٥م في تاجستا شرقي نوميديا (سوق الأخرس في الجزائر حاليا)، من أب وثني، وأم مسيحية، ونال قسطا وافراً من التعليم، وأجاد اللغة اللاتينية، ودرس القانون في قرطاجنة، ثم تركه بعد ذلك إلى البلاغة، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره، غادر قرطاجنة إلى روما، وهناك تلوث شبابه بالرذائل التي تحدث عنها في صراحة تامة، حتى أنه رفض اختيار زوجة له، وفضل أن يتخذ له عشيقة، عاش وفيا لها حتى افترقا في عام ٣٨٥م، وقد أنجبت منه طفلا. وإذا كانت حياته الخاصة سارت على هذا المنوال، إلا أن حياته العقلية كانت على النقيض تماما، فقد ساقته تلك الحياة إلى الفلسفة الوثنية ولكنها لم تشبع حاجته، فتحول عنها إلى الأفلاطونية المحدثة، ثم استهوته تعاليم المانوية، ويلاحظ أن رحلة الشك هذه لم تصل به إلى الحقيقة المنشودة. وفي عام ٣٨٣م استمع أوغسطين لعظات القديس إمبروز كبير أساقفة ميلان، فأثار اهتمامه شرح العهد القديم، واشتد تأثره بالمسيحية تأثراً أرضى عاطفته الدينية، وخلصه من موجة الشك العارم التي كانت تجثم على صدره. وفي عام ٣٨٧ عمده أمبروز، وعزم العقد على تكريس حياته لخدمة الدين المسيحي، فلما وصل إلى أفريقية باع ما تركه له أبوه من ميراث صغير، ووزع ثمنه على الفقراء. وفي عامة ٣٩١ أختير أسقفا لمدينة هبو (بونا الحالية في الجزائر)، وظل يشغل ذلك المنصب، في الوقت الذي واصل فيه كتاباته اللاهوتية حتى توفي سنة ٤٣٠ أثناء الحصار الذي فرضته جماعات الوندال الجرمانية على تلك المدينة. وقد وصلتنا من أوغسطين كتب ومقالات كثيرة في مختلف الموضوعات الدينية والسياسية من أهمها كتاب «الاعتراف». أنظر محمود الحويري: سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ٧٦.

الرومانية فى الغرب[1] . وقد دفعته الكارثة التى حلت بمدينة روما على يد القوط الغربيين بقيادة ملكهم ألاريك سنة ٤١٠م إلى تأليف هذا الكتاب، فقد أذاع الوثنيون فى كل مكان من الإمبراطورية أن المسيحية هى سبب ما حل بالمدينة من تخريب ودمار. وأحس أوغسطين بتزعزع الثقة فى قلوب الناس من جراء تلك الكارثة، فذكر أن ما حل بروما لم يكن إلا عقاباً لها على ما ارتكبته من آثام وشرور كامنة فى ثنايا الآلهة وتقاليدها. ولم يجد صعوبة فى إثبات أن كثيراً من المدن والإمبراطوريات قد انحلت وسقطت قبل مجيء المسيحية بزمن طويل. وقد ذكر أوغسطين فى كتابه أن هناك مدينتين موجودتين معا: مدينة الأرض ومدينة الله، الأولى من صنع البشر تفنى كما يفنى جسم الإنسان، أما مدينة الله فإنها أبدية تدوم مع الروح، وإذا جاز أن تتحطم مدينة الإنسان المبنية على القوة المادية، فإن مدينة الله لاتزال بخير، أضف إلى هذا أن مدينة الله قد نشأت بخلق الملائكة، على حين أن المدينة الأرضية قد قامت بعصيانه، وفى وسع الكنيسة أن تكون هى بعينها مدينة الله[2] .

وقد يمكن تبعاً للنظرة الكلاسيكية (الإنسانية القديمة) فى تدوين التاريخ تطبيق «النظرية الدورية» على مشكلة اضمحلال الإمبراطورية وإقامة البرهان على أن الطور المنحدر للدورة قد جاء، وأن العالم سيشهد تصدعاً وانهياراً عن كثب، وأن التاريخ سيبدأ من ثم بعد ذلك دورة جديدة، وقد يقنع هذا التفسير بعض الوثنيين[3] . والجدير بالذكر أن علماء اللاهوت المسيحيين قبل أوغسطين لم يستطيعوا التحرر من ربقة النظرية

---

(١) على الغمراوى: موضوعات فى الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٧٢)، ص ١٩.

(٢) أنظر محمود الحويرى: المرجع السابق، ص ١٧.

(٣) على الغمراوى: موضوعات فى الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى، ص ٢٠

الدورية اليونانية فى التاريخ، حتى أن أوريجين السكندرى (حوالى ١٨٥ ـ ٢٥٤) أكبر علماء اللاهوت بين آباء الكنيسة الشرقية قد أحرز مكانته هذه بفضل صياغته لهذه النظرية فى ثوب مسيحى، اعتماداً على العبارة القائلة «فليس تحت الشمس بجديد»[١]. وقد سبقت الإشارة إلى أن أوغسطين هو أول من أدرك بوضوح خطورة النظرية الدورية ورفض الأخذ بها، فالمسيح شخص تاريخى مات مرة واحدة، وقام مرة واحدة، وهل يمكن لأحد أن يتصور أشخاصا لامتناهين من المسيح يموتون ويقومون خلال كل دورات الزمن، فالإيمان المسيحى لايقدم أمثلة متكررة، وإنما تطوراً أكيداً غير مطرد إلى هدف واحد نهائى. فالتاريخ له بداية محددة هى خلق العالم ونهاية محددة بيوم الدينونة ويشمل الجنس البشرى أجمع. فوجهة النظر المسيحية تتطلب إذا تاريخاً عالميا يكشف عن العناية الإلهية Providentia فيما يتعلق بمصير البشرية[٢]. ولاشك أن أسئلة كثيرة هامة واجهت أوغسطين فى «مدينة الله»، ولم يقتنع هو نفسه بما أورده من حجة الرد على الوثنيين، وأسلم لمساعده القس أوروسيوس الأسبانى (٣٨٠-٤٢٠) Orosius Hispanus مهمة كتابة تاريخ مفصل عن الكوارث التى حلت بالعالم الرومانى فى ظل الوثنية ليدحض به مزاعم الوثنيين. وبناءً على ذلك ألف أوروسيوس تاريخه الذى أسماه «سبعة كتب ضد الوثنيين» ضمنه نظرية أوغسطين عن العناية الإلهية فى التاريخ[٣].

وعلى أية حال، لم يتبع المؤرخون المسيحيون القواعد التى سار عليها ثيوكيديدس وبوليبيوس فى التحقيق والتثبيت، وظهر تعصبهم الشديد ضد الوثنية، وهو أمر أدى إلى إعراضهم عن الموضوعية، ورأوا أن تناول

---

(١) المرجع السابق، ص٢١؛ قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص ٣٤.

(٢) على الغمراوى: موضوعات فى الثقافة الأوربية، ص٢١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠.

المسائل الخاصة بالخلق كما وردت في التوارة واتخاذ موقف الناقد فيها كما حدث إزاء الأساطير اليونانية يعد خروجها على العقيدة. ولذلك كانت الكتب الدينية تفسر تفسيرات تتضمن الإشارة إلى المعانى الخفية التى تشتمل عليها تلك الكتب الملهمة، وكان هذا الاتجاه بديلا عن التحليل النقدى السابق اتباعه في المنهج التاريخي،واتبعت هذه الطريقة في تفسير الوثائق التاريخية، وقسم التاريخ قسمين هما: تاريخ دينى مقدس وتاريخ دنيوى، وتتبع في تفسير التاريخ المقدس طريقة التفسير الرمزى لما يصعب تصديقه أو يتعذر فهمه..على أنه من الإنصاف هنا أن نشير إلى أن أسباب تأخر التفكير التاريخى لايرجع إلى تمكن السيطرةالدينية فحسب، فإن عصر الإمبراطورية الرومانية المتأخرة كان عصر تخلف فكرى عام، وقد كان لهذا التخلف تأثره في الكتاب الوثنيين والكتاب المسيحيين على السواء[1].

كتابة التاريخ فى العصور الوسطى الباكرة:

قامت حضارةأوربا في العصور الوسطى على ثلاث قواعد هامة: أولها الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، وثانيها نمو الديانة وسرعة انتشارها، وثالثها الشعوب الجرمانية المتأخرة.

وكانت الكتابة التاريخية في العصور الوسطى الأوربية في أيدى رجال الدين، ويغلب عليها السمات الدينية، وكان الكثيرون من كتاب التاريخ فى تلك العصور ينتقصون سعة الإطلاع الكلاسيكى أو اللاهوتى التى كانت طابع المؤرخين في العهد المسيحى المتقدم، وكان هؤلاء المؤرخون أميل إلى سرعة الاعتقاد والتصديق منهم إلى التحرى والتدقيق

(١) بارنز: تاريخ الكتابة اتاريخية، جـ١ ص ٦٨ - ١٦٩؛ على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٤٠ - ٤١.

فى قبول الأخبار ورواية الأحداث، ولم يكن هناك ما يحول دون تزييف الحقائق وإزهاق الأباطيل مادامت الوثائق والأخبار المزيفة تخدم قضية من قضايا العصر، وتؤيد معتقداً من المعتقدات الشائعة[١]، كما سنرى فيما بعد. وفى تفسير الأحداث التى وقعت أو كانت تقع فى العصر الأوربى الوسيط نجد دائماً التفسير الرمزى والمجازى، فكل الأحداث إنما هى من فوق، والكوارث إن هى إلا شرور لتقديم الموعظة والدرس، والهزيمة سببها البعد عن الله، كما وأن القديسين ينزلون من السماء للحرب فى صف الصليبيين، والسماء تسخر لخدمة الفرنجة، إلى آخره من التصورات الغيبية[٢].

ومن المناسب هنا أن نبين الصعاب التى اعترضت الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى. فقد عمت الفوضى وخيم الظلام بعد انهيار الحضارة الرومانية، وخمدت الحركة الفكرية، وساد الجهل والتخلف، وكان التعصب الدينى الضيق من دواعى ضياع كثير من الكنوز الأدبية التى خلفها العصر الوثنى، وهو الأمر الذى يظهر واضحا فى حريق مكتبة الإسكندرية الشهيرة[٣]. وكان السفر باهظ التكاليف وغير مأمون العواقب، ولذلك صارت الثقافات محلية ضحلة، وأصبح الرهبان هم الطبقة المتعلمة الوحيدة فى أوربا العصور الوسطى، أما العلمانيون فكانوا

---

(١) بارنز: المرجع السابق، جـ ١ ٨٣ ـ ٨٤، على أدهم: المرجع الاسابق، ص ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) إسحق عبيد: معرفة الماضى، ص ٤٢.

(٣) ارتبط باستيلاء العرب على الإسكندرية سنة ٦٤١م موضوع حريق مكتبة الإسكندرية الذى نسبه بعض المؤرخين إلى عمرو بن العاص. وقد وضع نواة تلك المكتبة بطليموس الأول مؤسس دولة البطالمة، ثم تعهدها برعايته بطليموس الثانى حتى غدت أعظم المكتبات فى العالم القديم. ومن المؤرخين من أيد اتهام عمرو بن العام بإحراق المكتبة وحشد الأدلة الخاطئة بغرض تشويه سمعه الإسلام وحضارته، ومنهم من أنكرها تماما مثل المؤرخ بتلر. أنظر: محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٩٦) ص ٦٥ـ٦٨.

أميين لايعرفون القراءة والكتابة. وكان حرص بعض المؤرخين على الولاء لبعض الأسر والأمراء أصحاب السيطرة والنفوذ يجعلهم أكثر اهتماما باسترضاء السادة حماتهم والذين يتفيئون ظل رعايتهم منهم بالحرص على الحق التاريخى، والمؤرخون فى العصر الحديث يكتبون للرأى العام، ولكن فى العصر الوسيط كانت معظم الكتابة التاريخية للإشادة بتاريخ أنصار الأدب وحماته من الأمراء والأعيان، أو لنصرة جماعةمن الجماعات، أو تأييد مذهب من المذاهب الرائجة(١).

وانعكست هذه الاتجاهات فى الكتابة التاريخية فى الفترة الممتدة من عصر ثيودوريك العظيم ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا (٤٨٩-٥٢٦) إلى عهد الإمبراطور شارلمان (٧٦٨-٨١٤)، وظهر مؤرخون عبروا فى كتاباتهم عن بقايا الطابع الكلاسيكى والآخذ فى الزوال، مثلما عبروا عن الاتجاهات الدينية والسياسية التى سادت مجتمع العصور الوسطى المبكر(٢).

وأول هؤلاد المؤرخين كاسيودورس (٤٩٠-٥٨٥) Cossiodoras، وقد تمتع بمكانة عالية عند ثيودوريك ملك القوط الشرقيين، وشغل منصباً هاما فى بلاطه. وقد عالج كاسيودورس فى كتاباته التاريخ والسياسة واللاهوت والنحو، على أن أكثر أعماله التاريخية أهمية وذيوعابين الناس، هو كتابة «تاريخ القوط» Historia Gothorum، لأنه يعالج تاريخ القوط منذ البداية حتى موت الملك ثيودوريك سنة ٥٢٦م، ويقع فى إثنى عشر جزءاً، وليست هناك نسخة أصلية كاملة باقية من هذا الكتاب، وكل

---

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ٦٥ - ٨٦، على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٤٢ - ٤٤.

(٢) بارنز: المرجع السابق، جـ ص ٨٧.

ما نعرفه من معلومات مستمد من الملخص الذى وضعه المؤرخ المرموق جوردان[1] فى القرن السادس الميلادى.

فإذا ما إنتقلنا للحديث عن المؤرخ البيزنطى بروكوبيوس (٥٠٠ـ٥٦٥) الذى سجل حروب الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ـ٥٦٥)، نجد أنه فى سنة ٥٢٧ عين سكرتيراً للقائد الشاب القدير بليزاريوس، ورافقه فى حملاته العسكرية ضد الفرس، والوندال فى أفريقية، والقوط الشرقيين فى إيطاليا، ومن ثم فإن كتاباته جاءت كتابات شاهد عيان. هذا إلى أنه فى كتاباته كان متحيزاً للإمبراطورية البيزنطية، كما كان شديد الإعجاب بالقائد بليزاريوس، ومؤمناً برسالة روما الحضارية، وبأن الإمبراطورية البيزنطية هى التى تنهض بمهمة إتمام هذه الرسالة[2]. وتعتبر كتب بروكوبيوس عن الحروب هى أروع أعماله بلا جدال، ومن بين الخصائص التى ساهمت فى علو مكانة كتبه عن الحروب، كانت الطريقة الموضوعية التى عرض بها مادته التاريخية. فقد أظهر قدراته على الملاحظة، ومعرفته لأنواع الأسلحة والنظم والترتيبات الحربية، ومهارته فى وصف مظاهر الطوبوغرافيا، والأحوال المشابهة التى مكنت القارىء من متابعة قراءة سرده للأحداث التاريخية. بذهن متقد[3]. ولكن بروكوبيوس فى كتابه المشهور الذى سماه «التاريخ السرى» الذى دون فيه مذكراته وملاحظاته، عما كان يراه، قد جبل على التهويل والمبالغة أكثر مما جبل على تقرير الحقيقة والواقع. فقد وصف جستنيان بأنه رجل نهم ينقاد إلى شهواته وملذاته الخاصة، ويعيش فى حفلات مستمرة يملؤها الفسق والدعارة. ولم تكن ثيودورا ـ زوجة جستنيان ـ أكثر من امرأة

---

(١) على الغمراوى: مدخل إلى دراسة التاريخ الوسيط، ص ١١٠ ـ ١١١.
(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ٨٩.
(٣) جوزيف داهموس: سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى، ص ٣٢ ـ ٣٣.

عاهرة، وأمدنا فى ملفه بكثير من التفاصيل المخزية من سلوكها. وقد ظل هذا التاريخ مصدراً رئيسياً لعصر جستنيان إلى أن وفق المؤرخون أخيراً إلى المقارنة بين ما يقوله بروكوبيوس وما ذكره غيره من الكتاب، وما هو موجود فى الوثائق والنصوص التاريخية، وبالتحليل التاريخى الدقيق أمكن إثبات بطلان معظم التهم التى وجهها بروكوبيوس إلى جستنيان وثيودورا وغيرهما من أولى الأمر فى عصره(١).

ومن المؤرخين الهامين فى تلك الفترة جريجورى أسقف مدينة تور (٥٣٨-٥٩٤) الذى ينتمى من ناحية أبويه إلى إحدى العائلات النبيلة المتميزة التى كان لها تقاليد قديمة فى خدمة الكنيسة والدولة، وعندما بلغ سن الخامسة والعشرين فى عام ٥٧٣ أصبح أسقفا لمدينة تور، وظل فى منصبه حتى وفاته فى سن الخامسةوالخمسين فى ١٧ نوفمبر ٥٩٤م(٢). وقد كتب جريجورى أهم مؤلف عن تاريخ الفرنجة فى ذلك الدور الحاسم الذى غزوا فيه غاليا (فرنسا الحالية)، وسماه «تاريخ الفرنجة». وعندما يقرأ المرء تاريخ الفرنجة تتضح شخصية جريجورى، فقد كان فخوراً بأقاربه المميزين أصحاب النفوذ، ولكنه كان أعظم الرجال تواضعا، فمن النادر ما كان يشير إلى نفسه. ونلاحظ أنه عندما شرع فى الحديث عن ملوك الفرنجة الأوائل، رجع إلى مصادر كانت مفقودة لدينا، فأخذ مادة وفيرة من أورسيوس وأبوليناريس (٤٣٠-٤٨٨ تقريبا) وغيرهما(٣). وقد اعتمد جريجورى فى معظم ما كتب على مصادر أصلى، استطاع بحكم مركزه أن يطلع عليها لأنه كان من رجال الكنيسة ذوى المكانة والنفوذ. كما كان صديقا لكبار رجال الدولة من غير رجال الدين. وعلى الرغم

---

(١) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٧٢ - ٧٣.

(٢) Gregory of Tours The Hist. o the Franks, tr. by Le-wis Thorpe, (London, 1974), PP 7-9.

(٣) Ibid., PP. 14-28.

من أن كتاب جريجوري التوري جاء مليئا بالخرافات والمعجزات والكرامات المقدسة، إلا أنه يعطينا الصورةالوحيدة والكاملة تقريبا عن أصل الثقافة الميروفنجية، التي جاءت نتيجة للمزج بين الثقافات الغالية الرومانية من ناحية، والفرنجية من ناحية أخرى(١).

أما إيزيدور الإشبيلي (حوالي ٥٧٠-٦٣٦) Isidorus Hispalensis فقد كان ينتمي إلى عائلة رومانية عريقة رحلت من شمال أفريقية إلى أسبانيا في أوائل القرن السادس. والحقيقة أن إيزيدور يعد واحداً من أهم الرجال الذين يمثلون حلقة الوصل بين الثقافة القديمة وثقافة العصور الوسطى، بل إن المستوى المتدني الذي كتب به إيزيدور مؤلفاته يعتبر من المؤشرات التي تشير إلى البداية الحقيقية للعصور الوسطى، وله مؤلفات كثيرة منها المؤرخات الكبيرة، وتاريخ القوط الغربيين، وتاريخ الوندال(٢).

وفي خلال تلك الفترة الانتقالية - من ثيودوريك إلى شارلمان - ظهر كتاب المؤرخ «بيده» (٦٧٢-٧٣٥) Bede وعنوانه «التاريخ الكنسي في إنجلترا»، ويحوي هذا الكتاب معلومات قيمة حول تاريخ وانتصار المسيحية في إنجلترا، وإنتشار الثقافة الأنجلو ساكسونية فيها. واعتمد «بيده» على البحث الدقيق، فقرأ معظم المصادر الهامة المكتوبة، وكان أمينا في كلامه عن طبيعة المصادر التي رجع إليها(٣). ولازال هذا الكتاب يحتفظ بقيمته وحيويته لقراء العصر الحالي، رغم مرور فترة تزيد عن إثني عشر قرنا على تأليفه، واكتسب به «بيده» شهرة واسعة ولقب

(١) بارنز: تايخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ٨٩ - ٩٠.
(٢) على الغمراوي: مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبي الوسيط، ص ١١١ - ١١٢.
(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ٩١ - ٩٢.

«أبو التاريخ الإنجليزي»[1]. وقد تأثرت كثير من كتب التاريخ التى دونت بعد ذلك فى العصور الوسطى تأثراً كبيراً بكتاب «بيده» وإسمه «تقييم العصور»، وهو الكتاب الذى قسم فيه تاريخ العالم إلى ستة عصور تبدأ بخلق الكون، وتستمر حتى سنة ٧٢٩ق.م[2].

على أن الصورة الوضاءة للكتابة التاريخية فى إيطاليا اللومباردية، تتمثل فى شخصية بولس الشماس، المعروف بهذا الإسم، هو بولس بن وارنفرد †Warnefridلومباردى الأصل، ولد فى أسرة عريقة حوالى عام ٧٣٠م، ونال قسطا طيبا من العلم والثقافة فى البلاط الملكى فى بافيا على أيدى أستاذه النحوى فلافيانوس، ودرس الآداب اللاتينية واليونانية التى أهلته لشغل المناصب العلمانية السامية[3]. ولما بلغ حوالى منتصف عمره ارتدى مسوح الرهبان، فالتحق أولا بدير كيفاتى بالقرب من ميلان، ثم تحول عنه حوالى سنة ٧٧٩م، أى بعد أن شهد سقوط دولته بخمس سنوات، إلى دير مونت كاسينو الشهير على النظام البندكتى[4]. وبعد أن

(١) Rede, A Hist, of the English Church and People (London, 1968), tr. by Leo Sherley- Price, PP. 24 - 25.

(٢) بارنز: المرجع السابق، ص ٩٢.

(٣) Paul the Deacon, Hist. of the lonborrds, tr. by William Dudley Foulk, ed. by edward peters (U.S.A, 1974), PP. XI - Xii;

محمود الحويرى: اللومبارديون فى التاريخ والحضارة (القاهرة ١٩٨٦) ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٤) يلاحظ أن الحركة الديرية فى إيطاليا لم تتقدم فيها حتى القرن السادس الميلادى، ولكن الوضع أخذ يتغير فى هذا القرن نتيجة لجهود ثلاثة رجال أعطوا الحركة الديرية بإيطاليا روحاً جديدة، وطابعا غربيا. ومن بين هؤلاء القديس بندكت (حوالى ٤٨٠ - ٥٤٣)، فهو صاحب الفضل فى تأسيس النظام الديرى الذى عرف باسمه والذى جعل الديرية الإيطالية تحتل مكان الصدارة فى الغرب الأوربى، كما تمتع النظام البندكتى لأول مرة فى تاريخ المنظمات الديرية بتأييد البابوية وعطفها. وقد اختار بندكت مكانا مناسبا فى مونت كاسينو فى منتصف الطريق بين روما ونابولى، واتخذه موضعا لإقامة ديره. وكان النظام البندكتى يقوم على ثلاثة أركان أساسية هى إنكار الذات والطاعة والعمل. وإذا كانت العبادة هى الركن الأول من أركان الحياة الديرية، إلا أن القديس بندكت فرض أن يكون العمل هو الركن الثانى من أركان هذه الحياة. أنظر: سعيد عبدالفتاح عاشور: أوربا فى العصور الوسطى، جـ ١ (القاهرة ١٩٧٥)، ص ١٦٥ - ١٦٩.

قضى به بضع سنوات، وكان قد أصبح وقتئذ عالما مرموقا، قام بزيارة إلى مملكة الفرنجة فى عام ٧٨٣، ليستعطف شارلمان من أجل أخيه الذى اشترك فى ثورة ضد العاهل الفرنجى، وقد جرى استقباله فى البلاط الفرنجى بمظاهر الود والحفاوة، وأجابه شارلمان إلى طلبه. ولاشك أن خبرة بولس بمراسيم البلاط فى بافيا وبنفنتوم فضلا عن مواهبه الأدبية المتميزة، قد تركا انطباعا رائعاً فى نفس شارلمان، الذى كان محاطاً آنذاك بمجموعة من العلماء والباحثين من داخل مملكته وخارجها، ومن هؤلاء بطرس البيزى، الذى قدم إلى بلاط شارلمان من إيطاليا، وألكوين من إنجلترا، وثيودلف القوطى الغربى من أسبانيا، وديكويل من إيرلندا، وغيرهم، وذلك فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٧٥ و٨٠٥[(١)]. على أن بولس الشماس لم يمكث طويلا فى مملكة الفرنجة، إذ بعد أن قضى بها خمس سنوات رغب فى العودة إلى وطنه، فغادرها عائداً إلى دير مونت كاسينو فى سنة ٧٨٦، حيث ظل مقيما به إلى أن توفى حوالى سنة ٧٩٩. ولاشك أن أعظم أعماله التى تبقت لنا مع الأيام،هو كتاب «تاريخ اللومبارديين» Historia Langobardroum الذى لولاه لما وقفنا إلا على القليل من أحداث اللومبارديين، ولانبالغ إنه لولاه أيضا، لما عرفنا عن أحداث مراحل تاريخهم إلا أقل القليل. وقد عكف بولس على تدوين تاريخ قومه فى أخريات سنى حياته بدير مونت كاسينو، حيث عالج فيه أحوالهم منذ رحيلهم من ساحل البحر البلطى حتى وفاة الملك لبوتبراند سنة ٧٤٤م، ولو كان قد أعطى فسحة طويلة من العمر، لأمكنه أن يواصل كتابة قومه، ذلك أنه للأسف، وقف عند نقطة صارت الأحداث عندها معاصرة له[(٢)].

---

(١) Paul the Deacon, Op. Cit., p. xii.

(٢) محمود الحويرى: اللومبارديون فى التاريخ والحضارة، ص ٢٢٨ - ٢٣٠.

ومن أبرز مؤرخي فترة العصر الوسيط الأوروبي الباكر ألكوين (٧٣٥ ـ ٨٠٤) Alcuin، ولد في مدينة يورك في إنجلترا، وتلقى تعليمه في مدرستها الشهيرة، عن الأساتذة الذين تتلمذوا على «بيده» الجليل. وارتحل مرات إلى الغال (فرنسا) ولومبارديا للحصول على الكتب والمدرسين، وظهر في بلاط شارلمان في إحدى سفراته، ولابد أنه حدث هذا في الفترة الواقعة بين سنتي. ٧٦٠ و٧٨٠. وفي سنة ٧٨١م اجتمع ألكوين مع شارلمان مرة أخرى في بارما، وفي هذه المرة انتزع شارلمان من ألكوين وعداً بأن يحصل على إذن من رؤسائه، كيما يقوم بزيارة طويلة إلى بلاطه في آخن. وفي سنة ٧٨٢م وفى ألكوين بوعده، ففارق موطنه الأصلي، ولم يزره بعدئذ إلا مرات قليلة(١). وعلى الرغم من أن شارلمان غمر ألكوين بالضياع الوفيرة، فإنه لم يرغب أو يقبل أن يشغل وظيفة رسمية، وبقي شماسا حتى وفاته، وانصرفت جهوده إلى أعمال الكتابة والتشريع والتعليم. وفي سنة ٧٨٦م إنسحب ألكوين من البلاط إلى دير القديس مارتن في تور، ولم تجد المساعي في إغرائه بالعودة إلى القصر، ومنذ ذلك الحين حتى سنة ٨٠٤ عندما أصابه الشلل، عاش حياة شديدة الزهد والتأمل(٢). وتكمن أهمية ألكوين في أنه نقل النهضة العلمية المزدهرة في إنجلترا إلى القارة الأوروبية.

ومن أبرز المؤرخين في تلك الفترة إينهارد (حوالي ٧٧٠ ـ ٨٤٠) Egnihard، ولد في وادي نهر المين، وتلقى تعليمه في دير فولدا الذي كان المركز الرئيسي للتعليم في الأراضي الفرنجية. وفي سنة ٧٩١ أو ٧٩٢ أقنع رئيس ديره شارلمان بإلحاقه ببلاطه، وكان شارلمان قد شيد مدرسة القصر وأسند رئاستها إلى العلامة ألكوين. وبعد وصول إينهارد

---

(١) ديفز (هـ. و. كارلس): شارلمان، ترجمة د. الباز العريني (القاهرة ١٩٥٩)، ص١٤٩.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦٢.

إلى بلاط شارلمان تقاعد ألكوين فى دير القديس مارتن فى تور كما ذكرنا، ومما يدل على أهمية إينهارد أن شرلمان طلب إلى ألكوين أن يلقى الضوء على سؤال حول الكلاسيكيات، فأشار عليه ألكوين بالرجوع إلى إينهاردفى هذا الصدد. وعلى الرغم من أن إينهارد كان مستشارا وصديقا لشارلمان وعلى علاقات طيبة معه، بدليل أنه أرسله سفيراً فى بعض الأمور المتعلقة بالدولة، إلا أنه لم يحتل منصبا عاليا فى حياة شارلمان[1]. ولكن بعد وفاة شارلمان سنة ٨١٤، صار إينهارد مقرباً إلى إبنه لويس التقى، وعينه سكرتيراً خاصا له، وأسبغ عليه ألقاب الشرف والتكريم. وفى سنة ٨٢٨ إنسحب إينهارد من البلاط عندما اشتد النزاع بين لويس وأبنائه وعاش فى هدوء حتى وفاته سنة ٨٤٠م. وقد كتب إينهارد بعض الأعمال يأتى على رأسها كتاب «حياة شارلمان»، وضعه فى أسلوب لاتينى منمق، وعلى الرغم من أنه لايخلو من عيوب فى تفسير مصادره، إلا أنه يعتبر وثيقة تاريخيه هامة لاغنى عنها لمن يتناول سيرة شارلمان وتاريخه[2]. فقد كشف ذلك الكتاب الكثير من جوانب حياة شارلمان الشخصية، من ذلك أن إينهارد روى أن سيده اعتاد أن يستمع إلى الموسيقى أو القراءات التاريخية أثناء تناول الطعام، ومن أنه عرف القراءة، ولكنه لم يتعلم الكتابة ولم يتقدم فيها بدرجة محسوسة، لأنه بدأ يتعلمها فى وقت متأخر. ويبدو من كتاب إينهارد أنه لم يقتصر على معالجة جانب دون آخر من عصر شارلمان وشخصيته مثل غيره من كتب السير القديمة، وإنما كان عرضا طريفا جامعا لشتى المعلومات عن النظم الإدارية والحكومية والأحوال الاجتماعية.

---

(١) Einhard, The life of Charlemagne, with a farward by sidney pinter (U.S.A., 1959), pp. 9 -10.

(٢) Ibid., p. 10.

تدوين التاريخ فى العصور الوسطى الأوربية فيما بين سنتى ٩٥٠ و١١٥٠م:

توقف التدوين التاريخى، باستثناء الحوليات، فى أوربا فيما بين أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادى. ويرجع السبب فى ذلك إلى الحروب التى مزقت الإمبراطورية الكارولنجية، وغارات الفيكنج(١) والهنغاريين والمسلمين، جعلت التأليف الأدبى أمراً صعاب(٢).

وظهرت أنماط جديدة من التدوين التاريخى تلبية للاحتياجات الجديدة. وكانت الحولياتAnnals هى أكثر أشكال التدوين التاريخى فى العصور الوسطى بدائية(٣). وطريقة الحوليات هذه كانت الطريقة المتبعة فى مصر القديمة وبابل، وقد ظهر هذا النمط من الكتابة التاريخية فى أوائل العصر الكارولنجى - الذى بدأ سنة ٧٥٢ بعد القضاء على الأسرة الميروفنجية من سلالة كلوفيس - وليداً للدافع الدينى فيما يتعلق بتحديد عيد الفصح تحديداً دقيقا. ومن الواضح أن افتقار عامة رجال الدين يومئذ إلى المعرفة الدقيقة بعلم الفلك أو حساب الزمن جعل ذوى رجال العلم منهم يوزعون على الرهبان والقساوسة جداول زمنية تحوى بيانا بموعد عيد الفصح لعدة سنوات تالية. وقد أدى الخوف من أن يخطأ القساوسة - بسبب قلةحظهم من العلم - فى تحديد موعد هذا العيد، مما يترتب عليه

---

(١) نقصد بالفيكنج العناصر الشمالية التى سكنت شبه جزيرة سكنديناوة وشبه جزيرة الدنمارك، والتى اتخذت إغاراتها على أوربا شكلاً خطيراً فى القرن التاسع.
وقد أطلق المعاصرون على تلك العناصر اسم الفيكنج Vikings، بمعنى سكان الفيوردرات والخلجان، وهى الظاهرة الطبيعية التى تمتاز بكثرتها شواطىء الجهات الشمالية الغربية من أوربا. وقد اتخذت إغارات الفيكنج شكلا بحريا أقرب إلى القرصنة منه إلى الزحف البرى الذى اتصفت به هجمات بقية الشعوب الجرمانية قبل ذلك بأربعة قرون أو خمسة.
انظر: سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ (القاهرة ١٩٧٥)، ص ٢٠٦ - ٢٣٤.
(٢) سمالى: المؤرخون فى العصور الوسطى، ص ٨٣.
(٣) المرجع السابق، ص ٥٩.

تغيير مواعيد الأعياد التالية، إلى تقرير مواعيد ثابتة لعيد الفصح[1]. وقد احتكر الرهبان كتابة الحوليات، وقد فرضت عليهم الحياة الديرية الانعزال عن الحياة الاجتماعية النشطة، والأصل فى هذا اللون من الكتابة التاريخية أن يعيش المؤرخ وسط تيار الأحداث لا أن ينعزل، ومن هنا جاءت كتابتهم ساذجة قليلة القيمة.

وقد امتازت الحوليات فى العصور الوسطى بالاقتضاب الشديد بحيث لاتتعدى الحولية ذكر السنة وأهم ما حدث فيها، فسنة ٧٠٩ شتاء قارص البرد، وسنة ٧١٠ قحط ونقص فى المحصول، وسنة ٧٢٢ فيضان مرتفع، وهكذا حتى تشمل الصفحة الواحدة تاريخ عشرين سنة تقريبا. وربما أضعف من قيمة تلك الحوليات أن كتابها كثيرا ما حصلوا على تدوين بعض الخوارق غير الطبيعية، فضلا عن الاهتمام البالغ بأحداث - هى فى نظرهم ذات أهميةكبيرة - مثل نقل رفات قديس أو وفاة بعض كبار رجال الدين، وكل هذه معلومات ذات قيمة ضئيلة للباحث الحديث المشتغل بالتاريخ، اللهم سوى أنها تكشف النقاب عن المستوى الفكرى لمؤرخ العصور الوسطى، وتعطينا فكرة عن ضعف الحاسة التاريخية عنده[2]. ولكن بمرور الزمن نمت تلك الحوليات بانتقالها من دير إلى آخر، مما أدى إلى زيادة الحواشى وتعدد التعليقات على حوادث كل سنة. ونلاحظ على الحوليات التى دونت فى الأديرة والكاتدرائيات أن كلا منها يحمل الطابع المحلى الخاص الذى يعطى صورة صادقة للحياة فى المكان والزمان الذى كتبت فيه الحولية. كذلك نلاحظ أنه كلما تقدم الزمن بالقرن الثانى عشر الميلادى أخذ التاريخ يخلع عن نفسه الصفة المحلية

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١، ص ٩٥.
(٢) المرجع السابق، جـ١ ص ٩٥ - ٩٦.

الضيقة لتزداد صفته العالمية، وذلك نتيجة لنشاط الاتصال التجارى من ناحية، ولازدياد أهمية بلاط الملوك من ناحية أخرى(١).

أما المدونات التاريخية Chronicles فتشمل كتب الوقائع والحوادث التى تعتبر الإنتاج المميز لفن التدوين التاريخى فى القرن الثانى عشر عندما أخذت كتابة التاريخ تجنح نحو الطابع العالمى، وتخلع عن نفسها صفتها المحلية التى لازمتها فى العصور الوسطى السابقة(٢). والمدونات التاريخية تلخيص لأحداث تاريخية لفترة من الفترات، يقوم على أساس حولية أو أكثر، مع الاحتفاظ بالتنظيم والترتيب الزمنى للأحداث، على نحو ما هو متبع فى الحوليات التى نقل عنها. وقد يكون بعض ما ورد فى هذه المدونات التاريخية من أحداث قد وقع قبل عصر المؤرخ، ومن ثم فإنه يجمع المادة الخاصة بها الرجوع إلى عدد من الحوليات، حتى يحقق فى كتابة سرداً متكاملاً شاملاً. وهناك تباين كبير بين المدونات التاريخية بعضها وبعض فى العصور الوسطى، وذلك من ناحية طبيعتها أو من ناحية التأليف، فبعضها كان روايات شخصية عن تجارب المؤلف الخاصة، والبعض الآخر تناول تاريخ البيئة المحلية، فى حين أن بعضها كان سجلا لأحد الأديرة والحياة فيه، وما كان بينه وبين العالم الخارجى من علاقات واتصالات. وهناك من المدونات التاريخية فى العصور الوسطى ما اختص بعلاج تاريخ مدينة معينة وما تعرضت له من أحداث، مثل تلك الحوليات الشهيرة عن لندن وفلورنسة وجنوه وكولونيا، هذا فى حين اختص البعض الآخر بحدث ضخم مثل الحروب الصليبية(٣).

وتجدر الإشارة إلى أن الاتجاه العام نحو استخدام اللغات القومية

---

(١) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ ٢ (القاهرة ٩١٩٧٦)، ص ١٣١.

(٢) المرجع السابق، جـ٢ ص ١٣١،

(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ٩٦ - ٩٧.

الناشئة فى كتابة التاريخ ظهر قويا فى القرن الثانى عشر فصاعداً فى فرنسا وألمانيا وإنجلترا. ولم يكد يختتم القرن الثانى عشر إلا وكانت كتابة التاريخ باللغات القومية قد أصبحت شيئا مألوفا. وترجع أهمية هذه المسألة إلى أن عدم كتابة التاريخ باللاتينية التى ظلت لغة الكنيسة، وكتابته باللغات القومية، ساعد على الحيلولة دون احتكار رجال الدين للكتابات التاريخية، وجعل هذا النوع من الكتابات أمراً دنيويا. وهكذا أخذ المؤرخون يخاطبون الشعوب بلغاتها ويكتبون لها بألسنتها، وبالتالى أصبحوا يهتمون بالأمور والمسائل والأخبار التى تهم الشعوب وتعنى الرأى العام(١).

تأثير الحروب الصليبية فى التدوين التاريخى فى العصر الوسط الأوربى:

تعد الحروب الصليبية من أهم الحركات الكبرى التى أثرت فى مجرى تاريخ البشرية، بحيث لايمكننا تتبع التاريخ السياسى لعالم العصور الوسطى دون الإشارة إليها. وقد انبعثت تلك الحروب من الغرب الأوربى المسيحى، باعتباره المخطط والمنفذ لها، واتخذت من الدين ستاراً لتخفى أطماعها الاستعمارية الرامية إلى الإستيلاء على أراضى وثروات المسلمين والعبث بمقدساتهم فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى.

وقد اعتاد الباحثون عند تناولهم لأحداث الدعوة إلى الحروب الصليبية أن يبدأوا بمجمع كليرمونت بإقليم أو فيرن بفرنسا، الذى عقده البابا أوربان الثانى فى نوفمبر سنة ١٠٩٥م، وإن كانت جذور هذه الدعوة ترجع إلى ما قبل ذلك بنحو قرن، عندما أسبغت البابوية على الحروب التى شنها الغرب الأوربى على المسلمين فى أسبانيا وجزيرة صقلية لونا بغيضا من التعصب الدينى. وكانت البابوية فى الغرب الأوربى قد ارتفع

---

(١) حسنين ربيع: محاضرات فى علم التاريخ، ص ١٣٨ - ١٣٩.

شأنها، وصار لها السيادة على كل الكنائس الأوربية بفضل سلسلة من البابوات الأقوياء، فأخذت تشجع أمراء الإقطاع على نبذ حروبهم الداخلية، وتوجيهها ضد المسلمين، بغية إشباع نزعتهم القتالية، ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب.

وفى منطقة الشرق الأدنى تحقق حلم البابوية، بخروج أعداد ضخمة من أهالى غرب أوربا فى سنة ١٠٩٦ عرفوا بالصليبيين Crusaders على حد تعريف المؤرخين الغربيين بهم، أو الفرنجة وفقا لما جاء فى المصادر العربية، تحت شعار تحرير الأراضى المقدسة فى فلسطين من أيدى المسلمين. وفى فورة من الحماس الدينى المتقد المشوب بالأغراض الدنيوية، اخترق الصليبيون آسيا الصغرى، ومنها زحفوا جنوبا نحو مدينة بيت المقدس، فسقطت فى أيديهم سنة ١٠٩٩م، بعد حصار استمر شهرين، وهناك لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع أعمال الوحشية، فقتلوا عشرات الألوف من المسلمين أطفالا ونساء ورجالا وشيوخا. ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى صار فى أيدى الصليبين الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام وموانيه لتأمين الاتصال البحرى بغرب أوربا، واستمر وجودهم نحو قرنين من الزمان، وكان ذلك على وجه التحديد من سنة ١٠٩٧ إلى سنة ١٢٩١م.

وكان للحروب الصليبية أثرها على التدوين التاريخى من حيث تحريره من ربقة الأطر القديمة وإيجاد الحافز إلى الكتابة. ذلك أن ما يتسم به موضوع الحروب الصليبية من جدة، وما يحفل به من إثارة، حرر المؤرخين من الاعتماد على النماذج القديمة. ولم يكن ثمة شيء فى الحروب التى شهدتها العصور الوسطى الباكرة يمكن مقارنته بالحروب الصليبية .وكان على مؤرخ الحروب الصليبية أن يكتب بطريقته الخاصة، كما صارت الكتابة التاريخية أقل نمطية، وأكثر تلقائية. كذلك وجد الحافز

إلى الكتابة بفضل اتساع مجال هذه الكتابة وآفاقها. فقد اكتسب المؤرخون الذين كانوا يعيشون فى المناطق العسكرية خبرات جديدة، ذلك أنهم كانوا يتعرفون على حضارتين. ولأن الحروب كانت متداخلة وطويلة الأمد، فقد قامت بين المستوطنين وأعدائهم اتصالات سليمة، وهو الأمر الذى يعنى أن عيونهم قد تفتحت على حقيقة أن أولئك الأعداء بشر وليسوا من الشياطين(١).

لقد أنتجت الحروب الصليبية كتابا علمانيين ومؤلفات تاريخية وطنية، كما تطور الأدب العلمانى بفضلها. وكان النمط الجديد من التدوين التاريخى مناقضا للتدوين التاريخى اللاتينى الكنسى التقليدى من عدة وجوه، فى الوقت الذى كان هذا النمط الجديد أبعد ما يكون عن الملحمة الوطنية أو ما يعرف باسم «أغانى المآثر» Chansons de Geste، لأن الملاحم الوطنية كانت تعالج القصص الخيالية والخرافات، بينما كان على تاريخ الحروب الصليبية أن يبدأ يتناول الحقائق(٢).

وعلى أية حال، كانت الحروب الصليبية بمثابة دفعة وحافز للتدوين التاريخى، ومن بين العديد من مؤرخى الحروب الصليبية اخترنا ثلاثة هم، الكاتب المجهول صاحب كتاب «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس»، ووليم الصورى Williamm of Tyre، وجيوفرى من فيلهاردوين Geoffrey of Villehardouin ، ويعد الثلاثة من أحسن الأسماء المعروفة، كما يتمتعون بأنهم محل اهتمام لأسباب متناقضة، فمنهم من يمثل طرازاً جديداً من المؤرخين ومنهم من يقدم معالجة أصلية لنمط قديم من الكتابة التاريخية(٣).

(١) سمالى: المؤرخون فى العصور الوسطى، ص ١٢٩.
(٢) المرجع السابق، ص ١٣٠.
(٣) المرجع السابق، ص ١٣٧.

كان الكاتب المجهول صاحب كتاب «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس»، وهو أحد شهود العيان للحملة الصليبية الأولى، ولانعرف على وجه التحقيق اسمه رغم كثرة الإشارة إليه فى الدراسات الصليبية. ومنذ وصفه للحملة الصليبية الأولى، ومن مركزه الذى حارب خلاله فى جميع المعارك حتى يونيو سنة ١٠٩٨م، يتضح أنه كان تابعا لبوهيموند النورمانى، وأنه جاء من جنوب إيطاليا، وعلى وجه التحديد من أبوليا(١). ويختص صاحب «أعمال الفرنجة» بوهيموند النورمانى دون بقية الأمراء الصليبيين بكلمة «الرئيس» Dominus، مما يدل على أنه كان فى جيشه ومن أتباعه. وعندما استقر بوهيموند فى أنطاكية سنة ١٠٩٨ بعد أن أسس إمارة لنفسه فيها، ورفض أن ينضم إلى الجيش الصليبى الزاحف على بيت المقدس انفصل الكاتب المجهول عن سيده وانضم إلى ريموند كونت تولوز للمشاركة فى الاستيلاء على بيت المقدس، وقد كتب «أعمال الفرنجة» بلغة لاتينية سهلة فصيحة، واحتوى على اقتباسات من الكتاب المقدس، وربما يكون الكاتب المجهول قد ألحق بالكنيسة وهو صغير، ثم تركها ليشق لنفسه طريقا علمانيا. والواقع أن هذا المؤرخ قد أعطانا صورة صادقة عن الحملة الصليبية الأولى التى شارك فيها، وساهم فى تحقيق انتصاراتها(٢).

وإذا انتقلنا من المؤلف المجهول إلى المؤرخ وليم الصورى (حوالى ١١٣٠ - ١١٨٥)، نلاحظ أن قصة الصليبيين فى فلسطين كان قد مر عليها ثمانون عاما، ولم تستطع الحملات الصليبية التالية أن تفعل شيئاً لتدعيم الوجود الصليبى ببيت المقدس، ولذلك فإن قصة الصليبيين كانت

---

(١) Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum Ed. by Rosalind Russel (London, 1962), pp. xi - xii.

(٢) Ibid., pp. xiii - xvi.

تموج بمشاعر الحزن أكثر مما تحمل من علامات النصر. ويرى البعض أن كتاب وليم الصورى «تاريخ الأعمال التى تمت فيما وراء البحار» ليس عملا أصيلا فى صياغته مثل كتاب «أعمال الفرنجة» الفذ الفريد، فهو كتاب تاريخ أدبى كتبه أحد كبار الأساقفة بلغة المثقفين، وهو لافت للنظر من حيث أنه حقق أقصى ما يمكن لهذا النمط من الكتابة أن يحققه، ويبرز وليم الصورى كأكثر مؤرخى العصور الوسطى عذوبة ورقة(١). والواقع أن تاريخ الحروب الصليبية ببلاد الشام رواه ما يقرب من إثنى عشر مؤرخ معاصر، وألمع أولئك المؤرخين قاطبة وليم الصورى، فأعماله التاريخية عظيمة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وإذا كان قد أطلق على هيرودوت أب التاريخ، فإن وليم الصورى يعتبر أب التاريخ فى عصره، وهو جدير بذلك اللقب لحسن نظامه وتنسيقه، ومعالجته الفنية للموضوع، وتمتعه بفن السرد الحيوى للحوادث(٢).

والراجح أن وليم الصورى ولد فى بيت المقدس حوالى سنة ١١٣٠م، من أبوين ينتسبان إلى أسرة إيطالية، اشترك رجالها فى الحملة الصليبية الأولى، ونشأ فى الشرق، وأجاد العربية واليونانية. وتوجه إلى الغرب الأوربى للتعليم، فأمضى ستة عشر عاما (١١٤٥ ـ ١١٦١) فى باريس درس خلالها الفنون الحرة واللاهوت، ثم توجه إلى بولونا فى إيطاليا، حيث درس القانون مدة أربع سنوات (١١٦١ ـ ١١٦٥م)(٣). وعند عودته إلى فلسطين اتصل بالملك الصليبى عمورى الأول (١١٦٣ ـ ١١٧٤)، وأمده عمورى بتواريخ عربية، وطلب إليه أن يكتب تاريخ

(١) سمالى: المؤرخون فى العصور الوسطى، ص ١٤٢.

(٢) محمود الحويرى: الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٣) Davis (R.H.), William of Tyre, in Relations between East and West in the Middle Ages, ed., by Dereke Baper (London, 1973), P. 64.

عصره، وتاريخ مملكة بيت المقدس منذ عام ١٠٩٤، وفى سنة ١١٦٥ عينه الملك قسيساً فى كاتدرائية صور، ثم رئيسا لشمامستها فى سنة ١١٦٧، وترقى وليم فى البلاط الملكى، وعهد إليه عمورى بتربية إبنه بلدوين الرابع فى سنة ١١٧٠، وفى سنة ١١٧٤ عينه عمورى مستشاراً للمملكة ورئيساً لأساقفة صور، وبعث به فى سفارات إلى روما وبيزنطة[١]. وبعد موت عمورى فقد وليم مكانته فى البلاط، ونتيجة لذلك لم يرق إلى منصب بطريرك بيت المقدس، وهى الوظيفة التى كان يتحرق شوقاً فى الحصول عليهامنذ زمن طويل، فانسحب إلى صور سنة ١١٨٠م، وصار مراقباً للأحداث، ولايشترك فيها، وتوقفت طموحاته فى الحياة وتبعثرت آماله، ومات سنة ١١٨٥م[٢]، قبل أن يشهد استيلاء صلاح الدين الأيوبى على بيت المقدس.

وتنقسم المصادر التى اعتمد عليها وليم الصورى فى كتابة تاريخه إلى قسمين، بعضها مكتوب، وبعضها حفظ عن طريق التواتر الشفهى. فقد أفاد من مؤلفات من سبقه من المؤرخين الصليبيين، وكانت طريقته فى إيراد الحادث أن يذكر الرواية الوحيدة إذا كان ليس هناك غيرها، أما إذا تعددت الروايات فكان يلجأ للمفاضلة بينها وينتقى منها الأفضل فى رأيه، أو يسرد جميع الروايات ويترك للقارىء أمر المفاضلةبينها. وهناك فارق كبير بين المعلومات التى يوّردها فى تاريخه عن الفترات التى سبقت عصره والمعلومات المتعلقة بعصره، ففى الأخيرة نراه يتناول الأحداث بكثير من الإسهاب والتفصيل، ففى أخبار فترة حكم عمورى الأول نلاحظ أنه يسهب فى وصف أحوال مصر والخلفاء الفاطميين

(١) Ibid., PP. 64 - 65.

(٢) Krey (A.C.), William of Tyre, The Making of an Historian in the Middle Ages, in Speculum.A Journal of Mediaeval Studies. Vol. xvi,

وأصلهم وأخبارهم، ويولى أمر جغرافية مصر والنيل وبرزخ السويس عناية خاصة(١).

وتخللت مراحل نشاط وليم الصورى فى ميادين الوظائف الدينية والسياسية نشاط فى كتابة التاريخ، وأعدته شخصيته ومواهبه وثقافته والمناصب الدينية والسياسية التى تولاها، والمصادر التى استقامت له بهذا العمل، كأحسن ما يقوم به المؤرخ المدقق(٢). ومما يستوجب الالتفات فى كتاب وليم «تاريخ الأعمال التى تمت فيما وراء البحار»، أنه صور عماد الدين زنكى، ونور الدين محمود، وأسد الدين شيركوه، وصلاح الدين الأيوبى تصويراً يدعو إلى الإعجاب، على حين نعى على زعماء الصليبيين تدهور صفاتهم الحربية والخلقية على قوله، وعجزهم عن مقاومة نور الدين وصلاح الدين، لانتشار الرذيلة والخيانة والفرقة والمنافسة. والغدر بين صفوفهم(٣). ويبدو من أسلوب وليم السلس الذى كتب به تاريخه، أنه كان يجيد اللغة اللاتينية التى كتب بها، واتسم فى كتابته بطبيعة هادئة، واشتهر بالنزاهة والحياد والموضوعية بصورة قلما ضارعه فيها غيره من المؤرخون، مما جعل كتابته تقترب من معايير ومقاييس الدراسة التاريخية الحديثة. وقال عنه آرشر T.A. Archer وهو أحد الباحثين المحدثين، أنه «كان يفوق سائر مؤلفى العصور الوسطى، لما اتسم به كتابه من التناسق الفنى، ولما انطوى عليه موضوعه من اهتمام بالغ واكتمال رائع»، وقال عنه المؤرخ ستانلى لين بول: «لايستطيع أحد أن يقارن رئيس أساقفة صور وليم الصورى فى «تاريخه»، فهو كتاب مفعم بالحيوية، ويدل على دراية صاحبه بكل الحوليات اللاتينية والعربية»(٤).

(١) نورالدين حاطوم وآخرون: المدخل إلى التاريخ، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦.
(٢) نظير حسان سعداوى: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٤٤.
(٣) المرجع السابق، ص٥٠.
(٤) Krey, Op. Cit., p. 149.

ومهما يكن من أمر، فقد أثر وليم الصورى، تأثيراً كبيراً على المؤرخين المتأخرين، واعتبر بحق المصدر الأصلى الكامل لكل ما وقع فى زمنه من أحداث. كما أن الأحداث التى لم يعاصرها اعتمد فى تدوينها على المحفوظات الملكية والكنيسة، فضلا عن شهود العيان وبعض المراجع الأخرى، الأمر الذى يضفى أهمية كبرى على كتابه.

أما جيوفرى من فيلهاردوين - أو جيوفرى الفيهاروديني - مؤلف كتاب «غزو القسطنطينية»، فقد ولد بين سنتى ١١٥٠ و١١٥٤م، وكان والده نبيلا من شامبنى، ولم يكن جيوفرى فارساً عاديا، بل نال ثقة الجميع واحترامهم، وصار مارشال شامبنى Marshal of Champagne سنة ١١٨٥م. وكان واجب المارشال أن يمنع قيام أية حروب بين النبلاء المتجاورين، ويعيد الأمور إلى نصابها، وإذا ما حدث أن نشبت الحرب بين فريقين من النبلاء، فعلى المارشال أن يجهز حملة، وفى غياب سيده يقود تلك الحملة، بالإضافة إلى أنه كان ينوب عن سيده فى إدارة شئون الولاية. ومن خلال الواجبات التى قام بها جيوفرى صار معروفا لكثير من الشخصيات النبيلة، وأهله منصبه لاكتساب خبرة مارسها بعد ذلك بشكل أوسع(١).

وقد قدم لنا جيوفرى فى كتابه «غزو القسطنطينية» صورة وافية عن الأسباب التى أدت إلى انحراف الحلة الصليبيةالرابعة عن هدفها وهو توجيه ضربة ضد مصر بوصفها مركز المقاومة الحقيقى ضد الصليبيين بالشام، لكى تحاصر عاصمة مسيحية آمنة هى القسطنطينية وتستولى عليها عام ١٢٠٤م. ومازال هذا الكتاب يعطينا خير وصف عن الصراع الطويل بين المسيحيين فى الشرق والغرب، كتب باللغة الفرنسية، ولعله

---

(١) Jainville & Villehardouin, Chronicles of the Crusades (U.S.A., 1977), pp. 10-11.

أول كتاب تاريخى هام فى العصور الوسطى يكتب باللغة المحلية. ويعتبر كتاب «غزو القسطنطينية» أحد المصادر الرئيسية التى تناول أحداث الحملة الصليبية الرابعة، وقد كتبه علمانى بأسلوب واضح يجمع بين الموضوع والإيجاز، ولكنه ملىء بالحقائق، ويفيض بالإحساسات الشخصية والمهارة فى تصوير الشخصيات(١). ولم يطلق جيوفرى لنفسه العنان فى إبراز شخصه بتواضع زائف أو بعرض متكبر، بل كان سلوكه يمتاز بكل كرامة وعظمة، ويظهره زعيما حقيقيا فى السلم والحرب يسدى النصح ويسوى النزاع بين الكبار والقادة، ويتحمل المسئولية فى أوقات الخطر والهزيمة ليعيد الأمور إلى نصابها، ومات جيوفرى عام ١٢١٢م فى الشرق(٢).

ومهما يكن من أمر، فقد شهدت السنوات التى تلت سنة ١٣٠٠ تطورات جديدة فى كتابة التاريخ، كما شهدت مولد أفكار جديدة عن الطريقة التى ينبغى أن يكتب بها. فقد استمر الرهبان والقساوسة يكتبون التاريخ باللغة اللاتينية. ولكن القرن الرابع عشر يشتهر أكثر بمدوناته المكتوبة باللغات القومية؛ ويأتى المؤرخ العلمانى - جنديا كان أو موظفا مدنيا - فى المقدمة، لأنه يروى الأحداث التى شاهدها وشارك فيها. وعلى سبيل المثال «حياة القديس لويس» التى كتبها جوانفيل(٣) (١٢٢٤ - ١٣١٩) الذى كان صديقا ومستشاراً للملك لويس التاسع وموضع ثقته. ومن المحتمل أن جوانفيل شرع فى تدوين أو إملاء كتابه بعد أن تقدم به العمر، وتكاد الحملة الصليبية السابعة التى قام بها لويس التاسع هى محور

---

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ١١١.

(٢) نورالدين حاطوم: المدخل إلى التاريخ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

(٣) سمالى: المؤرخون فى العصور لوسطى، ص ١٨٧.

كتابه «حياة القديس لويس» والإطار الأساسى لأحداثه، حيث إنه ركز على أحداث الفترة من سنة ١٢٤٨ إلى ١٢٥٤ . وقد استهدفت المادة التاريخية، مع كونها سليمة ويمكن الاعتمادعليها نسبيا، تأكيد ما للملك لويس التاسع من صفات القداسة[١] التى رآها جوانفيل.

(١) بارنز: المرجع السابق، جـ١، ١٢٨.

الفصل الرابع

كتابة التاريخ فى عصر النهضة وما بعده

كتابة التاريخ فى عصر النهضة
حركة الاستنارة أو التنوير فى القرن الثامن عشر

عصر النهضة Renaissance مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة فى الفترة بين القرن الرابع عشر والقرن السادس عشر. ويدل المصطلح على التيارات الفنية والثقافية والفكرية والعلمية التى بدأت فى إيطاليا منذ القرن الرابع عشر، حيث بلغت أوج ازدهارها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا وأسبانيا وألمانيا وهولندا وإنجلترا وإلى سائر أنحاء أوربا.

وقد تميزت فترة الانتقال هذه بقيام حركة واسعة من أجل إحياء العلوم والمعارف على أساس الرجوع إلى مخلفات وآثار الإغريق والرومان القديمة ودراستها. وبفضل هذه الدراسة تحرر الإنسان من القيود التى عطلت تفكيره ونشاطه فى العصور الوسطى، فحدث فى عصر النهضة إنتعاش ذهنى شامل لم تلبث أن ظهرت آثاره واضحة فى القرن السادس عشر. وكان من أهم مآثر عصر النهضة اكتشاف أراض وشعوب جديدة وظهور طائفة كبيرة من الرحالة والمستكشفين والملاحين، وكذلك إتمام إنجازات عظيمة فى ميادين عديدة ومختلفة. ومن أعظم شخصيات عصر النهضة ليوناردو دافينشى ومايكل أنجلو فى مجال الفنون، وكريستوفر كولومبس وفاسكوداجاما فى مجال الاستكشافات الجغرافية، وجوتنبرج مخترع الطباعة، وإسحق نيوتن صاحب نظرية الجاذبية، وديكارت الفيلسوف وعالم الرياضيات الشهير، وكوبرنيقوس وجاليليو الفلكيان الشهيران، وغير هؤلاء كثيرون، فهذا العصر بحق هو عصر انبعاث وولادة جديدة، كما يدل إسمه الأجنبى.

ويميل بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن سقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين عام ١٤٥٣ قد أدى إلى فرار علماء القسطنطينية من المهمتين بالدراسات اليونانية القديمة إلى إيطاليا، وأن نشاط هؤلاء العلماء فى

المهجر قد أدى إلى ظهور حركة الإحياء أو البعث هناك. والواقع أن هذا التفسير لظهور حركة الإحياء فى إيطاليا لم يعد مقبولا الآن، فمن المسلم به أن حركة التنقيب عن المخلفات القديمة قد ظهرت فى إيطاليا قبل سقوط القسطنطينيةبخمسين عاما على الأقل. ثم إن النهضة التى شهدتها إيطاليا وانتشرت منها إلى أوربا لاتحدد بانتعاش الدراسات اليونانية فحسب. فهذا الانتعاش الخاص بالآداب اليونانية القديمة كان عنصراً واحداً من عناصر هذه النهضة، وما حدث بالفعل هو أن عدداً كبيراً من علماء القسطنطينية كان قد جذبتهم إلى إيطاليا بوادر النهضة الأدبية هناك، فرحلوا إليها منذأوائل القرن الخامس عشر، أى قبل سقوط القسطنطينية بحوالى نصف قرن. ولهذا ليس صحيحا أن سقوط القسطنطينية هو السبب الأساسى فى ظهور حركة الإحياء فى إيطاليا وإن كان بالتأكيد من العوامل التى ساعدت على نموها(١).

ومن العوامل المساعدة التى أدت إلى نمو حركة النهضة فى إيطاليا، ما تمتعت به الأخيرة من هدوء وسلام نسبيين إبان النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى حتى الغزو الفرنسى على يد شارل الثامن فى سنة ١٤٩٤م، وهذا الهدو النسبى ساعد على نمو حركة النهضة فى جو بعيد عن الإضطراب(٢). ومن الأسباب التى أدت إلى ازدهار شأن النهضة الإيطالية، أنها وجدت لها أنصاراً أقوياء يقدمون لرجالها المال الوفير مثل أسرة ميديتشى فى فلورنسه والبابوات فى روما، وكذلك الحال فى ميلانو والبندقية التى بلغت ذروة عظمتها الثقافية فى أواخر السادس عشر.

---

(١) محمد فؤاد شكرى، محمد أنيس: أوربا فى العصور الحديثة، جـ١ (القاهرة ١٩٦٦)، ص ١٩.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

وفى عام ١٨٧٩ أصدر أميل جبهارات وهو كاتب مقالة ممتازة ومؤرخ مبدع للثقافة كتابه «أصول عصر النهضة فى إيطاليا» وقال عن طبيعة «عصر النهضة»: «لم تكن النهضة فى إيطاليا فحسب تجديداً للأدب والفنون ناتجا عن عودة العقول المثقفة إلى الأدب الكلاسيكى إحياء وانتهالا، وعن تهيئة السبل لتدريب أفضل للفنانين الذين عادوا إلى استكشاف ما بالمدرسة اليونانية من إحساس بالجمال، وإنما هى جماع الحصيلة المركبة للحضارة الإيطالية، هى التعبير الصحيح لعبقرية إيطاليا وحياتها الخلقية»(١).

كتابة التاريخ فى عصر النهضة:

صار متفقا عليه أن يطلق إسم «الحركة الإنسانية» على الجانب الأدبى من حركة النهضة، وليس معنى ذلك إحياء الاهتمام بالأدب القديم فحسب، بل أيضا تذوق ما فى الأدب الوثنى من اهتمامات إنسانيةعريضة ونظرة علمانية إلى الحياة. وبعبارة أخرى جاءت الحركة الإنسانية رد فعل عاطفى وشعرى للاتجاهات الروحانية المتزمتة التى تمسك بها علماء اللاهوت، دون أن تكون ثورة حقيقية أو ملموسة على اللاهوت نفسه أو الفلسفة الاجتماعية(٢).

ولقدجاء تأثير الحركة الإنسانية على الكتابة التاريخية متمشياً تماماً مع المظاهر الرئيسية لتلك الحركة بوجه عام. فهذه الحركة بالنسبة للتاريخ كانت تعنى البحث عن النصوص القديمة ثم مقارنة ونقد وتصحيح ما تم الوقوف عليه منها. وقد كان للحركة الإنسانية أثر هائل

---

(١) هويزنجا (يوهان): أعلام وأفكار: نظرات فى التاريخ الثقافى، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، مراجعة د. زكى نجيب محمود (القاهرة ١٩٧٢)، ص ٣٠٥.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١، ص ١٤٥.

فى تضاؤل عنصر المعجزات والكرامات فى عملية تفسير أحداث التاريخ، ومع ذلك لاينبغى أن نتصورأن الغالبية العظمى من الإنسانيين كانوا من الخارجين على الدين أو المتشككين فى الديانة المسيحية، وإنما الغالب أنهم تجاهلوا ولم ينكروا مزاعم اللاهوت والجدل الدينى. وهناك حقيقة هامة هى أنه لأول مرة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب الأوربى سنة ٤٧٦م، صار معظم المؤرخين البارزين من العلمانيين وعامة الناس بعد أن كانوا من رجال الكنيسة واللاهوت(١).

وعلى أية حال، لم يحظ علم بالازدهار فى حركةالنهضة الإيطالية بقدر ماحظى التاريخ. فلم تعد الفكرة التى تجعل التاريخ يعتمد على السماع والرواية مقبولة، وحل محلها دراسة التاريخ على أساس المادة العلمية الموثوق بها، الأمر الذى أدى إلى ظهور مدرسة فى النقد التاريخى كان من أبرزها لورنزو فالا (١٤٠٦ - ١٤٥٧)Lorenzo Valla ، فقد تصدى فى سنة ١٤٤٠ للرواية التاريخية التى تحمل إسم «هبة قنسطنطين»، وتتلخص فى أن الإمبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧) قد عهد للبابوات بحكم روما وإيطاليا كلها، ولكن لورنزو برهن على أن هذه الوثيقة زائفة. وكان البابا فى ذلك الوقت هو نيقولا الخامس، فأعجب ببحث لورنزو وعينه موظفا فى الحكومة البابوية، ويعتبر ذلك الحادث نقطة تحول فى موقف البابوية من الحركة الإنسانية، إذا أضحت البابوية من ذلك الوقت وحتى ظهور حركة الإصلاح الدينى - باستثناء فترات قصيرة - نصيرة الدراسات الإنسانية(٢).

وتكونت مدرسة تاريخية فى إيطاليا لها طابعها المميز والتى تعتبر

---

(١) نفس المرجع، جـ١ ص ١٤٦.

(٢) محمد فؤاد شكرى، محمد زنيس: أوربا فى العصور الحديثة، جـ١ ص ٣٥. وأنظر ص٢٣٥ - ٢٣٦.

كتاباتها بداية للكتابة التاريخية الحديثة ذات الطابع السياسى والقومى. وكان من أعلام هذه المدرسة المؤرخان الفلورنسيان البارزان نيقولا مكيافيللى (١٤٦٨ ـ ١٥٢٧) Machiavelli ، وفرانسسكوجويتشارديني (١٤٨٣ ـ ١٥٤٠) Guiccardini.

ولدنيقولا ميكافيللى بمدينة فلورنسه عام ١٤٦٩ من أسرة نبيلة، واهتم منذنعومة أظفاره بالأمور السياسية وساهم فيها بنصيب كبير، فقد انتظم فى السلك السياسى فى سن مبكرة، وشاهد ما آل إليه أمر إيطاليا، فقد انقسمت إلى مدن مستقلة تشبه مدن الولايات الإغريقية. وكانت هذه المدن الإيطالية متنابذة وفى حروب مستمرة، وتستبيح فى خصوماتها كل ألوان الدسيسة والغدر، فتأثر مكيافيللى بهذه الأمور وما إليها[1]. وعلى أثر الغزو الفرنسى لفلورنسه فى عام ١٤٩٤، عين مستشاراً وسكرتيراً فى «الجمهورية الفلورنسية»، واستمر فى هذا المنصب حتى عام ١٥١٢، وسافر فى بعثات إلى الإمارات الإيطالية المختلفة فى إيطاليا وإلى بلاط فرنسا، وهذه البعثات هى المدرسة التى كون فيها مكيافيللى خبرته السياسية، غير أنه حوّل هذه الخبرة الذاتية والمشاهدة الخاصة إلى دراسة تاريخية عامة، بل لم يقتصر على دراسة القرن الذى عاش فيه، إنما شملت دراسته تاريخ الإنسان عامة فى عصوره المختلفة[2].

والحق أن مكيافيللى أوتى من نفاذ البصيرة بالعوامل التاريخية المستمرة التى تحرك التطورات السياسية ما لم يتوافر لأى مؤرخ آخر من المدرسة الإنسانية حتى عهده. ذلك أنه تحمس للفكرة المثالية الخاصة بتحقيق الوحدة الإيطالية وقيام دولة إيطالية متحدة، ووقف موقفا معادياً من البابوية التى اعتبرها عقبة كئودا فى طريق الوحدة الإيطالية[3].

---

(١) مصطفى الخشاب: تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية، ص ٢٨٨.
(٢) فؤاد شكرى، محمدأنيس: أوربا فى العصور الحديثة، جـ١ ص ٣٦.
(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

وتمثلت أفكار مكيافيللي في عدة نظريات سياسية ودينية، وحول الحرية والحكومة، وكان يرى أن الرجوع إلى التاريخ هو أفضل طرق البحث العلمي، وأن دراسة الماضي هي الدعامة التي يرتكز عليها الباحث في الوصول إلى هدفه، فهو إذاً من أصحاب النظرية القائلة بأن التاريخ هو المدرسة الحقة لدراسة النظريات السياسية، ومن المفكرين السياسيين القلائل الذين أدركوا العلاقة الوثيقة التي تربط التاريخ بالبحث السياسي(١).

ومن أهم أعمال مكيافيللي كتابه «الأمير» الذي كتبه عام ١٥١٣، وأهداه إلى الأمير لورنزو دي ميديتشي، وختمه بنداء حار أهاب فيه بهذا الأمير أن يأخذ على عاتقه مهمة إنقاذ إيطاليا من البرابرة ومن النفوذ الأجنبي(٢). وفي هذا الكتاب يرى ميكافيللي أنه لاينبغي أن يكون للحاكم من غاية سوى الحرب فهي الحرفة الوحيدة لمن يحكم، إنها تحفظ الملك لمن ولد ملكا، وترفع إلى مرتبة الملوك من ليس ملكا، والحاكم الذي يفكر في رفاهية شعبه أكثر من التفكير في الحرب يفقد ملكه، والذي يخاف الحرب يحتقره الناس، فلا يستوي المسلحون وغير المسلحين، ولا الذين يحاربون والذين لايحاربون، ولن يخضع مسلح لأعزل، كما لن يعيش آمنا أعزل بين قوم مسلحين، فالمسلح دائما سيد الموقف بينما الأعزل خائف، وعلى الحكام أن يدرسوا دائماً سير الأبطال والمحاربين وبناة الدول والعظماء، وأن يتعرفوا على أسباب النصر والهزيمة(٣). ومن المعروف أن ميكافيللي يرى أن الغاية تبرر الوسيلة، ومن ثم فإنه ينبغي المحافظة على الدولة بأي ثمن، وأيةمسائل تعد مشروعة، والحاكم من

---

(١) مصطفى الخشاب: المرجع السابق، ص ٢٩٠.
(٢)مصطفى الخشاب: تاريخ الفلسفة والنظريات الساسية، ص ٢٩٨.
(٣) أحمد صبحي: في فلسفة التاريخ، ص ٩٧.

أجل الاحتفاظ بالسلطة فى الدولة مضطر أن يتصرف بدون رحمة وبغير إخلاص، وإن يتجرد من الإنسانية بل من تعاليم الدين، فكل شىء مشروع بالنسبة لأخلاق الدولة، لأن كسب السلطة أو الاحتفاظ بها هو الهدف[1]. وجاءت مواصفات «الأمير» - كما ذكرها ميكافيلى - بأنه ليس حاكما مشرعا ولكنه رجل حرب وسياسة، رجل قوة ومكر، ولابد أن يتقن أساليب الغدر والخيانة، ولايخشى فى هذا الصدد مبادىء الدين أو الفضائل الإنسانية، أو قواعد العرف والتقاليد، إن الحكم لايريد إلا رجلا متلونا ملتويا، يداهن ويحسن أساليب النفاق والخداع، ويغرر ويرسم الخطط، يظهر الاستقامة والتعاطف والتراحم أمام الناس وهو فى دخيلة نفسه يحيك الدسائس، وينكل بمن يقف فى سبيله، والحاكم الذى لايريد أن يسير هذه السيرة ويهمل اللجوء إلى هذه الأساليب، عليه أن يبتعد عن الحكم ومظاهره، ويحيا حياة خاصة[2].

وفى أوائل القرن السابع عشر كانت أعمال فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) حربا على وجهة النظر المسيحية، وإن لم يقصد ذلك قصداً شعوريا. ومع ذلك، فإنه قام باتخاذ الخطوات الرئيسية لتجاوز «الحركة الإنسانية الإيطالية» فى إشارته إلى المستقبل. وقد كتب بيكون كتابا فى تاريخ ملك إنجلترا هنرى السابع سنة ١٦٢٢ وترك جذاذات من مشروع كتاب فى التاريخ العام لإنجلترا. ولكن بيكون وإن لم يمنح أهمية كبيرة كمؤرخ، إلا أن عمله كانت له آثار هامة ودائمةفى التاريخ الواقعى. فقد كان له بصورة غير مباشرة أثر قوى فى «علم التاريخ» يتمثل فى إصراره على فحص الحقائق والبحث فى العلاقات العلية (أى السببية). وقد نادى بدعوة الناس إلى التحول عما غلب عليهم من انشغال بأفكار الماضى إلى

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٢) مصطفى الخشاب: المرجع السابق، ص ٢٩٢.

بحث الحقائق والأشياء المادية والعقول وطرائقها. وقد خصص شطراً كبيراً من كتابه «تقدم العلوم» لوصف ما يعوق نمو المعرفة من عوائق، كما أنه في كتابه «العمل الجديد» اقترح استخدام مناهج الدراسة العلمية(١). ولم تقم أهمية بيكون بصفة خاصة فى تلك المناهج، ولكن فى إيقاظه الناس إلى الانشغال «بالطبيعة»، وبذلك دفع الناس إلى نطاق تاريخ واقعى أرحب، وإلى تصورات عن ذلك التاريخ تختلف عما ألفوه من التصورات المسيحية فى العصر الوسطى. وقد توقع بيكون التقدم فى التاريخ، ولكنه لم يتوقعه شيئا لا مفر منه، إذ قدم الأسباب المؤدية إلى وجود «أمل» معقول فى ظهور ذلك التقدم. ولاشك أن ما ظهر فى غضون القرون الثلاثة الأخيرة من ضروب التقدم فى إحراز القيم العلمانية وتقديرها يمكن اعتبارها راجعاً إلى حد كبير إلى الاتجاهات التى أثارها بيكون(٢).

حركة الاستنارة أو التنوير فى القرن الثامن عشر:

يقصد بكلمة الاستنارة Enlightnment تلك الجهود التى اتسمت بها مقدمات القرن الثامن عشر، التى استهدفت تطبيق الثقافة العلمانية فى كل ميدان من ميادين الحياة الإنسانية والتفكير، ولم تكن هذه الحركة ثورة ضد سلطان الديانة النظامية فحسب، ولكن ضد الدين كيفما كان(٣). وقد أخذت حركة الاستنارة فى الانتشار فى أوربا وبين طبقات المجتمع بطرق متعددة كان من أهمها الأكاديميات العلمية التى أنشئت تحت رعاية الحكومات لتبادل وجهات النظر بين العلماء ولنشر أبحاثهم، ومن أوائل وأشهر الأكاديميات الأوربية الأكاديمية الملكية الفرنسية فى عام ١٦٦٦م، وعمد أصحاب حركة الاستنارة بين المفكرين والعلماء إلى

---

(١) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ٢ص ١٥ ـ ١٦.
(٢) المرجع السابق، جـ٢ ص ١٦ ـ ١٧.
(٣) كولنجوود: فكرة التاريخ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

فحص كل النظم الموروثة السياسية والثقافية والاقتصادية والكنسية فى ضوء العقل والمنفعة(١). والاهتمام بالتاريخ فى القرن الثامن عشر مظهر من مظاهر الاهتمام بالإنسان، لابمجرد الإنسان الماضى، بل لأن دراسة الماضى تزيدنا خبرة وتجربة بالحاضر، فضلا عما فى دراسة التاريخ من إشباع النزعة العقلية فى إصدار أحكام متحررة عن آراء الكنيسة ورجال السياسة، ومن ثم فإنه يقال أن ما كتب فى قرن يفوق ما كتب فى التاريخ فى القرون السابقة عليه. على أن الأمر لايتعلق بالكم فحسب، بل إن تغييراً جذرياً قد حدث بالفعل فى التاريخ، فلم يصبح مجرد سرد لأحداث المعارك وسير الملوك وأخبار البلاط، وإنما شمل التاريخ شتى مظاهر النشاط الإنسانى ممثلا فى الجوانب المختلفة للحضارة من عادات ومعتقدات وتشريع وعلم وفلسفة وفن وتكنولوجيا وتجارة وصناعة، وفى ذلك يقول فولتير: «لو سئلت أى هؤلاء أعظم: الإسكندر الأكبر أم يوليوس قيصر أم تيمور لنك أم كرومويل؟ لأجبت: إن إسحق نيوتن هو أعظمهم جميعا»(٢).

ويعتبر فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) مؤسس المدرسة العقلانية فى علم التاريخ لإيمانه العميق بالعلم والعقل. كان فولتير فرنسيا، بدأ حياته برغبة أدبية لكسب الشهرة كمؤلف للملحمة والدراما، وفى سن الثلاثين، وبسبب حبسه فى سجن الباستيل، طرأ تغيير روحى جعل من فولتير رجلا جديدا، فأخذ يهتم اهتماماً بالغاً بدراسة المجتمع المعاصر، وراعه الظلم والقسوة والسخرية التى تنتاب كل جوانب الحياة فى المجتمع الذى عاش فيه، ثم قاده هذا إلى دراسة تاريخ المجتمعات البشرية ليرى إن كان الانسان فى

---

(١) فؤاد شكرى، محمد أنيس: أوربا فى العصور الحديثة، جـ١ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١.

(٢) أحمد صبحى: فى فلسفة التاريخ، ص ٨٢ ـ ٨٣.

الأزمنة السابقة وفى البلاد الأخرى أكثر سعادة منه فى المجتمع الذى عاش فيه فولتير، ولقد أثمرت دراسة فولتير، إذ أخرجت التاريخ عن كونه سرد للحوادث والأسر المالكة إلى حقائق اجتماعية وثقافية(١).

ويعد إنتاج فولتير الأدبى أكبر إنتاج فى تاريخ الإنسانية، فقد شغل طوال حياته بكتابة المقالات والقصص والأبحاث والرسائل (بلغ عدد رسائله وحدها عشرة آلاف)(٢). أما أروع أعمال فولتير التاريخية فهو كتابه الذى صدر سنة ١٧٥١م بعنوان: «عصر الملك لويس الرابع عشر»، ويصف البعض هذا الكتاب بأنه «أول كتاب تاريخى بالمعنى الحديث»، ففى هذا الكتاب نجد فولتير قد تخلى نهائيا عن طريقة الكتابة على منهج الحوليات، أو حتى الالتزام بتتابع زمنى معين، بل نظم كتابه تنظيماً موضوعيا، أما كتابه «مقالة فى سلوك الأمم وروحها» الذى صدر فى عام ١٧٥٦م، فهو لايقل أهمية عن الكتاب السابق، ذلك أنه يعتبر أول تاريخ عالمى بالمعنى الحقيقى للعبارة، ووضعت خطته على أساس أن يكون تاريخا شاملاً لثقافة كل العصور وكل الشعوب. كما يعتبر هذا الكتاب أهم العلامات على طريق تطور الكتابة التاريخية، وأساس تاريخ الحضارة بمعناه الحديث، فضلا عن أنه أول عمل ينصف غير المسيحيين وخاصة الشرقيين والمسلمين، ويقر بدورهم الذى أسهموا به فى تطور الحضارة الأوربية(٣).

ويرجع الفضل إلى فولتير فى أنه أول من استخدم مصطلح «فلسفة التاريخ»، وقد قصد به رفض التاريخ الملىء بالخرافات وكتابة الحوليات،

---

(١) فؤاد شكرى، محمد أنيس: أوربا فى العصور الحديثة، جـ١ ص٣٣١، أرنست كاسيرر: فى المعرفة التاريخية، ص ٦٨.

(٢) فؤاد شكرى، محمد أنيس: نفس المرجع والجزء والصفحة.

(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ٢١٧.

وتنقيح التاريخ من المبالغات، وتخليصه من الأساطير[١]. ولذلك نجده يرفض الأخذ بفكرةالعناية الإلهية التى كانت تدور حولها تفسيرات التاريخ فى العصور الوسطى من البحث فى طبيعة المسيح وشخصه وما إلى ذلك. وهو خصم صريح للكنيسة الكاثوليكية، ولكنه يؤمن بالله على طريقة الدين الطبيعى، لأن الديانات التاريخية فى رأيه ليست إلا صيغا خرافية للدين الطبيعى، فقد منح الله الناس العقل الشامل، ولابد أن ينوطوا به إيمانهم. وهكذا أخذ فولتير نفسه بنمط فلسفى من مذاهب الألوهية يعادى المسيحية من جهة، ويعادى الإلحاد من جهة أخرى فى وقت واحد، فهو معتنق للألوهية ومعاد للوحى الخارق للطبيعة، ومعارض فى الوقت نفسه لأية محاولة ترد معتقاته إلى نزعة ملحدة[٢].

وكان العالم دافيد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦) من أقطاب المدرسة العقلانية فى القرن الثامن عشر. وقد اعتبر هيوم التاريخ سجلا لأفكار البشر من الناحيتين الثقافية والأخلاقية، ولكنه آثر فى الوقت نفسه أن يكتب تاريخا سياسيا، ولذلك سارت كتاباته على نهج ثابت يستهدف إبراز الحقيقة الخاصة بأن الأفكار والدين هى التى تشكل السياسة، ولم تكن لديه الرغبة فى تهيئة أذهان الناس للثورة، إذ استهدف من كتاباته أن تكون شيقة وممتعة وذات قيمة ثقافية فقط. وكان عداؤه للخرافات والأساطير وتزمت المسيحية مبعث احتقاره للعصور الوسطى التى اعتبرها ألف سنة من الركود والفراغ الثقافى أو منخفض هائل فى الخط البيانى للتقدم البشرى[٣].

---

(١) Stern, The Varieties of History, p. 35;
أحمد صبحى: فى فلسفة التاريخ، ص ١٢٣.

(٢) ويدجرى: التريخ وكيف يفسرونه، جـ٢ ص ٣٢ ـ ٣٣، عفت الشرقاوى: أدب التاريخ عند العرب، جـ١ ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ٢١٩.

أما مونتسكيو (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥)Montesquieu ، فقد أطلق البعض عليه إسم مؤسس فلسفة التاريخ، كما سماه آخرون باسم رائد المنهج العلمى فى التاريخ[١]. وقد وجد مونتسكيو فى دراسة التاريخ خير سند له فى دراساته الأخلاقية والقانونية والاقتصادية، ووجد أنه لكى يدرس القوانين والظواهر الاجتماعية دراسة علمية صحيحة، لابد أن يلجأ لتاريخ الأمم والمجتمعات، فيدرس فيها هذه الظواهر وتطورها والأسباب أو العلل التى تخضع لها، ومن هنا يستطيع أن يستنتج القواعدوالمبادىء التى تخضع لها الظواهر الاجتماعية[٢].

وفى كتابه «روح القوانين» الذى نشره بمدينة جنيف عام ١٧٤٨ عرض مونتسكيو للعوامل التى تحدد نظام الحكم فى مجتمع ما بعد أن قسم أنظمة الحكم إلى استبدادية أو أرستقراطية وديمقراطية، وقد حمل مونتسكيو حملة شعواء على الحكومات الاستبداية واعتبرها حكومات قد تجردت من الشرف والفضيلة[٣]. ويحدد مونتسكيو العوامل التى تشكل شخصية الأمم المختلفة وحضارتها، فيردها إلى عوامل طبيعية أو معنوية. أما العوامل الطبيعية فهى عوامل جغرافية، بمعنى أن الناس فى مختلف الأقاليم يختلفون تبعا لعوامل المناخ وطبيعة الأرض والموقع، ذلك أن للمناخ أثراً على كل أجزاء الجسم الإنسانى، ومن ثم يتشكل مزاج الإنسان وأخلاقه وعاداته، فحيوية الناس فى المناطق الباردة غيرها فى المناطق الحارة. أما العوامل المعنوية التى تشكل بدورها قوانين الدولة ونظام الحكومة فأهمها المسائل الاقتصادية وأمور الدين، أما المسائل الاقتصادية فيعرض مونتسكيو لأنظمة التجارة والضرائب فى بعض المجتمعات

---

(١) المرجع السابق، جـ٢ ص ٣١.

(٢) رأفت الشيخ: فى فلسفة التاريخ، ص ١٢٢.

(٣) أحمد صبحى: فى فلسفة التاريخ، ص ٨٤.

القديمة خصوصا الإمبراطورية الرومانية،و انعكاس ذلك على عدد السكان وحركتهم ونموهم أو تدهورهم، أما بالنسبة للدين فيرى مونتسكيو أن الإسلام أكثر ملاءمة لشعوب الشرق، بينما المسيحية تناسب الأوربيين لأسباب جغرافية من جهة، ومتعلقة بشكل الحكومة من جهة أخرى(١).

والواقع أنه لايمكن بطبيعة الحال إنكار الصلة القائمة بين الحضارة والظروف الطبيعية مثل المناخ والأحوال الجغرافية الأخرى، التى تنشأ بين حضارة ما، ولكن الذى يحدد شخصية تلك الحضارة ليست عوامل الطبيعة فى حد ذاتها، وإنما هو الإنسان الذى فى استطاعته أن يتمرد ضد الظروف الطبيعية ويتحداها بل ويسخرها، وهذا يعتمد على نوعية ذلك الإنسان(٢).

وينتمى جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٩) إلى عصر الاستنارة، وهو فرنسي من مدينة جنيف، وكان يكره جميع القيود من أى نوع، ويجد السعادة الكبرى فى الإنطلاق الحر لانفعالاته. ويرى روسو أن الإنسان يولد طيبا بطبعه، حراً، وأن التنظيم الاجتماعى قد وضع الأغلال فى يديه، وأن قدرة الإنسان على حرية الاختيار وقدرته على بلوغ الكمال بنفسه، هما الخلتان اللتان تميزانه قطعا عما دون الإنسان من حيوانات، وإذا كان عليه أن يحتفظ بمكانته الحقة كإنسان، فلابد له من الاحتفاظ بتلك الحرية. وقد سلم روسو بأن الناس بينهم «تفاوت طبيعى»، ولكن هذا التفاوت غير بالغ الضخامة، ولا هو من بالغ النفوذ ما يدعى له كثيراً(٣). ويعتبر كتاب روسو «العقد الاجتماعى» Contract Sociale أبعد مؤلفاته شهرة وأكثرها انتشارا، وقد خلع عليه مؤرخو الفلسفة إسم «إنجيل الثورة

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٥ ـ ٨٦.

(٢) إسحق عبيد: معرفة الماضى، ص ٥٤.

(٣) ويجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ٢ ص ٣٥.

الفرنسية»، وسماه آخرن «دستور الثورة»، وذلك لما يتضمنه من آراء واتجاهات سياسية ساعدت على انفجار مراجل الثورة الفرنسية التى كانت تغلى فى قلوب المجتمع الفرنسى[1].

أما أبرز الكتاب بين مؤرخى المدرسة العقلانية فهو المؤرخ والكاتب إدوارد جيبون (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤) Edward Gibbon. ومن المعروف أن جيبون قد أصدر بين عامى ١٧٧٦ و١٧٨٨ كتابه الشهير «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقطوها». واختلفت الآراء اختلافا بالغا حول جيبون، فمن الناس من اعتبره أعظم المؤرخين الإنجليز. ومن حسن الحظ أنه كان رجلا بليغاً فخم العبارة، وقد نجح إلى حد كبير فى أن يضع قارئه فى العصر الذى يتحدث عنه، حتى أنك لتسمع وأنت تقرأ وصف خروج جيش قيصر من روما للحرب، وقعقعة العجلات، وصلصلة السيوف، وصهيل الخيل. ويلاحظ أن كتاب جيبون لايتميز بفلسفة خاصة للتاريخ، بل إن الدقة والاستفادة الكاملة من المراجع تنقصه فى أحيان كثيرة، ولكنه كان أول غربى كتب فى العصر الحديث دراسة تاريخية لدولة كبرى وهى الإمبراطورية الرومانية، قص فيها تاريخها كاملا، وكان إقبال الناس على هذا الكتاب وتقديرهم إياه كافيا لرفع قدر التاريخ إلى مستوى أهم فروع العلم وأجدرها بالعناية[2]. ويقول الأستاذ بارنز[3]: «ومع أن جيبون كان أقل ابتكاراً وتأثيرا من فولتير على مجرى الكتابة التاريخية فى العصور التالية، إلا أن شهرته بين جماهير المثقفين ـ غير المؤرخين المحترفين ـ فاقت شهرة فولتير، ويرجع ذلك إلى أن موضوع بحثه الخاص بانهيار الحضارة الرومانية كان مقصوداً به أن يأخذ بألباب

---

(١) رأفت الشيخ: فى فلسفة التاريخ، ص ١٢٧.
(٢) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٧١ ـ ٧٢.
(٣) تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ٢٢٣.

الجماهير، ولهذا فإن كتابته عن هذا الموضوع أخذت شكل الملاحم. ثم إن جيبون نظم عمله بطريقة فذة، وكان أسلوبه رفيعاً ومؤثراً يدخل البهجة على نفس قارئه، فضلا عن أن عمله تميز بدقة متناهية، وهو أمر مدهش بالنسبة لعصر جيبون. ولقد ظل كتابه «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» مرجعا يهتدى به ومصدراً لايرقى إليه الشك طوال قرن ونصف. وعلى هذا فإن هذا الكتاب لم يكن كتاباً رائجاً مشهوراً فحسب بل وعملا خالدا».

ويرى جيبون أن الديانة المسيحية كانت من أهم عوامل سقوط الإمبراطورية الرومانية، لأنها - على حد قوله - قد قضت على العبادات القديمة التى كانت الدعامة الخلقية للرومان، كما أنها ناصبت الثقافة القديمة العداء، فحاربت العلم والفلسفة والأدب والفن، وأتت بالتصوف الشرقى الواهن بدلا من الفلسفة الرواقية التى كانت متغلغلة بواقعيتها فى الحياة الرومانية، وحولت أفكار الرومان عن واجباتهم، وأغرتهم بالجرى وراء النجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة، وشجعت أتباعها على الامتناع عن أداء الخدمة العسكرية، وبهذا كله كان انتصار المسيحية إيذانا بالقضاء على روما[1].

وعلى أية حال، فقد تغيرت الأوضاع فى القرن التاسع عشر الميلادى وخاصة النصف الأخير منه الذى اتصف بأنه عصر الكتابات التاريخية المرموقة ذات النظرة الدنيوية السليمة، بعد أن ضعف الاهتمام بمسائل الغيبيات والقوى الخارقة للطبيعة والأساطير. ولاشك أن اكتشافات العلم الحديث والنقد الموجه إلى المعتقدات الدينية القديمة قد أضعف من شأنها. ولم تعد الأفكار التى سيطرت على فكر المؤرخ التقليدى وهى اهتمامه

(١) أنظر محمود الحويرى: رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ١٨٢ - ١٨٤.



الفصل الخامس

كتابة التاريخ عند المسلمين

المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام
التدوين التاريخى عند المسلمين
ابن خلدون وكتابة التاريخ

المعرفة التاريخية عند العرب قبل الإسلام:

كان لعرب الشمال قبل ظهور الاسلام نصيبهم من الأخبار التاريخية التى تختلط فيها الحقائق والأساطير اختلاطا يجعل التمييز بينهما من الأمور الصعبة لعدم وجود مدونات يرجع إليها عند المقابلة والتمحيص، والموازنة والتحقيق، وكان أكثر هذه الأخبار يدور حول ما يسمى «أيام العرب» . وقد سميت بذلك الإسم لأن العرب كانوا يتحاربون نهاراً، فإذا أتى عليهم الليل أوقفوا القتال حتى الصباح. وتدور مادة «أيام العرب» حول الحروب والوقائع العظيمة والمعارك التى وقعت بين القبائل العربية كحرب البسوس وداحس والغبراء وذى قار وغيرها. ومما يميز «أيام العرب» هو استشهادها بالشعر الذى يعتبر سنداً للأخبار المروية، ولكن يؤخذ عليها أنها معلومات متفرقة لم تكن تعدو قصصاً خرافية تخلو من الصفة التاريخية، ويعوزها الربط والحبكة التاريخية، وينقصها التاريخ الثابت المعين، بالإضافة إلى أنها لاتخلو من التعصب والتحيز لبعض القبائل.

وعلى الرغم من المسحة الخيالية والأسطورية لأيام العرب، فلاشك فى أنها قد نسجت حول نواة من الأحداث التاريخية الحقيقية، بحيث يمكن الاعتماد عليها باعتبارها مصدراً هاماً من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام، بل إنها سبيل لفهم ما وقع بين العرب قبل الإسلام من حروب شجرت بين القبائل، ووقائع كانت بين البطون والأفخاذ والقبائل، كما كان لها تأثير فى نشأة علم التاريخ بعد الإسلام[1].

والواقع أنه إذا أجهدنا أنفسنا باحثين عن أى نوع من الكتابة التاريخية فى العصر الجاهلى، لم نكد نظفر بشىء، حتى البلدان

---

(١) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص ٧٠ ـ ٧١.

المتحضرة التى كما نظن أنها تحرص على تسجيل حياتها وحضارها، مثل اليمن والحيرة وغسان، لم يصل إلينا منها كتب تاريخية أيضا. وكان تاريخها منسيا لدى العرب، سكانها أو غير سكانها، ولذلك دخلت عليهم الأباطيل والخرافات عندما أرادوا الكتابة عنها بعد ظهور الإسلام، وطاف بهم الخيال، حتى أننا لم نستطيع أن نتثبت من حقيقة ما يقولون، أو نركن إليه، على الرغم من النقوش الموجودة حتى اليوم على الآثار الباقية فى اليمن وشمال بلاد الحجاز وجنوبى الشام، مما يدل على جهل المؤرخين العرب بالخط الحميرى والخطوط الأخرى فى بلاد العرب القديمة. والشيء الوحيد الذى نسمع عنه هو تلك المدونات التاريخية المودعةفى أديرة الحيرة وكنائسها، وإن كنا لانعرف عنها شيئا فيما عدا ذلك(١).

ولم تكن الكتابة فى العصر الجاهلى واسعة الانتشار، ولكنها مع ذلك لم تكن مجهولة ما، بل كانت شائعة الاستعمال فى كتابة العهود والمواثيق والصكوك والرسائل، ولكن العقلية الجاهلية كانت أقدر على قرض الشعر منها على معالجة كتابة التاريخ، كانت عقلية شديدة التعصب للقبيلة، نزاعة إلى الأسطورة والخرافة، قليلة الصبر على المراجعة والتحقيق، متشبعة بروح عصرها وتقاليدها، ومثل هذه الحالة لاتعوق قرض الشعر، بل قد تكون من بواعث التشجيع على نظمه، لأن فيها ما يحفز الخيال ويثير العاطفة، ولكنها عقبة فى طريق النضج الذى تستلزمه الكتابة التاريخية(٢).

ولما كان عرب الشمال شديدى العناية بأنسابهم، كثيرى الفخر والاعتزاز بآثار أسلافهم، فقد حفظت الأنساب عنصراً أساسياً من كيان

---

(١) حسين نصار: نشأة التدوين التاريخى عند العرب (القاهرة بدون تاريخ، ص ٥.

(٢) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٤٥.

المجتمع القبلى باعتبارها مادة تاريخية من الدرجة الأولى تفيد فى الحفاظ على مقومات هذا المجتمع. وظلت الأنساب باعتبارها نمطاً من أنماط المعرفة التاريخية تؤدى دورها بعد الإسلام فى خدمة المجتمع العربى(١). وقد تطورت الأنساب فى صدر الإسلام، حيث جرى تكريس النسب لخدمة الأهداف السياسية، بل إن الاهتمام بالأنساب صار من مشاغل الحكومة التى استخدمت الأنساب فى عدد من النواحى الإدارية، حيث تم تنظيم العمل فى ديوان العطاء، واختطاط المدن وسكانها على أساس النسب، كما لعبت الأنساب دوراً أساسياً فى الشئون العسكرية إبان حركة الفتوحات العربية. ومن المعروف أن كثير من الناس فى عصور الثقافة العربية كانوا ينتحلون نسباً يصلهم بالنبى ﷺ، أو آل البيت، أو لقريش على الأقل(٢). وعلى أية حال، اهتم العرب فى العصر الجاهلى بالاحتفاظ بأنسابهم وشجرات أنسابهم. ولما جاء الإسلام بمبدأ «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» خبا هذا الحماس لفترة محدودة فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين، ثم أخذ فى الظهور فى عصر الدولة الأموية لاعتبارات سياسية.

استمر تداول «أيام العرب» شفاهاً إلى أن بدىء فى تدوينها فى العصر الأموى. ومن المؤرخين العرب الذين اشتغلوا برواية أخبار العرب قبل الإسلام عبيد بن شرية الجرهمى اليمنى (المتوفى عام ٧٠هـ تقريبا)، ووهب بن منبه (ت ١١٠هـ)، ومحمد بن السائب الكلبى (ت ١٤٦هـ)، وابنه هشام الكلبى (ت ٢٠٤هـ)، وأبى مخنف الأزدى (ت ١٥٧هـ)، وسيف بن عمر الكوفى الأسدى (ت ١٧٠هـ)، والمدائنى (ت ٢٢٥هـ)، والزبير بن بكار (ت ٢٥٩هـ).

---

(١) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص ٦٧ - ٦٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٨.

وكان عبيد بن شرية الجرهمي اليمني قصاصاً أخبارياً، اتخذه معاوية ابن أبي سفيان سميراً ومحدثا يروي طرائف الأخبار المتقدمة وغرائب الأحاديث والسير، وقد دونت أحاديثه في كتاب عنوانه «كتاب الملوك وأخبار الماضين»[1]. ويتناول عبيد في هذا الكتاب تاريخ موطنه اليمن، بادئا باجتماع البشر في بابل، ثم تفرقهم شيعا، وخروج بعض بني سام إلى اليمن، ثم يأخذ في سرد تاريخ هؤلاء اليمنيين، معتنيا بمن أرسل إليهم من أنبياء. وكتاب عبيد ذو أهمية كبيرة، لا في تطور حركة التأليف فحسب، وإنما لأنه يكشف النقاب عن الثقافات التي كان يعرفها العرب في الصدر الأول من الإسلام، وربما التي كان يعرفها العرب في الجاهلية وخاصة في اليمن، وتظهر الثقافة الإسرائيلية بارزة في الكتاب كله[2].

أما وهب بن منبه، فقد كان يمنيا من أهل ذمار بجوار صنعاء عاصمة اليمن، وقيل إنه كان يهودياً وأسلم، وينسبون إليه معظم الإسرائيليات الواردة في المصادر العربية، وقد ركز وهب بن منبه على أخبار اليمن في الجاهلية. ومن الكتب المنسوبة إليه كتاب «الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم»، ولسوء الحظ لم يصل إلينا هذا الكتاب. ويغلب على أخبار وهب طابع القصص الشعبي الخرافي، وقد حمل ذلك المؤرخ هاملتون جب إلى القول بأن كتابي وهب بن منبه وعبيد بن شرية يمداننا ببرهان ساطع على أن العرب الأول كانوا يفتقرون إلى الحس والمنظور التاريخيين، حتى عندما يتطرقان إلى ذكر أحداث تكاد تكون معاصرة لهما[3].

---

(١) علي أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٤٩.

(٢) حسين نصار: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي (القاهرة ١٩٥٤)، ص ١٨١ - ١٨٧.

(٣) السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب (الإسكندرية ١٩٨٧)، ص ٤٦-٤٧؛ علي أدهم: بعض مؤرخي الإسلام، ص ٩ - ١٠.

أما هشام بن محمد بن السائب الكلبى، فقد كان أبوه محمد بن السائب الكلبى (ت ١٤٦هـ) غزير العلم بالأنساب واللغة والتاريخ، وخلفه إبنه فى علم الأنساب، فتتبع دراسات أبيه فى الأنساب وتقدم بها. وكتب هشام فى أخبار الأوائل، وفيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية، وفى أخبار الشعراء وأيام العرب والأخبار والأشعار. ويعتبر ابن هشام من أعظم الإخباريين فى تاريخ العرب فى الجاهلية، وكان يعتمد على الأصول والمصادر التاريخية التى تتعلق بموضوع دراسته(١).

التدوين التاريخى عند المسلمين:

وفى أوائل عهد الإسلام شغل المسلمون بالفتوح والحروب والغزوات حتى توطدت مكانة الإسلام، ورست قواعده، وعلت مكانته. ولما هدأت فورة الفتوحات، وحدث الاستقرار، وقامت مراكز علميةهامة فى الأمصار الإسلامية، بدأ المسلمون يتجهون إلى إثبات الأخبار، وتسجيل الأحداث، وأقبلوا على جمع الأجاديث النبوية وتفسير القرآن الكريم. وقد عنى المسلمون ولاسيما الصحابة منهم بحفظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

أما القرآن الكريم فهو كتاب الله تعالى أنزله على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام. وفى القرآن الكريم شىء من أخبار العرب قبل الإسلام ولاسيما ذكر بعض القبائل العربية القديمة مثل عاد وثمود، فضلا عن قصص الأنبياء وموضوع سيل العرم وقصة لقمان وأصحاب الفيل وبعض أخبار ملوك اليمن. ومن سور القرآن الكريم التى جاء فيها بعض أخبار العرب القدماء سورة البقرة وآل عمران والنساء والكهف والحاقة(٢).

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٢ (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٣٤٨؛ السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤٨.

(٢) سيدة إسماعيل كاشف: مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه (القاهرة ١٩٧٦)، ص ١٥-١٦.

وعلى الرغم من أن الكشوف الأثرية قد أيدت صحة ما جاء في الكتب المقدسة ـ ولاسيما القرآن الكريم ـ عن بعض أخبار العرب القدماء، فإن المستشرقين لايميلون إلى الاعتماد على الكتب المقدسة في ميدان التاريخ، إذ أنهم يرون أن ما جاء فيها سرد بأسلوب مختصر وأنه كان يهدف ـ وخاصة القرآن الكريم ـ إلى عبرة أخلاقية، فضلا عن أن بعض أخبارها لايزال غير واضح، وينقصه التحديد الزماني ـ المكاني(١) .

وبعد وفاة الرسول ﷺ كان لابد من حفظ كلام الله، ويظهر أن الجمع الأول للقرآن الكريم بعد الرسول الكريم كان في حياة أبي بكر الصديق، إذ يروى أن عمر بن الخطاب خشي بعد مقتل عدد كبير من القراء في الحرب مع مسليمة الكذاب، أن يقتل قراء آخرون في معارك أخرى فيضيع شيء من القرآن، ولذا إقترح على أبي بكر الصديق جمع القرآن وأقنعه بوجهة نظره . وتروى أغلب الروايات أن أبا بكر عهد إلى زيد بن ثابت كاتب الوحي للرسول الكريم بجمع القرآن، وقد أتم زيد هذا الجمع، وأعطى نسخته لأبي بكر، وقد خلفها أبو بكر لعمر بن الخطاب الذى تركها بدوره عند ابنته حفصة زوج الرسول ﷺ، أما جمع القرآن النهائي فقد تم في عهد عثمان بن عفان(٢) .

أما الأحاديث فتتصل اتصالا وثيقا بنشأة التاريخ عند المسلمين بعد القرآن الكريم وتعني كلمة «حديث» في الأصل «الخبر» أو «الرواية الشفوية» في موضوع ديني أو دنيوي . ثم اتخذت معنى خاصاً في الإسلام فصارت تعني أقوال الرسول ﷺ . أما كلمة «سنة» فتعني طريقة التصرف العادي في النواحي الاجتماعية والدينية والقانونية . فالحديث يشير للقول، والسنة تشير للعمل(٣) .

---

(١) نفس المرجع ص ١٦ . (٢) نفس المرجع، ص ١٧ .
(٣) نفس المرجع، ص ١٩ .

وفى البداية كان الصحابة أى الذين عاشوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وصحبوه خير مصدر للمعلومات عن الحديث، فقد سمعوا الرسول الكريم نفسه يتكلم وشاهدوا أعماله، وبعد ذلك أخذ الناس الأحاديث والسنة عن «التابعين» أى الجيل التالى لعصر النبوة الذين سمعوا الحديث عن الصحابة، ثم أخذ بعد ذلك عن التابعين «تابعوا التابعين»(١). ولذا نرى أن كل حديث كامل يتألف من قسمين: القسم الأول هو سلسلة رواة الحديث على التوالى ويسمى «الإسناد» أو «السند» لأنه يثبت صحة الخبر، ويبدأ السند بآخر راو للحديث ويتدرج إلى الشخص الذى صدر عنه الحديث، والقسم الثانى للحديث «المتن» أو محتويات الحديث(٢).

وقد كان علم التاريخ عند المسلمين فى البداية وثيق الصلة برواية الحديث وتفسير القرآن الكريم، وذلك لأن المسلمين عندما اشتغلوا بجمع القرآن وتفسيره ودراسة الأحاديث النبوية، احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التى نزلت فيها الآيات والمشاهد التى وردت فيها الأحاديث، ولذا عمدوا إلى جمع أخبار السيرة النبوية وأخبار الغزوات ومن ساهم فيها. وقد حوى القرآن الشرائع والأحكام والأخبار، وكان هم المسلمين تلاوته وتفهم أحكامه وإشاراته لأنه وضع أسساً للحياة والدين، وقد شكل عليهم فهم بعض أحكامه وتفسير جانب من معانيه، فعمدوا إلى الأحاديث ليستعينوا بها على توضيح المشكل وجلاء الغامض، وصار شغلهم جمع الأحاديث ممن سمعوها أو رواها أحد سامعيها بالإسناد المسلسل، أى الإسناد المتصل من الرواة الموثوق بهم، وقد وجدوا تبايناً ولونا من ألوان التناقض فى الروايات، فبذلوا جهداً فى التفريق بين الأحاديث الصحيحة والأحاديث

(١) نفس المرجع والصفحة.
(٢) نفس المرجع والصفحة.

الزائفة المدسوسة، وقد جرهم ذلك إلى دراسة طبقات المحدثين، والوصول إلى درجة تدقيق كل منهم فى نقل الأحاديث(١).

وأقدم الكتب التاريخية التى تجمع بين الحديث والتاريخ هى كتب المغازى والسير، وتعنى المغازى غزوات الرسول ﷺ وحروبه التى قام بها لقتال المشركين والدفاع عن الدين الجديد. وكان من الطبيعى أن تكون نشأة المغازى والسير فى المدينة المنورة بوصفها دار السنة التى عاش فيها الصحابة وشاهدوا الرسول الكريم وسمعوا أحاديثه ورووها إلى التابعين، ولم تنتشر الكتابة فى تاريخ المغازى والسير من المدينة إلى غيرها من الأمصار إلا فى القرن الثانى للهجرة(٢). وكانت كتب المغازى والسير تعتمد على الأحاديث المروية عن النبى ﷺ، والتى يتحرى فى جمعها الصحة وتلتزم الدقة، وكان لذلك فضل كبير فى رفع مستوى الكتابة التاريخية والاتجاه بها إلى الطريق السوى، وقد كان لهذا الاتصال بين رواية الأحاديث وكتابة التاريخ تأثير بالغ فى الطريقة التى سار عليها مؤرخو الإسلام فى كتابة التاريخ(٣).

وكانت أخبار المغازى والسيرة مبعثرة فى داخل الأحاديث من غير تبويب يؤلف بينها أو يجمعها فى باب واحد، فلما رتبت الأحاديث فى أبواب وكتب، استقلت السيرة والمغازى بأبواب مستقلة فى كتب الحديث ذاتها، ثم لم نلبث أن وجدناها - أى المغازى والسير - مستقلة قائمة بذاتها فى كتب مستقلة منفصلة عن كتب الحديث(٤). وقد توسعت دراسة

(١) مارغوليوث: دراسات عن المورخين العرب، ترجمة د. حسين نصار (بيروت بدون تاريخ)، ص ٣٠ - ٣٣؛ على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٤٦ - ٤٧؛ بعض مؤرخى الإسلام (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٥ - ٦.

(٢) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامى، ص٢٦.

(٣) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٤٩.

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٢ ص ٣١٩-٣٢٠؛ محمد عبدالغنى حسن: التاريخ عند المسلمين (القاهرة ١٩٧٧)، ص ١٥-١٦.

المغازى فيما بعد، فأصبحت تشمل الوقائع والحروب التى خاضها العرب بعد وفاة الرسول الكريم، ضد غيرهم من الأمم الأخرى فى سبيل نشر الإسلام، ويلاحظ ذلك فى الكتابات التى وردت عن القادسية واليرموك ونهاوند وذات الصوارى وغير ذلك. كما أنها شملت الوقائع والحروب الأهلية التى نشبت بين العرب كالجمل وصفين والحرة وغيرها.

وظهر بجانب مؤرخى المغازى والسير طائفة أخرى من «الإخباريين» الذين اهتموا بالأخبار القديمة والقصص اهتماماً طغى على المغازى والسير. ويبدو أنهم وجدوا فى هذا اللون من الأخبار والحكايات والنوادر والأشعار تسلية للسامع قبل التدوين، وللقارىء بعد عصر التدوين، كما وجدوا فيها ملء مجالس السمر عند الأمراء. ومما يذكر أن المساجد اتسعت للإخباريين الذين كانت أخبارهم تحتوى على كثير من التواريخ المزدحمة بالقصص والأساطير والبطولات المبالغ فيها، والأشعار المثيرة للانفعالات، وأخبار القبائل وما كان يدور بينها. وهذا اللون من الأخبار كان مزيجا اختلط فيه الواقع بالخيال، والحقائق بالأوهام، ويروى صاحبه خبراً صحيحا ويمزجه بأخبار مخترعة، ويرويها كلها على أنها وقائع ثابتة، وأحداث صادقة فهو يرويها كما يروى التاريخ، ولكن لايدقق فيها كما يدقق المؤرخ. ولاشك أن هؤلاء الإخباريين كانوا برواياتهم النواة الأولى للرسائل التاريخية التى أخذت بعد ذلك تظهر وتؤرخ لأحداث بزغت منذ العهد الإسلامى، كحوادث الردة، وفتوح الشام والعراق، ومصارع الخلفاء، والخلاف بين الأمويين والعلويين، وقيام الدولةالعباسية، وغير ذلك من الأحداث التاريخية التى أخذت تظهر بكثرة فى العالم الإسلامى، ومن المؤكد أن هذه الرسائل المدونة كانت النواة الأولى للمؤرخين الذين اعتمدوا عليها فى تدوين تواريخهم العامة، كالذى نجده فى كتاب الطبرى(١).

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٢ ص ٣٥٦، محمد عبدالغنى حسن: التاريخ عند المسلمين ، ص ١٩-٢٢.

وعلى أية حال، ألف فى سيرة الرسول ﷺ ومغازيه جماعة من المؤلفين والرواة والمحدثين، جاءوا على طبقات. وأول من عرف بالتأليف أبان بن الخليفة عثمان بن عفان المتوفى عام ١٠٥هـ، وقد كان واليا على المدينة للخليفة الأموى عبدالملك بن مروان سبع سنين، وعرف بالحديث والفقه. ويقول ابن سعد أثناء حديثه عن المغيرة بن عبدالرحمن: «وكان ثقة قليلة الحديث، إلا مغازى رسول ﷺ، أخذها عن أبان بن عثمان، فكان كثيراً ما تُقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها»(١).

أما عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤هـ فهو من معاصرى أبان بن عثمان، ومن أشرف البيوت وأنبلها، أخو عبدالله بن الزبير ومصعب بن الزبير، أبوهم الزبير بن العام. ولم يقتصر عروة على الروايات الشفوية، بل دون بعض الأحداث طلبها منه عبدالملك بن مروان. وتمثل كتابات عروة أقدم المدونات التى وصلت إلينا عن بعض الحوادث الخاصة فى حياة النبى ﷺ، كما تمثل أقدم اثار الكتابة التاريخة العربية . وقد مكنه نسبه من أن يروى الكثير من الأخبار والأحاديث عن النبى ﷺ وحياةصدر الإسلام، فروى عن أبيه الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر، وروى الكثير عن خالته عائشة(٢).

ومن أشهر مؤرخى السيرة أيضا شرحبيل بن سعد المتوفى سنة ١٢٣هـ (٧٤٠م)، كان مولى من موالى الأنصار، روى كثيراً عن زيد بن ثابت وأبى سعيد الخدرى، وأبى هريرة. وقد أسهم شرحبيل فى كتابات السيرة أثبت فيها أسماء الصحابة الذين اشتركوا فى غزوة بدر، وأسماء

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ١، ص ٣٢٠-٣٢١؛ حسين نصار: نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى، ص ١٩٣.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٢ ص ٣٢١-٣٢٢، حسين نصار: نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى، ص ١٩٤-١٩٥.

الصحابة الذين اشتركوا فى غزوة أحد، كما أورد أسماء المهاجرين إلى الحبشة، وأسماء من هاجر من مكة إلى المدينة(١).

واشتهر محمد بن مسلم الزهرى المتوفى سنة ١٢٤هـ (٧٤١م) من بنى زهرة بسعة العلم ومعرفة الأنساب، ويعتبر من أعظم مؤرخى المغازى، وساعد حبه لجمع الأخبار ذاكرة قوية، وقد ألف كتابا عن القبائل العربية بأمر من خالد القسرى والى العراق، ولكنه لم يتمه، كما ألف كتابا فى سيرة النبى ﷺ، ولكن هذا الكتاب لم يصلنا(٢). وقد عرف الزهرى بقوة أسانيده،وامتاز عن غيره فى ذلك بنوع جديد من الإسناد، هو الإسناد الجمعى، حيث يدمج عدة روايات فى خبر متسلسل، وقد سار بذلك خطوة هامة نحو الكتابة التاريخية المتصلة(٣).

وهناك كاتب آخر بين كتاب المغازى القدامى وهو عبدالله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى المتوفى سنة ١٣٥هـ (٧٥٣م)، كان من أهل المدينة، وكان جده الأعلى عمرو بن حزم من كبار الصحابة، بعثه رسول الله إلى أهل اليمن ليفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام. وأما أبوه أبو بكر فقد ولى قضاء المدينة فى ولاية عمر بن عبدالعزيز، ثم ولى أمر المدينة فى خلافة سليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز، وعرف أبو بكر بمقدرته فى رواية الحديث، ولذلك عهد إليه عمر بن عبدالعزيز بجمع الحديث. وورث إبنه عبدالله بن أبى

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٢ ص ٣٢٢ - ٣٢٣؛ السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٥٧.

(٢) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامى، ص ٢٨ - ٢٩؛ حسين نصار: نشأة التدوين التاريخى عند العرب، ص ٦.

(٣) عبدالعزيز الدورى: بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب (بيروت ١٩٦٠) ص ٩٤؛ السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٥٩.

بكر هذه المواهب، فاختص برواية الحديث المتصل بالمغازى، فكان حجة فى ذلك، وعنه روى إبن إسحق والواقدى وابن سعد والطبرى، فرويت له أخبار تتعلق ببدء حياة النبى ﷺ، ووفود القبائل إلى رسول الله، وأخبار فى حروب الردة وغيرها(١).

ويظهر محمد بن إسحاق المتوفى عام ١٥١هـ (٧٦٨م) تقريبا وقد نشأ بالمدينة، ولقى كثيراً من علماء المدينة وأخذ عنهم الحديث، وكان يجمع الأحاديث وخاصة ما اتصل منها بالمغازى حتى اشتهر بها، وروى عن الشافعى أنه قال: «من أراد أن يتجر فى المغازى فهو عيال على محمد بن إسحاق». ولابن إسحاق فضل جمع الأحادث وترتيبها وتبويبها وسلسلتها، وربما كان هو أول من فعل ذلك، وحذا حذوه من بعده(٢). وقد ألف ابن اسحاق كتابا غطى به على جميع هؤلاء المؤرخين المتقدمين، وجذب أنظار المتأخرين على الدوام، ويسمى كتاب ابن إسحاق هذا «كتاب المغازى»، ولم يصل إلينا الكتاب بصورته الأصلية، ولكن وصل إلينا قسط عظيم منه فى سيرة بن هشام(٣). وقد أشار ابن النديم فى كتاب الفهرست إلى كتاب لابن إسحاق سماه «كتاب الخلفاء»، ولسنا نعرف شيئا عن مادة هذا الكتاب، ولكن الراجح أنه كان موجزاً وأن إبن إسحاق تناول فيه المغازى خاصة، وإن كان الطبرى قد ذكره بين رواته فى تاريخ الخلفاء الراشدين(٤). وكان ابن إسحاق غاية فى النزاهة فى تاريخه، يدون آراء المذاهب المتعادية بكل أمانة وبدون تحيز، حتى لقد روى أشعار المشركين

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٢ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥؛ السيد عبدالعزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٥٧.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٢ ص ٣٢٨ ـ ٣٣٢.

(٣) حسين نصار: نشأة التدوين التاريخى عند العرب، ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٤) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامى، ص ٣٠، حسين نصار: المرجع السابق، ص٢٣.

فى هجاء الرسول ﷺ وأصحابه، وحتى اضطر ابن هشام أن يلطف من حدة بعض عبارات هذه الأشعار أو أن يحذفها(١).

ومن المؤرخين الذين حازوا شهرة واسعة فى القرن الثانى الهجرى محمد بن عمر الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧هـ (٨٢٣م)، وكان من أهل المدينة. ويعد الواقدى أعلى منزلة من المدائنى والكلبى كليهما، ويقال إنه سمع من مالك بن أنس وسفيان الثورى، وكلاهما من أسمى الفقهاء منزلة، ويقال أيضا إنه لقى ابن جريج الذى يرتبط إسمه بمبتدأ دراسة الحديث. وكان الواقدى حجة فى الحديث والفقه والتاريخ، وقد ولاه هارون الرشيد القضاء بشرقى بغداد، ثم ولاه المأمون القضاء بعسكر المهدى(٢). وله مؤلفات عديدة فى القرآن والحديث والفقه والتاريخ، ومن بين الأخيرة كتاب «التاريخ الكبير»، وكتاب «الطبقات»، وكتاب «السيرة»، وكتاب «المغازى»، وكتاب «أخبار مكة»، وكتاب «فتوح الشام»(٣)؛ ولاشك أن جميع هذه الكتب لو بقيت، لكان لها قيمة تاريخية كبيرة. وقد كانت كتب الواقدى عمدة للمؤرخين بعده اقتبسوا منها ووصلت إلينا مقتبساتهم. وأياما كان، فقد كان الواقدى من أوسع الناس علما فى عصره بالمغازى والسير، كما كان واسع العلم بالحديث والتفسير والفقه، وكان من أكبر المصادر التى عوّل عليها الطبرى فى تاريخه(٤).

ومن أوسع كتاب القرن الثانى الهجرى علما وأكثرهم مؤلفات فى التاريخ والسير على بن محمد المدائنى المتوفى سنة ٢٢٥هـ (٨٤٠م)،

---

(١) حسين نصار: نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى، ص ٢٢٩.

(٢) مارجوليوث: دراسات عن المؤرخين العرب، ص ١٠٥.

(٣) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامى، ص ٣٠ - ٣١؛ على أدهم: تاريخ التاريخ، ص٣٣.

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٢ ص ٣٣٥ - ٣٣٧.

وهو عراقى من أهل البصرة، سكن المدائن، ومنها انتقل إلى بغداد. وقد ذكر ياقوت الحموى من مؤلفات المدائنى عدداً كبيراً من الكتب، منها كتاب عن أمهات النبى ﷺ، أى جداته، وآخر عن صفته، وكتاب عن أخبار المنافقين، وكتاب عن عهود النبى الكريم، ومنها كتاب عن أخبار قريش، ومجموعة أخرى من الكتب فى أخبار الخلفاء، وأخبار النساء، وكتب أخرى فى الأحداث منها كتاب «الردة»، وكتاب «الجمل»، وسلسلة أخرى من الكتب عن الفتوح، منها كتاب «فتوح الشام»، وكتاب «فتوح العراق»، ومنها كتب فى أخبار العرب وأخرى فى أخبار الشعراء وأخبار الخيل. ومن الواضح أن المدائنى كان جهده ضخما، وقد انتفع مما كتبه المؤلفون الذين جاءوا بعده فأكثروا من النقل عنه(١).

والحقيقة أن أكثر ما كتبه المورخون المتقدمون قد فقد وضاع، أو لحقه التحريف وأضيف إليه ما لم يكن به، ولم يصل إلينا منها كاملا سوى سيرة عبدالملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ (٨٣٣م)، والمعروفة بسيرة ابن هشام، وهى مختصرة من سيرة ابن إسحاق. ولكن جهد هولاء المؤرخين لم يذهب عبثا، فقد مهدوا السبيل لظهور كبار المؤرخين المسلمين الذين لايتسع المجال لذكرهم، أمثال الطبرى (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، واليعقوبى (٢٨٤هـ/٨٩٧م)، والمسعودى (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، ومسكويه (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، وابن الأثير (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) وغيرهم من المؤرخين البارزين الذين أفادوا مما جمعه رواد المؤرخين، واستهدفوا الاستقلال فى الرأى وتوخوا الصدق فى الرواية.

وتدل أكثر القرائن على أن التاريخ الإسلامى نشأ نشأة مستقلة غير متأثرة بما كتبه أعلام المؤرخين اليونان أو الرومان أو الفرس، فلم يعرف

(١) مارجوليوث: المرجع السابق، ص ٩٩- ١٠٥، على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٥٣، بعض مؤرخى الإسلام، ص ١٦.

العرب أمثال هيرودوت وثيوكيديدس وزينون عند اليونان، أوليفيوس وتاكيتوس عند الرومان. وكان أوائل المؤرخين عربا، سواء كانوا من الجنوب أو من الشمال. ولكن هذه الحركة العربية ما لبثت أن تأخرت بمؤثرات خارجية من أهل الكتاب والفرس، بل صار جميع المؤرخين من الموالى فى أواخر القرن الثانى من الهجرة[١].

ويمتاز معظم المؤرخين المسلمين بأنهم لم يكونوا موظفين حكوميين، ولم يؤلفوا تبعا لأمر من القائمين بالحكم، وإنما كانوا أناساً عنوا بالتاريخ وتوفروا عليه لمجرد الرغبة الشخصية، وحباً فى ذلك العلم، ولذلك نجدهم يؤلفون ما يحلولهم من كتب، وعما يحلو لهم من حوادث[٢].

ويستهل الأستاذ بارنز[٣] حديثه عن المؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى بقوله: «كانت حضارة الشعوب الإسلامية لا الحضارة المسيحية هى أرقى حضارات العالم وأكثرها تقدما فى العصور الوسطى. وكذلك كان بعض أقدر مؤرخى العصور الوسطى من المسلمين، وأعظمهم ابن خلدون الذى فاق بمراحل أى مؤرخ مسيحى فى العصور الوسطى فى تفهمه لمبادىء التقدم الإنسانى والثقافى، وحتى ظهور فولتير فى القرن الثامن عشر لم يكن مؤرخ مسيحى يساميه فى هذا الاعتبار، والمؤرخون المسلمون فى مجموعهم إذا قارناهم بالمؤرخين المسيحيين فإنهم يمتازون باستقلال الرأى والنزاهة النسبية، كما كانوا خيراً منهم فى استعمال التسلسل التقويمى، وكان تاريخهم للمواد والأحداث أدق بكثير من الكتاب المسيحيين».

---

(١) على أدهم: بعض مؤرخى الإسلام، ص ٢٣ ؛ حسين نصار: نشأة التدوين التاريخى عند العرب، ص ٦٨.

(٢) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامى، ص ٤٩ ؛ حسين نصار: المرجع السابق، ص ٧٠.

(٣) تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ١٣٧.

ابن خلدون وكتابة التاريخ:

ولد عبدالرحمن بن خلدون فى مدينة تونس سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢م)، وأصله من حضرموت، ونزحت أسرته إلى بلاد المغرب أثناء الفتح الإسلامى للأندلس، واستقرت أسرته فى تونس فى منتصف القرن السابع الهجرى. وقد تنقل ابن خلدون كثيراً بدول شمال أفريقية فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٥١ و٧٧٦هـ، وكانت هذه الفترة تشتعل بالفوضى والاضطراب السياسى، ثم انتقل إلى القاهرة، حيث عمل بها معلما وقاضيا، واشتغل بالتأليف حتى وافته المنية فى رمضان سنة ٨٠٨هـ (مارس ١٤٠٦). وكان لأسفاره ومغامراته السياسية واتصاله بكثير من ملوك النصارى بالأندلس إلى خان التتار بالشام فضل فى تكوين فلسفته التاريخية.

ويعتبر ابن خلدون أهم من أرخ للحضارة الإسلامية من المؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى، حتى عرف عند المؤرخين بأنه واضع أساس علم التاريخ. فبينما نرى أن غيره من المؤرخين اتجه إلى سرد الأحداث التاريخية والتأريخ للشخصيات، ولم يعنوا بدراسة العوامل الاقتصادية والاجتماعية، إذا بابن خلدون فى مقدمته المشهورة فى مؤلفه الضخم المسمى «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» فصولا طويلة للكلام على نظم الحكم والسياسة فى العالم الإسلامى، ويبحث ما عرفه المسلمون من مهن وصنائع ونظم اقتصادية وعلوم وفنون، ويضع لكتابة التاريخ منهجاً جديداً من نقد الحقائق وتعليلها، ويجعل المجتمع وتكوينه ونظمه وتطورها موضوعاً للدرس العميق والتفكير الحر[١].

---

(١) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص ٦٠.

ويقابل ابن خلدون الحضارة،، وما يسميه الملك، ويقصد به السيادة أو الدولة، لأن الملك فى رأيه ضرورة لازدهار العمران، والحضارة لايكفى أن تكون فى الحضر، ولكن يجب أن تلازمها سيادة، وبمعنى آخر نظام واستقرار، حيث تنمو وتزدهر وتتطور. ويرى ابن خلدون أن لكل حضارة عمراً معلوما، ويجعلها تمر بأطوار فى الحياة مثل الإنسان، وأنه لابد أن ينزل بها الهرم، وأن كل حضارة تحمل فى طياتها جرثومةعدم الكمال، وفى اللحظة التى تبلغ فيها الحضارة أوجها، يبدأ الانحلال والسقوط. كمايرى ابن خلدون أن أشد أعداء الحضارة الترف، فالحضارة تتدرج من الخشونة إلى الترف، وأن الخشونة وحدها هى التى تحفظ الحضارة(١).

وقد بلغت الكتابة التاريخية ذروتها بمقدمة ابن خلدون، ففى تلك المقدمة يرى ابن خلدون أنه على المؤرخ معرفة طبائع العمران (الأحوال فى الاجتماع البشرى أو الإنسانى)، فمعرفة طبائع العمران تساعد المؤرخ فى تمحيص الأخبار، وعدم التشيع، وفى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار، وفى الوقوف على الصدق من الكذب. فالتاريخ هو «خبر عن الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم وما يعرض لطبيعته ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات، وأصناف تقلبات البشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملل، والدول ومراتبها،وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والصنائع، وسائر ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الأحوال»(٢). ويمدنا ابن خلدون(٣) بمعيار سليم فى إمكانية حدوث هذه الوقائع أو استحالتها، «فالقانون في تمييز الحق فى الباطل فى الأخبار بالإمكانة

(١) عبدالمنعم ماجد: ذيل على مدقمة لدراسةالتاريخ الإسلامى (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٢١.
(٢) المقدمة، تحقيق على عبدالواحد وافى (القاهرة ١٩٦٥)، جـ١ ص ٤٠٩.
(٣) نفس المصدر، جـ١ ص ٤١٣.

والاستحالة أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لايعتد به وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهانى لا مدخل للشك فيه».

ولا أدل على حصافة ابن خلدون المؤرخ وحسه المرهف نحو قيمة المصدر التاريخى، من اهتمامه بالورقة الرسمية أو المستند الرسمى، أو بمعنى آخر بالوثيقة، التى هى فى وقتنا الحاضر تعتبر من أهم مصادر التاريخ، بسبب أنها المادة الخام أو المنبع المباشر، الذى يتصل به المؤرخ. فنجد ابن خلدون يتنبه إلى أهميتها فيذكرعبارة: تصفحهم (أى المورخون) لأوراق الدواوين، ويقصد بهاالأوراق الرسمية، لأن الدواوين هى المصالح الحكومية[1].

وقد كتب ابن خلدون[2] عن ولع الناس بالمبالغة والغرائب ولاسيما فى إحصاء الأعداد من الأقوال والعساكر، فيقول: «وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا فى الحديث عن عساكر الدول التى لعهدهم أو قريبا منه، وتفاوضوا فى الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى، أو أخذوا فى إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين، توغلوا فى العدد، وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الإغراب، فإذا استشكف أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطت أحوال أهل الثروة فى نصائعهم وفوائدهم، واستجلبت عوائد المترفين فى نفقاتهم، لم تجد معشار ما يعدونه، وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد».

(١) عبدالمنعم ماجد: المرجع السابق، ص ٤١.
(٢) المقدمة، جـ١ ص ٣٦٧.

كما أدرك ابن خلدون أهمية دراسة العوامل الجغرافية من أجل معرفة تأثيراتها على مسار التاريخ، إلى جانب التركيز على العوامل الاقتصادية ومسئولياتها عن الأحداث التاريخية. وشدد على دراسة التاريخ للعبرة والعظة لا للتسلية، فنحن ندرس تواريخ الدول والملوك لنتعلم، وندرس سير الأنبياء لنتأسى بهم، وندرس تجارب الأمم، ونرى ما وقعت فيه من الأخطاء لننجو بأنفسنا من المزلات ومواطن الضرر، وهذه فى رأينا أعظم فوائد التاريخ فى نظر دارسيه من العرب، ولهذا نجد ابن خلدون، يسمى تاريخه الكبير «كتاب العبر». كما أن ابن خلدون ينصح المؤرخ بأن يفهم المجتمع الذى كتب عن أحداثه فهما حقيقيا وواقعيا، ويلم ببعض العلوم والمعارف التى تعينه على ذلك، وتذلل له بعض الصعاب التى تقف فى طريقه(١).

ومما يؤخذ على ابن خلدون أنه نفسه لم يراع فى كتابه الكبير «العبر» الدقة فى تطبيق آرائه التى أوردها فى مقدمته، فوقع فيما دعا إلى تجنبه من عوامل الخطأ والخضوع للمؤثرات المختلفة كالخزعبلات والخرافات(٢). ووجدنا كتابه لايخرج عن كونه سرد لروايات كبار المؤرخين مثل الطبرى والمسعودى واليعقوبى وابن الأثير وغيرهم. فقد أخذ ابن خلدون يروى لنا كل شيء فى تاريخه دون أن يقف لحظة لاختبار أمر أو تمحيصه؛ ولاشك أن بعض العجز عن تطبيق آرائه يرجع إلى قصور الأدوات والمناهج، وضآلة المعطيات المقارنة، وندرة الوثائق فى عصره(٣). ولذلك لم يترك ابن خلدون إلا تأثيراً قليلاً على الدراسة التاريخية سواء على قومه أو الأوروبيين(٤).

(١) رأفت الشيخ: فى فلسفة التاريخ، ص ٦٩.

(٢) طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ترجمة محمد عبدالله عنان (بيروت ١٩٧٥)، ص ٣٩.

(٣) صلاح قنصوه: الموضوعية فى العلوم الإنسانية (بيروت ١٩٨٤)، ص ٤٨.

(٤) Boyd (C. Shafer) & Others, Historical Study in the West. (U.S.A., 1969), P. 9.

وكيفما كان الأمر، فيشير روبرت فلنت Robert Flint إلى ابن خلدون قائلا: «كان ابن خلدون أول كاتب يعالج التاريخ بوصفه علماً له خصائصه الخاصة. وسواء أكان يمكن اعتبار ابن خلدون لهذا السبب هو المؤسس لعلم التاريخ أم لا، فإن هذا قول قد يكون محل اختلاف بين وجهات النظر، ولكن أى قارىء أمين لمقدمته لايستطيع أن ينكر أنه أحق بهذا اللقب من أى كاتب آخر ظهر قبل باتيستافيكو»(١).

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ١٤٠.



الفصل السادس

تفسير التاريخ

التفسير الجغرافى للتاريخ
تفاضل الأجناس
التفسير الدينى للتاريخ
التفسير المادى للتاريخ
نظرية التعاقب الدورى للحضارات
المدرسة الهيجلية
نظرية البطل والبطولة
التفسير القومى للتاريخ
التفسير الحضارى للتاريخ

تطور علم التاريخ وتغير مفهومه تماماً فى القرنين الأخيرين، فلم يعد يقتصر على انتصارات الملوك والحكام وأخبار القادة العسكريين وكبار رجال الدولة والسياسيين والأعيان، بل تعدى ذلك إلى الاهتمام بتاريخ الشعوب والتطورات الحضارية فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية والنظم السياسية، الأمر الذى جعل علم التاريخ أكثر حيوية فى مضمونه. كما تطرقت إلى تفسير التاريخ ومناهجه نظريات اجتماعية وسياسية واقتصادية، وبالتالى ظهرت مدارس تاريخية عدة، كل منها له مزاياه وعيوبه، على اعتبار أنه لايمكن لنظرية بعينها أن تفسر حركة التاريخ بصورة متكاملة وموضوعية.

وهنا ينبغى أن نفرق بين الفهم والتفسير، فإذا قلت أننى أفهم تاريخ الدولة العباسية كان معنى هذا أننى قد أصبحت على معرفة بأحداث تلك الدولة وما يفعله رجالها وتطور قوتها ومظاهرها الحضارية، ثم ما أصابها من ضعف وانهيار. وقد يمتزج الفهم هنا بمزاج من الإعجاب بهذه الشخصية أو تلك، أو الدهشة من وقوع هذه الحادثة أو تلك؛، أو الأسى على ما أصاب هذه الشخصية أو هذه الجماعة من بلاء على يد أعدائها من كبار رجال الدولة وأصحاب الجاه والسلطان. وربما شاب هذا الإعجاب رغبة فى معرفة الأسباب الخفية وراء هذا الحادث أو ذاك، وربما أيضا شابته نزعةمن الشك فى صحة ما يرويه المؤرخ لما قد يدركه فى أقواله من مبالغات أو لما يدركه فيها من تمويه[١].

أما التفسير فإنه يزيد على الفهم وما يصاحبه من اتجاهات شبه فكرية وإحساسات نفسية. فالتفسير فحص وتمحيص وتحليل ثم تقييم وموازنة وتقدير، ثم استخلاص للأسباب الرئيسية وراء الظواهر والرسوم،

---

(١) محمد عبدالواحد حجازى: العقاد فيلسوف التاريخ (لقاهرة ١٩٨٨)، ص٧٤.

ووراء تطور المسيرة فى أحداثها ووقائعها، بل وراء التكوين النفسى والعقلى للإنسان. وكما يختلف فهم هذا الفرد أو ذاك للماضى بعامة أو للتاريخ، فكذلك يقع الاختلاف بين المؤرخين وفلاسفة التاريخ فى تفسير التاريخ من حيث المبدأ الرئيسى أو العامل المحرك لمسيرة التاريخ والباعث المحقق لظواهرها أشكالها وأنواعها(١).

وهناك وجهات نظر مختلفة فى تفسير سير الحوادث التاريخية نشير إلى أهمها وهى:

التفسير الجغرافى للتاريخ:

يرتبط التاريخ بالجغرافيا ارتباطا وثيقا، ومن الأقوال المأثورة أن التاريخ هو علم الزمان، وأن الجغرافيا فهى علم المكان الذى له أثره فى توجيه أحداث الزمان. والعوامل الجغرافية من مناخ وأمطار وموقع وجبال وأنهار وتربة وثروة معدنية ونباتية وحيوانية هى الأسباب الرئيسية فى تغيير مجرى التاريخ البشرى ونقل الحضارة الإنسانية من مكان إلى آخر(٢).

والجغرافى والمؤرخ على السواء يدركان تمام الإدراك أن الدراسات الجغرافية والدراسات التاريخية مترابطتان، وأن كلا منهما تستطيع التماس الضوء من الأخرى، بل ويتحتم أن تفعل ذلك فى مشاكل معينة. فمن ناحية يصادف المؤرخ فى محاولاته شرح موقع الأحداث الغابرة واختلاف النظم الزراعية، وهجرات الشعوب، وأصل المدن ونموها، والاستراتيجية العسكرية والبحرية، ووسائل المواصلات والنقل من مكان إلى آخر، يصادف فى ذلك مشكلات لا مفر لحلها من معرفة الأساس

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٥.
(٢) نورى جعفر: التاريخ مجاله وفلسفته(بغداد ١٩٥٥)، ص ٥٠ ـ ٥١.

الجغرافي. ومن ناحية أخرى، فإن الجغرافي الذى يعنيه الحاضر يجد نفسه بلا انقطاع أمام مشاكل يملك التاريخ حلها[1].

والتفسير الجغرافي للتاريخ قديم قدم التاريخ نفسه، ففي القرن الرابع قبل الميلاد ألف الحكيم أبو قراط كتابا عنوانه «الأهوية والمياه والأماكن»، تكلم فيه بإيجاز عن أثر البيئة الجغرافية فى تكوين السكان الطبيعى. وعلل الفيلسوف اليونانى أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م) تفوق الإغريق وتساميهم العقلى والفكرى والفنى إلى مناخهم المتوسط[2].

وأدرك هيرودوت (٤٥٦ ـ ٣٩٦ق.م) أهمية البيئة كعامل أساسى فى تشكيل الفعل التاريخى. فمثلا حين يتحدث عن مصر يبدأ بوصف البيئة الطبيعية من حيث شكل الأرض وتربتها ومساحتها، ثم يتطرق إلى الحديث عن شكل الحضارة المصرية، فيتحدث عن الزراعة والنيل الذى أدرك أنه العامل الأول فى تشكيل البيئة المصرية[3]. وقال هيرودوت عن مصر إنها «هبة النيل»، فقد علم النيل المصريين الكثير مثل فن الرى وهندسة السدود وإنشاء المصارف، كما علمهم الاتحاد والتعاون، كما كان النيل طريقا ربط بين جنوب الوادى وشماله، مما ساعد على قيام أول دولة متحدة سياسيا فى العالم القديم حوالى عام ٢١٨٠ ق.م.

وكذلك فإن يوليوس قيصر (١٠١ ـ ٤٤ ق.م) لم ينس أن الجغرافيا عامل مهم فى تشكيل الفعل التاريخى، فتعليقاته عن الحرب الغالية (نسبة إلى بلاد الغال وهى فرنسا الحالية) والحرب الأهلية من أهم المؤلفات التاريخية عند الرومان. وكتاب «الحرب الغالية» يعطينا فكرة دقيقة

---

(١) ولدردج، جوردن إيست: الجغرافيا مغزاها ومرماها، ترجمة د. يوسف أبو الحجاج، راجعه د. محمد محمود الصياد (القاهرة ١٩٥٨)، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) عبدالواحد حجازى: العقاد فيلسوف التاريخ، ص ٧٨.

(٣) قاسم عبده قاسم: الرؤية الحضارية للتاريخ، ص ٤٢.

واضحة عن المعارك التى خاضتها الجيوش الرومانية بقيادة يوليوس قيصر فى سبيل الاستيلاء على بلاد الغال، كما يقدم لنا المعلومات جغرافية ضافية عن الميادين التى دارت فيها رحى هذه المعارك(١).

ولعل ابن خلدون كان أول فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع الذين فسروا التاريخ تفسيراً جغرافيا، فقد قال فى مقدمته: «وقد بينا أن المعمور من هذا المنكشف عن الأرض إنما هو وسط لإفراط الحر فى الجنوب منه والبرد فى الشمال، ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين فى الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلا، فالإقليم الرابع أعدل العمران والذى صفافيه من الثالث إلى الخامس أقرب إلى الاعتدال والذى يليهما ... والثانى والثالث بعيداً عن الاعتدال، والأول والسابع أبعد، ولهذا كانت العلوم والصنائع والمبانى والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون فى هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألوانا وأخلاقا وأدياناً».

ثم جاء مونتسكيو (١٦٨٩ ـ ١٧٥٥) Montesquieu وتوسع فى تفسير التاريخ بظواهره الحضارية من فن ودين وأخلاق وسلوك تفسيراً جغرافيا، فقال: «أعتقد أن الفوارق فى الخلق والمزاج التى تؤثر أثراً عظيما فى مصير الشعوب يرجع شطر كبير منها إلى المناخ، ففى المناطق البادرة مثلا يميل الناس إلى النشاط، على حين أنهم يميلون فى المناطق الإستوائية إلى الكسل». بيد أن مونتسكيو يعود فيتراجع إلى مسافة بعيدة عن المبدأ الجغرافى فى تفسير التاريخ بغير أن نفقد ظلال هذا التفسير فقداناً كاملاً، فهو يقول: «لاريب أنه من الخطأ افتراض أننى أود إرجاع

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

التاريخ للجغرافيا، فقد ثبت أن ثمة أسبابا متعددة تحدد الحوادث بتعداد الدول، ففى بعضها تؤثر القوانين وفى بعضها الاخر الدين، وفى بعضها الثالث التقاليد والأخلاق، وفى غيرها أيضا الطبيعة والمناخ، وهذان يتحكمان فقط فى الهمج على حين حكمت التقاليد الصينيين والقوانين اليابان والاخلاق اصل اسبرطة، أما مبادىءالحكم وبساطة العوائد القديمة، فقد صاغت لعدة اجيال اخلاق الرومان[1].

وماجاء فى كتاب «الجغرافيا والسيادة العالمية» الذى الفه جيمس فيرجريف لخير تأييد وتفسير لمبدأ التفسير الجغرافى للتاريخ كمبدأ مطلق، فقد قال: «والاتجاهات التاريخية الكبرى لم تتأثر إلى حد كبير بالصفات المميزة للأفراد، لأن الظروف الجغرافية على مر العصور أقوى أثراً من عبقرية الأفراد وأبعد مدى من المميزات الجنسية ما لم تكن هذه المميزات وليدة عوامل جغرافية، وهكذا بدأ التاريخ حين بدأ بفضل الظروف الجغرافية»[2].

وقد عارض المؤرخ المفكر توينبى[3] الأسس التى يستند عليها القائلون بتفسير التاريخ تفسيراً جغرافيا وبخاصة ما يتصل بالمناخ. ذلك أنه قد تحدث فى بعض الظروف البيئية المشابهة أن تقوم مجتمعات وحضارات متشابهة كحضارة وادى النيل والرافدين، ولكن فى وديان أخرى مثل وادى الأردن ووادى نهر السند ووادى نهر ريوجراندى وكلورادو بالولايات المتحدة الأمريكية لاتتاح فرصة قيام حضارات مشابهة. كذلك فإن الحضارة الصينية تعتبر سليلة النهر الأصفر (هوانج

---

(١) عبدالواحد حجازى: العقاد فيلسوف التاريخ، ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٨١.
(٣) فؤاد محمد شبل: توينبى مبتدع المنهاج التاريخى الحديث (القاهرة ١٩٧٥)، ص ٣٢ـ ٤٣؛ نيفين علم الدين: فلسفة التاريخ عند توينبى (القاهرة ١٩٩١)، ص ١١٥.

هو)، بيدأن حوض نهر الدانوب مع مشابهته العظيمة لذلك الوادى فى أحوال المناخ والتربة والسهل والجبل، قد أخفق فى إنجاب حضارة كالحضارة الصينية. وهناك حضارات أخرى قد نشأت مثلا وسط الغابات والأحراش فى أفريقية، ولكنها لم تبرز فى وسط أحراش وغابات الأمازون، وعلى هذا فإنه لايمكن أن يرجع مولد الحاضرات إلى عوامل جغرافية.

تفاضل الأجناس:

وتأخذ بعض المدارس التاريخية فى تفسيرها للتاريخ بنظرية تفاضل الأجناس. ويستخدم اصطلاح الجنس للتعبير عن توافر صفات مميزة وموروثة فى جماعات معينة من البشرية. والصفات الافتراضية للجنس التى نبحث عنها هنا، إنما هى الصفات النفسية والروحية والحضارية فى مجتمع من المجتمعات. وبعبارة أخرى تنادى تلك المدارس بتفوق جنس معين فى عقله وفكره وعقيدته وأن غيره من الأجناس أقل منه فى تلك الصفات، ويدرس التاريخ بمقضاها.

فإذا رجعنا إلى العالم القديم، نجد أن المؤرخين الإغريق والرومان كانوا ينظرون إلى عادات وديانات وعلوم الفرس والجرمان بعين العجب والدهشة، ويروا فيها خير تعبير عن طبائعهم وشخصياتهم الفطرية الموروثة. وقد حاول أرسطو أن يبرز طموح الإغريق لزعامة العالم، فنادى بنظرية أكد فيها التفوق الطبيعى للإغريق على تلك الشعوب التى أطلق عليها «البرابرة». وقد تضمن فكره عن «الرق الطبيعى» أن بعض الجماعات ولدت لكى تكون مجرد أدوات حية مسخرة لخدمة الإغريق العباقرة(١).

(١) Childe (V. Gordon), History. (London, 1977), pp. 50 - 51.

وعلق بعض المفكرين الكثير من الأهمية على لون البشرة، والألوان الأقرب إلى السواد تعد نقطة ارتكاز يستند إليها البيض فى دمغ واحتقار كثير من المجموعات البشرية ونبذها، واتهامها بالانحطاط الاجتماعى. وعند بعض الناس تشتد عصبية اللون إلى درجة تتخذ الكراهية عندهم حالة مرضية. وهذه الحالة ليست فطرية أوغريزية، إنما هى انعكاس فى صورة قوية لتحيز قيود البيئة الاجتماعية(١). وقد كتب دافيد هيوم قائلا: «إننى أميل إلى الاعتقاد بأن الزنوج أحط بالطبيعة من العناصر البيضاء». وكان رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) Renan واحداً من الذين رفضوا التسليم بنظرية تساوى البشر(٢). وفى سنة ١٩٠٠م نشر س. كارول C. Carrol كتابا بعنوان: «الزنجى كحيوان أو فى صورة الإله»، وفى هذا البحث كتب كارول فصلا بعنوان «أدلة من الكتاب المقدس وأدلة علمية على أن الزنوج ليسوا أعضاء فى العائلة البشرية». وفى هذا الفصل يؤكد كارول أن كل الأبحاث العلمية تثبت أن طبع الزنجى من طبع القردة(٣).

ويمكننا القول إن الأدلة البيولوجية والأنثروبولوجية والتطور والوراثة، توضح أن التمييز الجنسى على أساس اللون ليس إلا خرافة لايدعمها أدنى دليل علمى. ومن ثم فإن افتراض «انحطاط الشعوب الملونة» غير صحيح من أساسه. ولاشك أن الظروف البيئية غير الملائمة والعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى يعيش تحت ظلها الملونون هى الأسباب الوحيدة المسئولة عن بقاء هذه الشعوب فى مستواها المنخفض الحالى(٤).

وفى منتصف القرن التاسع عشر ازداد الدافع القومى عمقا وقوة

---

(١) خوان كوماس: خرافات عن الأجناس، ترجمة د. محمد رياض، مراجعة د. محمد عوض محمد (القاهرة بدون تاريخ)، ص ٣٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٨.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٤.
(٤) المرجع السابق، ص ٤٦ - ٤٧.

نتيجة لرد الفعل لكتاب ظهر سنة ١٨٥٤ بعنوان «بحث حول عدم تكافؤ الأجناس البشرية» أوضح فيه مؤلفه الكونت آرثر جوبينو (١٨١٦ - ١٨٨٢) Gobineau تأثير السلالات على التطور التاريخي، وأكد سمو الجنس الآرى على بقية الأجناس، وأعلن رأيه الخاص بأن تدهور هذه السلالة جاء نتيجة اختلاطها بسلالات أخرى أقل منها شأنا. وكان أن لقى هذا الرأى قبولا وانتشاراً فى ذلك الوقت لدى جماهير المؤرخين والساسة القوميين فى ألمانيا[1].

وقد أوضحت الدراسات الأنثروبولوجية الناقدة الحديثة أن مفهوم الجنس مراوغ لايسهل تحديده، وثمة صعوبات فى اكتشاف أى عيار طبيعى ثابت ذى أهمية كافية يمكننا من تحديد هذا المفهوم. وقد أكدت الأنثروبولوجيا أنه ليس هناك جنس آرى متفوق، فضلا عن أنه لاوجود لهذا الجنس من قبل. وعلى هذا، فإن مشكلة الجنس فى الوقت الحاضر غامضة ومشوشة وغير محددة، الأمر الذى ينبغى على المؤرخ أن يعالجها بحذر[2].

وإلى جانب ذلك، سيطرت على أذهان اليهود فى تاريخهم القومى طوال السنين فكرة أنهم شعب الله المختار وفقا للميثاق الذى قطعه يهوه Johava مع «إبراهيم ونسله إلى الأبد»[3]، أى أن الله اختص بعطفه ورعايته ذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام. ويروى اليهود عن أنفسهم أنهم شعب مختار تعلم من الله بطريقة مباشرة ومنحه الله بصيرة كاملة وحكمة، ومعرفة تامة بجميع القوانين الطبيعية وبالحقيقة االروحية، بل إنهم يتمادون فى رواياتهم فيزعمون أن الله تحدث إلى آدم «باللغة العبرية»

---

(١) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ٢ ص ٦.

(٢) Barnes, A Hist. of Historical Wruting., p. 340.

(٣) Childe, History., p. 51. 51.

لكى تصبح لغتهم بدورها هى «لغة الله المختارة»(١). أما بقية شعوب العالم فى نظر اليهود فليست إلا أنواع منحطة من البشر تجهل شريعة الرب ويطلقون على أفرادها لقب الأمميين ازدراءً واحتقاراً.

وهكذا أخذ التراث التاريخى للغرب الأوربى فى العصر الحديث فكرة التفوق العنصرى من منبعيه الرئيسيين: أولهما من الإغريق والرومان، وثانيهما حول طبيعة اليهود بالله. وقد استخدم الأوربيين هذا المفهوم فى القرن السادس عشر لتبرير استرقاق زنوج إفريقية والإنديز Indies والهنود الحمرفى أمريكا. ولذلك - كما يذكر المؤرخ توينبى - فإن الكتاب المقدس عند الأوروبيين يماثل نفسه بصورة حتمية مع إسرائيل فى طاعة يهوه وإنجاز عمل الله بامتلاك الأرض الموعودة، بينما لا يماثل الشعوب غير الأوربية والكنعانيين الذين كتب عليهم بمقتضى القرار الإلهى التدمير أو الاستعباد كحطابى خشب أو ساحبى مياه. ومن الطبيعى أن تلك الاستنتاجات الزائفة الغرض منها تهدئة وخزات الضمير حول إبادة الهنود الحمر فى أمريكا، واستعباد الزنوج ليحلوا محلهم، وهكذا صارت النظريات المبهمة والانتحالات المستوحاة، تأخذ شكلا فلسفيا فى المؤلفات التاريخية لكتاب القرن الثامن عشر. وتظهر نظرية التفوق العنصرى واضحة - على سبيل المثال - فى عبارة المؤرخ الألمانى هردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣) Herder القائلة: «سوف يظل الرجال الصينيون دائما رجالا صينيين» Chinamen will always remain chinamen. (٢).

والواقع أنه تبين حتى الوقت الحاضر الكثير من النتائج السيئة لهذه النظرية الكريهة، مما يدعونا إلى الحذر منها، ذلك أن نظرية التفوق

---

(١) هيجل: محاضرات فى فلسفة التاريخ، جـ١ ترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام (القاهرة ١٩٨٦)، ص٤٤.

(٢) Childe, History., p. 51.

الحضارى التى تقتصر على جنس معين لم تعد لها أية قيمة علمية ومرفوضة رفضا باتا، والذى نعلمه اليوم أن هذه النظرية تبريرأجوف للإعتزاز بالقومية وإثارة البغضاء بين القوميات. والقول بوجود أى جنس أوربى يجب أن يسيطر على بقية الأجناس فى العالم بسبب فضائله الممتازة، هو قول لاسند له من جهة النظر العلمية، وينطوى على أفدح الكوارث السياسية(١).

التفسير الدينى للتاريخ:

يقصد بالتفسير الدينى، مرحلة من مراحل الفكر حاول فيها الإنسان تفسير ما يحدث حوله، على أساس أنه حوادث نتجت بفعل وبإرادة قوى عليا خارجة عن إرادته. وبمرور الزمن حاول الإنسان فى المراحل الأولى من تفكيره وأطواره الحضارية، اكتشاف القدرة الخلاقة التى نظمت الكون على النحو الذى عليه، وإظهار القدرة الخلاقة التى تتحكم فيه، من أجل تفسير الظواهر الطبيعية، ولما كانت قدرات الإنسان العلمية فى تلك العهود السحيقة محدودة، فقد لجأ إلى الأساطير الدينية لتفسير الظواهر الطبيعية، كالبرق والرعد والمطر وشروق الشمس وغروبها. واستمر هذا التفسير البدائى للأشياء سائداً طوال مرحلة الحضارة الإنسانية فى العصر التاريخى، حتى ظهور الديانات الكبرى: اليهودية والمسيحية والإسلام، والتى ألغت الفكر الوثنى القديم، وقدمت تفسيرات تقوم على أساس جديد، هو الأساس «الأخلاقى» الذى يرى أن عين الله ساهرة لاتنام، تعاقب الشرير، وتكافىء الصالح، وأن المعتدى لن يهرب أبداً من قصاص الله(٢).

---

(١) كولنجوود: فكرة التاريخ، ص ١٧٤.

(٢) سيد أحمد الناصرى: فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه (القاهرة ١٩٨١)، ص ٢٤ - ٢٥.

أما أفكار اليهود حول طبيعة التاريخ وموقفهم منه، فقد كانوا ينظرون إلى الأحداث ـ كما سبق أن ذكرنا ـ من وجهة نظر دينية، وكان الله في رأيهم هو العامل المحرك الأسمى للتاريخ، وأن إرادته هي محك الحكم التاريخي، وأن مملكته هي الغاية التي يتجه إليها التطور التاريخي، وقد عرف اليهود بشدة اعتزازهم بماضيهم وإكبارهم لتاريخهم[١].

وفكرة اليهود عن التاريخ ليست ولم تكن قط في أي يوم من الأيام ذات نزعة فردية، فهي فكرة تدور حول «شعب إسرائيل أولا» ثم حول البشرية عامة، والملوك كنواب الله في الأرض عليهم العمل على زيادة رفاهية شعب الله المختار، ودعا الأنبياء الناس إلى البر والتقوى والإخلاص لله. ولم تدع الكتب العبرانية إلى «الفرار من العالم» في أية صورة من صور حياة الدير القائمة على الزهد، وركز على الزواج تقدير كبير وعلى الوصية لهم «بالتزايد والتكاثر»، وطيبات الحياة الدنيا هبات من الله ينبغي قبولها بالشكر والاستمتاع بها[٢].

ويعد الكاتب كلود مونتيفيوري من أشهر علماء اليهود في العصر الحديث، وقد أورد ذلك الكاتب دلائل تدل على نظرة إلى التاريخ، وهي إن كانت عصرية فإنها يهودية روحاً وأساساً، وذلك في كتابه الذي أسماه «معالم اليهودية المتحررة» Outlines of liberal Judaism (١٩١٢). وقد ذهب هذا الكاتب إلى أن الله «يتصرف في تاريخ الإنسان وله فيه هدف». وهو يكتب أيضا: «ونحن نعتقد أن الجنس البشري قد تقدم ولايزال يتقدم بصورة إن كانت وئيدة فهي على كل حال أكيدة.. ومن أجل نفاذ أهدافه في التاريخ، يهب الله شعوباً وأفراداً معينة قدرات مختلفة وينوط بهم

(١) علي أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٢١.

(٢) ويدجري: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ١ ص ١٥٢.

أعمالا مختلفة، وهكذا كان اليهود شعبا مختارا، لم يجر اختياره ليحرز النجاح والغنى أو القوة أو وفرة العدد، ولم يجر اختياره من أجل الفن ولا العلم ولا الفلسفة، ولكن جرى اختياره ليتعلم ويساعد على نشر المبادىء والخبرة الحقة عن الله والبر، وعن علاقة الإنسان بالله وعلاقة الله بالإنسان[1].

وتتجلى الفكرة المسيحية عن التاريخ فى أنها فكرة دينية أساساً مدارها الاتصال بالله، والهدف من التاريخ قد أصبح يعتبر قبل كل شيء بلوغ حياة أخرى مستقبلة. ومما يرتبط بهذا، الأفكار المتعلقة بحدوث بعث ويوم قيامة فى نهاية التاريخ. وهناك ثلاث نظريات تدور حول المصير النهائى ويؤمن بها المسيحيون: (أ) مذهب الخلاص الشامل ومفاده أن الناس جميعا بلا استثناء سيبلغون فى النهاية درجة الكمال (ب) مذهب الخلاص المشروط ومفاده أنه لن يدوم إلا من استحق استمرار بقائه، فأما جميع من عدا هؤلاء فسيبيدون، (جـ) مذهب السعادة الأبدية أو الخسران المبين، وبمقتضاه تحرز الأرواح الطيبة سعادة السماء ويقاسى شراً أبديا هو جحيم البعد عن الله. ومعنى هذا أن التاريخ الأرضى لايحتوى على معنى كامل فى حد ذاته.

ويعتبر القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٩) أهم المفكرين فى تاريخ المسيحية، وأعظم مفكرى عصره على وجه الأطلاق. وأعظم مؤلفاته أهمية كتابه «مدينة الله» De Civitate Dei، ويعتبر هذا الكتاب فلسفة للتاريخ وصورة للأفكار اللاهوتية والسياسية التى سيطرت على أوربا العصور الوسطى حتى عصر توما الأكوينى فى القرن الثالث عشر الميلادى. وقد دفعته الكارثة التى حلت بمدينة روما على يد ألاريك

---

(١) المرجع السابق، جـ١ ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

القوطى سنة ٤١٠م إلى تأليف هذا الكتاب، فقد أذاع الوثنيون فى كل مكان من الإمبراطورية أن المسيحية هى سبب ماحل بالمدينة من تخريب ودمار. وأحس أوغسطين بتزعزع الثقة فى قلوب الناس من جراء تلك الكارثة، فذكر أنما حل بروما لم يكن إلا عقابا لها على ما إرتكبته من آثام وشرور كامنة فى ثنايا الآلهة الوثنية وتقاليدها. وقد ذكر أوغسطين فى كتابه أن هناك مدينتين موجودتين معاً: مدينة الأرض ومدينة الله، الأولى من صنع البشر تفنى كما يفنى جسم الإنسان، أما مدينة الله فإنها أبدية تدوم مع الروح، وإذا جاز أن تتحطم مدينة الانسان المبنية على القوة المادية، فإن مدينة الله لاتزال بخير، أضف إلى هذا أن مدينة الله قد نشأت بخلق الملائكة، على حين أن المدينة الأرضية قد قامت بعصيانه، وفى وسع الكنيسة أن تكون هى بعينها مدينة الله.

ويرى أوغسطين أن العناية الإلهية تلعب دورها فى الأحداث التاريخية. فشئون التاريخ الأرضى «يتولاها الله الواحد ويحكمها كما يشاء،وليس فى الإمكان مطلقا الاعتقاد بأنه ترك ممالك البشر، خارج قوانين العناية».

وقد أبى أوغسطين قبول نظرية الدورات المتكررة فى التاريخ، وذلك لأنه اعتبر أن «التجسد» يحدث «مرة واحدة لاتتكرر». وتشبيها بما يرويه الكتاب المقدس عن خلق الله للعالم فى ستة أيام واستوائه على العرش للراحة فى السابع، قسّم التاريخ إلى سبعة أقسام:

(١) من آدم إلى الطوفان زمن نوح عليهما السلام.

---

(١) المرجع السابق، جـ١ ص ١٧٦ ـ ١٧٨.

(٢) أنظر محمود الحويرى: رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية (القاهرة ١٩٩٥)، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٣) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ١ ص ١٨٠.

(٢) من الطوفان إلى إبراهيم عليه السلام.

(٣) من إبراهيم إلى داود عليهما السلام.

(٤) من داود إلى الأسر البابلى.

(٥) من الأسر البابلى إلى ميلاد المسيح عليه السلام.

(٦) العصر الحاضر[1].

وبالإضافة إلى القديس أوغسطين، هناك الأسقف الفرنسى الشهير جاك بنين بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٨٤) Jacques Benigne Bossuet الذى احتل مكانة كبيرة بين المؤرخين بكتابه المسمى «مقال عن التاريخ العالمى»، وجعل الكنيسة الكاثوليكية فيه محور التاريخ الإنسانى كله، وفسر التاريخ كله تفسيراً دينياً صرفا، بل مسيحياً كاثوليكيا فحسب[2]. وقد أصر بوسويه على أن شئون التاريخ تمضى فى تعاقب سببى، حيث تعتمد حوادث أحد القرون على حوادث القرن الذى سبقه، وفى ذلك يقول: «لم يعد يجوز لنا بعد الآن أن نتحدث عن الصدفة ولا الحظ، أو إن شئنا تحدثنا عنهما على أنهما وصف نغطى به جهلنا. فإن ما نعده فى رأينا غير المتأكد منه صدفة من الصدف، يعد تصميما قاطعا فى رأى أعلى من رأينا، أى فى الرأى الذى يضم جميع الأسباب وكل النتائج فى نظام واحد». ووفقا لهذه الخطة الإلهية تقوم الدول وتسقط، وتسيطر على الناس فى التاريخ قوة فوقهم، كما أنهم بتأثيرها، إذ يعملون أكثر أو أقل مما يقصدونه هم أنفسهم، ينفذون التصميم الإلهى[3]. ويذكر بوسويه أيضا أنه عندما تمر الإمبراطوريات الكبرى التى هزت الكون من أمام عينيك

---

(١) المرجع السابق، جـ١ ص ١٨٢.

(٢) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٧٢.

(٣) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ١ ص ١٨٧.

فى لمح البصر، عندما ترى الآشوريين، والبابليين، والفرس، والإغريق، والرومان، يتوالون ويذهبون، فإن ذلك يجعلك تشعر بأنه لايوجد شيء راسخ وثابت بين الناس، وإنما التقلب والاضطراب هما السمة العامة لحركة التاريخ(١).

أما الرؤية التاريخيةفى الإسلام فترتبط ارتباطا وثيقا بالقرآن الكريم، فأى سورة قرأت، وأى صفحة شاهدت، طالعتك الإشارات المسهبة أو الموجزة إلى مواقف تاريخية، لاريب أنها تشكل بمجموعها نسقا متكاملا للتفسير الإسلامى للتاريخ. والقرآن الكريم لايقدم قصصه وصوره ومشاهداته لمجرد ترف ذهنى أو إشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والصور والمشاهدات، ولكن القرآن يأتى بمعطياته التاريخية من أجل أن يتحرك الإنسان صوب الأهداف التى رسمها الإسلام، ويبعده فى الوقت ذاته عن المزالق التى أودت بمصائر عشرات بل مئات من الأمم والجماعات والشعوب.

ويعتمد القرآن الكريم فى عرض الواقعة التاريخية على أكثر من أسلوب، وليست الحبكة القصصية سوى واحدة منها فحسب، وإذا وضعنا فى الحسبان الشروط الفنية للقصة، استطعنا أن نتبين أن عدداً كبيراً من عروض القرآن التاريخية، وإن جاءت تسميتها أحياناً بالقصص، أى الحديث عن الماضى، تخرج عن الإطار الفنى للقصة، وبهذا تكتسب بعدها التاريخى المجرد.

وتتجاوز بعض آيات القرآن الماضى والحاضر، لكى تمد رؤيتها إلى

(١) سيد الناصرى: فن كتابة التاريخ، ص ٢١.
(٢) عماد الدين خليل: التفسير الإسلامى للتاريخ (بيروت ١٩٧٥)، ص ٧ ـ ٨.
(٣) المرجع السابق، ص ٩٧.
(٤) سورة الروم: آية ١ ـ ٥.
(٥) عماد الدين خليل: التفسير الإسلامى للتاريخ، ص ١٠٣.

المستقبل القريب أو البعيد فى تنبؤات تاريخية، يحيطها علم الله المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية. ولقد نفذ بعض هذه التنبؤات فى عهد الرسول ﷺ نفسه، وظل بعضها الآخر ينتظر التنفيذ، إذ لم يحدد له زمن بالذات: «آلم. غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، وعد الله لايخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون». ولقد شهد العصر المكى نفسه تنفيذ هذه النبؤة بعد سنوات قليلة من نزولها.

إن إحدى الملامح الأساسية التى تميز التفسير الإسلامى عن سائر التفاسير أنه يفرد للبعد الغيبى، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، مساحات واسعة، ويجعله أحد الشروط الأساسية للإيمان، بل أهمها على الإطلاق، بالله الذى لاتدركه الأبصار، وبعملية خلقه الدائمة التى تندّ عن إحاطة الإنسان ذى المنافذ الحسية المحدودة والقدرات العقلية النسبية، وبوحيه الذى ينقل للبشرية تعاليم السماء بواسطة أنبياء الله ورسله، ومعطيات هذا الوحى البعدية من إيمان بالبعث والحساب والجزاء. ومن ثم كان أى تردد إزاء اليقينات الغيبية التى يطرحها القرآن، إنما هو رفض للقاعدة التى لا يقوم بدونها إيمان[1].

وفى القرآن الكريم جعل الله للإنسان مكانة سامية. فقد أراد الله للإنسان أن يكون خليفته فى الأرض، فمنحه القدرة العقلية على التعلم، والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والإبداع، والإرادة الحرة لاختيار أسلوب الحياة التى يقوده إليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية. ولكى لايحس الإنسان بالدونية، ولاتدور فى خاطره أية فكرة عن سلبية دوره

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٢.

فى العالم، رفعت مكانته إلى أعلى مصاف وطلب من الملائكة أن يسجدوا له، وتلك هى أسس تقود ولاريب إلى تصور دور الإنسان فى العالم كقوة فاعلة مفكرة، الأمر الذى لابد منه لأى إبداع حضارى فى الأرض[1].

التفسير المادى للتاريخ:

أماما أسهمت به المدرسة المادية الاقتصادية فى تفسير التاريخ فهو التفسير الذى وضعه الفيلسوف اليهودى الألمانى كارل ماركس (١٨١٣ - ١٨٨٣) Karl Marx. فالاقتصاد بدأ ينتظم كعلم من العلوم فى القرن الثامن عشر مع ظهور الصناعة فى أوربا والتحولات الكبرى التى أحدثها الانقلاب الصناعى (الثورة الصناعية) فى أوربا وبقية أنحاء العالم، وما تطلبته تلك الثورة من البحث عن المواد الخام وإقامة المصانع والبحث عن الأسواق لتصريف المنتجات الصناعية. وترى المدرسة المادية الاقتصادية أن وسائل الإنتاج وما يتصل بها من علاقات اقتصادية اجتماعية هى الأساس الفعال فى تطور المجتمع، وأن التاريخ يسير وفق الجدلية المادية Material Dialectic ، وهى طراز خاص من الجدل يعتمد فى طريقته على الأسلوب المنطقى المحكم الذى وضعه الفيلسوف هيجل والمثاليون. ويقول هذا الجدل الماركسى أن تاريخ المجتمع هو تاريخ صراعات شاملة بين أسس قديمة وظواهر جديدة للتنظيم الاجتماعى، أو بعبارة أخرى صراع طبقات تفوز فيها الطبقة التى تسيطر على الوسائل الجديدة للإنتاج والعلاقات الاقتصادية المنبثقة عنه بالنفوذ والسلطان والحكم. وقد قسم كارل ماركس التاريخ إلى خمس فترات تتميز كل منها عن الأخرى بنمط معين من الإنتاج، حيث كان فى البداية نمط للملكية المشاعة بين جميع أفراد العشيرة، ثم تلاه نمط إنتاج العبيد، ثم النمط

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٢.

الإقطاعى، ثم النمط الرأسمالى، ثم النمط الشيوعى. وعلى هذا ترى المدرسةالتاريخية المادية أن التطور التدريجى للمجتمع سار من نظام المشايعة إلى نظام الطبقات فى العصور القديمة حيث انقسم المجتمع إلى سادة وعبيد، وإلى سادة إقطاعيين وأقنان فى العصور الوسطى، ورأسماليين وعمال فى العصر الحديث. ومن طبيعة هذا التطور فى نظر الفلسفة التاريخية المادية أن تفوز طبقة العمال المستغلة فى الصراع الدائر بينها وبين الرأسماليين، وتزيل الملكية الخاصة وتسود المساواة الاقتصادية بين الجميع. وترى تلك المدرسة أيضا أن العلاقات الاقتصاديةالمادية هى التى تحدد نوع وأساليب الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية والفلسفية والفكرية والعلمية لأى مجتمع(١).

ويؤمن ماركس - على خلاف هيجل - بنظرية التطور للعالم داروين، وهى النظرية التى أجبرت مفكرى القرن التاسع عشر على الإيمان بأن حالة الجنس البشرى الحاضرة ليست إلا نتيجة لسلسلة طويلة من تبدلات دائمة التعاقب تتولد بمقتضاها كل حالة عن سابقتها(٢).

ولم تعترف الماركسية بأى إله، لا بوصفه خالقا فى التاريخ ولا بوصفه «عناية»، وأن الدين المنطوى على الإيمان بذلك يعد عند الماركسيين خزعبلات تبنتها الأقلية لتستغل الأغلبية، وذلك بتحويل انتباه الأغلبية إلى ما فى الحياة الآخرة من سعادة وحسن جزاء، وقد استولت الأقلية على مقاليد السلطة الأرضية، واستمتعت بما احتوته الأرض من أفانين الترف التى ينتجها عمل الغالبية(٣).

---

(١) أنظر: Writtan (John), Karl Marx, in the Historian at Work, ed- by John Canon (London, 1980), P. 88.; Nordau, The Interpretation of History., tr. from the german by M.A. Hamilton (London, MCHX), p. 76.; Childe, History., p. 71; Smellie, Why we read History., PP.. 68 - 69.

(٢) إسحق عبيد: معرفة الماضى، ص ٨٤.

(٣) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ٢ ص ١٦.

وقد انتقد المسيحيون إهمال الماركسية للدين باعتباره العامل الروحى الدافع للحياة الاجتماعية بين الأفراد وتنظيم أمورهم الاقتصادية، حيث دعت المسيحية إلى الاهتمام بالفقراء والقضاء على الاستغلال والحث على التعاون والإخاء وتحقيق العدالة الاجتماعية. كما انتقد المسلمون أيضا إهمال الماركسية للناحية الروحية، فالإسلام يمنع استغلال الإنسان للإنسان، ويدعو إلى التكافل بين المسلمين، والإسلام لايحرم الملكية الخاصة المبنية على الفطرة وحب التملك بشرط أن يؤدى ما عليها من زكاة. كما أن الإسلام يعتبر الملكية أمانة فى يد الفرد، ويدعو الأغنياء إلى التصدق من مال الله الذى أتاهم، ويحرم الربا حتى لايستغل الإنسان حاجة أخيه الإنسان(١).

ولاشك أن التفسير المادى الذى يعتبر العامل الاقتصادى هو الدافع الأساسى الوحيد الذى يوجه سلوك الناس أمر لايخلو من التطرف والمبالغة. فالعامل الاقتصادى وإن كان هاماً فى تغيير مجرى التاريخ، إلا أنه ليس العامل الأساسى الوحيد، ذلك لأنه غير منفصل عن غيره من العوامل الاجتماعية والنفسية، بل هو موجود بشكل يستحيل فصله عن العامل الجغرافى والدينى والثقافى والجنسى والعنصرى، يضاف إلى ذلك أن العامل الاقتصادى يؤثر فى غيره من العوامل ويتأثر بها كذلك، فيوجهها وتوجهه(٢).

نظرية التعاقب الدورى للحضارات:

وهناك فئة أخرى من المؤرخين ترى أن مجرى التاريخ يسير وفق نظام خاص واتجاه معين لا يحيد عنه. والتاريخ فى نظرهم يمر أثناء سيره بسلسلة من المراحل والتغييرات يأتى بعضها فى أعقاب بعض

(١) رأفت الشيخ: فى فلسفة التاريخ، ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٢) نورى جعفر: التاريخ، مجاله وفلسفته، ص ١٠٤.

آخر[1]. وأقدم هؤلاء المؤرخين العلامة ابن خلدون الذى ذكر فى مقدمته قائلا: «أما أعمار الدول أيضا فإن كانت تختلف بحسب القرانات إلا أن الدولة فى الغالب لاتعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذى هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته، لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها.. والجيل الثانى تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك فى المجد إلى انفراد الواحدين وكسل الباقين عن السعى فيه، وعن عز الإستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكسر سورة العربية بعض الشىء.. ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول.. وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز.. ويبلغ فيهم الترف غايته.. ويلبسون على الناس فى الشارة والزى وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهوا بها وهم فى الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر بالموالى». ويقصد ابن خلدون أن الدولة تأسست بفضل قوة بأس أحد الأجيال، وجاء الجيل الثانى فشد أوطار بنيانها، مع الانغماس فى اللذات، فأما الجيل الثالث، فإنه هبط إلى درك الضعف حتى قهر وسقط. والتاريخ إجمالا فى رأى ابن خلدون ما هو إلا سلسلة من الدول تسير كل منها فى حلقات متتابعة، وتتشابه هذه الدول فى مراحلها المختلفة وأعمارها، تقوم الواحدة على أنقاض الأخرى، «سنة الله فى الدول إلى أن يأتى ما قدر الله من الفناء على خلقه، وكل شىء هالك إلا وجهه»[2].

---

(1) المرجع السابق، ص ٨٥- ٨٦.

(2) نيفين علم الدين: فلسفة التاريخ عند توينبى، ٤٠.

وبعد ابن خلدون جاء الفيلسوف الإيطالى جيوفانى باتيستافيكو Giovanni Battiste Vico (١٦٦٨ ـ ١٧٤٤) أحدمؤسسى علم التاريخ وأول مفكر له إنتاج قيم فى الفلسفة التاريخية، وقسم التعاقب الدورى للحضارات إلى ثلاثة عصور:

١ ـ عصر الآلهة: وهو العصر الذى كانت الشعوب الأممية (أى من غير اليهود) تعتقد أنها تعيش فى ظل حكومات إلهية تصدر أوامرها عن طريق الرؤساء الدينيين.

٢ ـ عصر الأبطال: وهو الذى كان يحكم فيه أبطال أشداء يعتقدون أنهم أسمى من العامة، وتسود الأرستقراطية نظم الحكم.

٣ ـ عصر الإنسان: وهو الذى عرف فيه الناس أنهم جميعا متساوون فى الطبيعة البشرية، وبناء على هذا تأسست أولا الجمهوريات الشعبية ثم الملكيات، وكلاهما شكل من أشكال الحكومة البشرية(١).

ولكن العصر الأخير كما يراه فيكو يتضمن بذور انهياره وفنائه، إذ أن الديمقراطية وإعلان المساواة بين أفرادالمجتمع لاتلبث أن تغرى جماهير العامة بالتطرف فى المطالبة بحقوقها، فتحظى بها تدريجيا، ولكن ذلك يزيد من الصراع بين طبقات المجتمع بدلا من أن يخفف من حدته، فينشأ عن ذلك ضعف الروابط التقليدية بين هذه الطبقات والشك فى بعض القيم التقليدية المقبولة، والعادات الاجتماعية المعترف بها، فيكون الانحلال والفساد الذى يؤذن بانتهاء الدورة الحضارية كلها. فإذا وصل المجتمع إلى مثل هذه الحالة من التدهور تعذر الإصلاح الداخلى، فلا يبقى إلا غزو أجنبى من الخارج، أو انحلال اجتماعى شامل من الداخل، يعود بعده المجتمع إلى بربريةالعامة، لتبدأ دورة حضارة جديدة، بعد

---

(١) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ٢ ٢٧.

ذلك ـ هي في ذاتها أعلى من سابقتها ، وإن سارت على نفس النمط ـ متدرجة من عصر الآلهة إلى عصر الأبطال إلى عصر الإنسان؛ لينزلق المجتمع بعد ذلك إلى بربرية جديدة، وهكذا دواليك تمضي الحياة الإنسانية، في دورة دائمة تمليها الطبيعة الفطرية التي ركب عليها البشر(١).

وقد استقى فيكو تقسيمه من المصريين القدماء، ففي العصر الأول تكلم المصريون اللغة الهيروغليفية، ثم اللغة الرمزية، ثم سادت اللغة العامية للشعب، وكان المصريون القدماء على دراية بهذا التقسيم لتاريخهم، ولكن فيكو استقاه وحاول تطبيقه على جميع الأمم في كل العصور. غير أن فيكو من إحدى الحضارات الأممية، فإنه يستقي مادة التاريخ من الكتاب المقدس الذي يدور فيه حول تاريخ العبرانيين، ومن ثم فإنه ينتقد الحضارات القديمة كالمصرية والبابلية والصينية ولايعدها أقدم الحضارات، بل يعد ذلك خرافة، ثم يقلل من شأن هذه الحضارات، فمعتقدات أصحابها مليئة بالضلالات وديانتهم سحر وخرافات، وهو لاينتقدها في الجانب الديني فحسب، بل يقلل من شأن الجوانب الأخرى التي عرف فيها تفوق هذه الحضارات، فليس النحت الذي عرف به المصريون إلا بدائياً، ولاعبرة بعظمة الأهرام التي يمكن أن تنتج بين مرحلة بربرية(٢).

ويطبق فيكو اراءه على تاريخ اليونان والرومان ثم العصور الوسطى، فيرى أن دور الأبطال لم يستمر طويلا لدى اليونان، لأن ظهور الفلسفة عجل بالانتقال من الدور الإلهي إلى الدور البشري دون أن يبقوا مدة

(١) نفس المرجع والصفحة، عفت محمد الشرقاوي: أدب التاريخ عند العرب، جـ١ (القاهرة ١٩٧٦)، ص ٧٧ـ ٧٨.
أحمد صبحي: في فلسفة التاريخ، ص ١٦١.

طويلة فى الدور البطولى، على عكس ما حدث للرومان، إذ طال الدور البطولى، وعندما وصلوا إلى الدور البشرى كانوا قد ابتعدوا كثيراً عن الدور الإلهى. ثم عاد الناس فى العصور الوسطى إلى بربرية شبيهة بالبربرية الأولى، فاجتازوا دوراً إلهياً جديداً وهو الدور الذى تولى فيه الملوك المناصب الدينية، ثم اجتازوا دوراً بطولياً عندما نشأت الفروسية وقامت الحروب الصليبية، أما الدور الثالث فقد بدأ فى العصر الذى عاش فيه فيكو(١).

ويرى فيكو خلال هذه الأدوار أن التقدم البشرى لايحدث بطريق مباشر أو فى خط مستقيم وإنما يأخذ شكلا لولبيا صاعداً، كما لو كان يدور حول جبل ليصل إلى قمته. وأوضح أنه على الرغم مما قد يبدو من وجود دورات للتطور، فإن هذه الدورات لاتعود إلى النقطة التى بدأت منها، لأن كل دورة تكبر وتعلو عن سابقتها(٢). وكلما ارتفعنا أكثر وأكثر فى صعودنا الدائرى ازدادت نظرتنا عرضا وفكرنا شمولا.

والواقع أن الأفكار الرئيسية فى فلسفة فيكو تعوزها الروح العلمية، كما أن تقييمه للحضارات القديمة يشوبه التعصب الدينى، وليس ذلك مما ينتقص من نظريته فحسب، بل إنه إذا تعرضت قصص العهد القديم للنقد التاريخى كما حدث فى عصر التنوير، فإنه يلزم عن هذا انهيار الأفكار الرئيسية فى فلسفته. فالالتزام بقصص العهد القديم فى فلسفة التاريخ يفرض على المؤرخ أو المفكر قيداً يشده نحو اللاهوت بقدر ما يبعده عن العلم، وإن أية نظرية فى فلسفة لن تتصف بالعلمية حتى تتحرر تماماً من تقييم العهد القديم للحضارات القديمة العريقة من جهة، وحضارة العبرانيين من جهة أخرى(٣).

على أن فيكو رغم كل ما يوجه إليه من نقد، لايزال فى رأى كثير

(١) المرجع السابق، ص ١٦٢.
(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.
(٣) أحمد صبحى: المرجع السابق، ص ١٦١.

من الدارسين أبا لفلسفة التاريخ، أو على الأقل، أحد مؤسسي منهج الدراسة التاريخية فى العصر الحديث، بحيث نستطيع القول بأنه قد أدى إلى التاريخ من الخدمات، ما أداه بيكون فى منهج البحث الفيزيائى،وما قام به أوجست كونت فى علم الاجتماع[1].

المدرسة الهيجلية:

أما ويلهلم فردريك هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) الفيلسوف الألمانى الشهير الذى عاش فى الفترة التى شهدت أوربا خلالها حروب نابليون بونابرت وانتشار مبادىء الثورة الفرنسية حاملة شعار الحرية والإخاء والمساواة منذ عام ١٧٨٩م، فيرى أن الكون الذى تدرسه الحواس الإنسانية ناقص ومتغير إذا ما قيس بالذات العليا أو القوة السماوية التى أوجدته. فالذات العليا أو الإرادة العاقلة أو الكون الخلاق «الله» هو مصدر الخير والحق والجمال وغيرها من الفضائل، وهو كذلك سام فى جوهره لاتدركه حواس الإنسان. ولما كان من المستحيل على الناس أن يدركوا كنهه إدراكاً حسيا أو عقليا لسموه فوق مستوياتهم الحسية والفكرية، فإنه نفسه قد اضطر إلى إظهار نفسه للناس عن طريق خلقه لنقيضه وهو العالم الطبيعى الذى نعيش فيه أو الكون الذى تدركه حواسنا[2].

ويقول هيجل إن أحداث العالم لاتترك نهباً للمصادافات والعلل الخارجية العرضية وإنما هناك «حكمة إلهية»، أو «تدبير إلهى» أو «عناية إلهية» توجه العالم، وبالتالى فإن كل ما يحدث فى العالم يحدث طبقا لخطة إلهية[3].

---

(١) عفت الشرقاوى: أدب التاريخ عند العرب، جـ١ ص ٧٩.
(٢) نورى جعفر: التاريخ، ص ٧١ ـ ٧٢.
(٣) هيجل: محاضرات فى فلسفة التاريخ، جـ١ ص ٤٦.

والتاريخ على عكس الطبيعة، لايكرر نفسه، كما وأن حركاته لا تسير في دوائر، وما يبدو لنا ـ ظاهريا ـ تكراراً في التاريخ، هو بالضرورة عمل مختلف ومتمايز عما سبقه، لأنه اكتسب أبعاداً جديدة. صحيح أن الحروب تتكرر بين الحين والآخر، ولكن كل حرب جديدة تختلف بطريقة أو بأخرى عن سابقتها، من واقع ما يستفيده الجنس البشرى من دروس في خبراته الماضية(١).

وفلسفة التاريخ عند هيجل مبنية على الأسس العامة لفلسفته، فليس التاريخ من وجهة نظره مجموعة من الحوادث، بل التاريخ هو الفكر الذى أوجد تلك الحوادث. والمقصود بالفكر هنا فكرة الذات العليا أو الكون الخلاق، ويطلق هيجل على ذلك الفكر إسم الفكر المطلق أو العقل المطلق الذى يتحدى في معرفته حدود الزمان والمكان ويسمو فوق كل شيء. وبما أن العقل المطلق كله خير وفضيلة، فالتاريخ على هذا الأساس كله خير وعدالة(٢).

وفي رأى هيجل أن تاريخ العالم سار في ثلاث مراحل، وكل مرحلة من مراحل سيره تمثل درجة معينة من درجات الحرية. وأول مرحلة يبدأ منها هيجل هي الحضارات الشرقية القديمة: الحضارة الهندية، والفارسية، والصينية، والفرعونية، وهذه الحضارات تتميز بخاصية أساسية هي أن المواطنين جميعاً في كل مجتمع من هذه المجتمعات كانوا عبيداً للحاكم، فهم جميعاً يعتمدون على الملك أو الإمبراطور أو فرعون، وينفذون مشيئته، وهذا الحاكم هو وحده المستقل أى أنه وحده الحر. أما الحرية الثانية فتمثلها الحضارة اليونانية والرومانية حيث نجد أن نطاق الحرية قد

---

(١) إسحق عبيد: معرفة الماضى، ص ٨١.

(٢) نورى جعفر: التاريخ، ص ٧٢ ـ ٧٣.

اتسع عما كان عليه عند الأمم الشرقية. فاليونان - وكذلك الرومان - عرفوا أن البعض أحرار، وهذا «البعض» هو المواطن اليوناني أو الروماني، أما الأمم الجرمانية فقدكانت أول الأمم التى تصل إلى الوعى بأن الإنسان بما هو إنسان حر، وأن الحرية تؤلف ماهية الروح(١).

ويرى هيجل أن اكتمال التاريخ لايتأتى بالتطلع إلى المستقبل وإنما يتأتى فى الحاضر، لأن رؤية المستقبل للمؤرخ غير واضحة ولايمكن التكهن بها، فهى ضرب من التنجيم والرجم بالغيب. ويتساءل هيجل: ما هى الوثائق والمادة التاريخية التى يملكها الكاتب عن مستقبل لم يحدث بعد؟ فالمستقبل كتاب مغلق. غير أن هذا لا يعنى أن التقدم يتوقف عند الحاضر، وإنما القصد هو الاعتراف بالحاضر كواقع حقيقى ملموس، ولكننا لانعرف ما سيكون. وفى نظر هيجل إن المستقبل أمر لايخص المعرفة، وإنما يدخل فى دائرة الآمال والمخاوف، وهذه الأخيرة ليست من التاريخ فى شيء(٢).

والواقع أن هيجل ارتكب خطأ جسيما بجعله مجرى التاريخ ينتهى فى الحاضر بدلا من أن يمتد إلى المستقبل، واعترف بعملية تطور مستمرة فى الماضى، وأنكرها فى المستقبل إنكاراً غير مناسب. وقد رأى أولئك الذين تأملوا طبيعة التاريخ ملياً بعد هيجل أنه تأليف للماضى والمستقبل(٣).

ويعتقد هيجل أن العقل المطلق يسعى إلى رفع مستوى البشرية من جميع نواحيها، ولذلك فإنه خلق الشعب الألمانى كحلقة وسطى بين التاريخ المطلق وتاريخ الشرقين الأدنى والأقصى، وما على الشعب

---

(١) هيجل: المرجع السابق، جـ ١ ص ١٤٩؛ وولش: مدخل لفلسفة التاريخ، ص ١٩٣.
(٢) إسحق عبيد: معرفة الماضى، ص ٨٣.
(٣) كار: ما هو التاريخ؟ ص ١٥٦.

الألماني بدوره إلا الخضوع المطلق لساسته وزعمائه الذين اختارتهم العناية الإلهية للأخذ بيد شعوب الأرض كلها إلى الازدهار في نواحي الحياة جميعها. وعلى هذا الأساس فللشعب الألماني رسالة سماوية فاضلة عليه أن يبلغها للناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور. ولكي ينجح في أداء تلك الرسالة عليه أن يخضع لزعيمه خضوعاً تاما وذلك بتجنب نقد أفعاله وتصرفاته التي قد تبدو كأنها ناقصة إذا قيست بمقاييسنا الاجتماعية الشائعة، لأنها أمور صادرة عن الإرادة الإلهية التي تتحدى حدود الزمان والمكان. والزعيم من وجهة نظر هيجل لايخلق التاريخ أو يغير مجراه بإرادته، وإنما هو شخص ينفذ مشيئة الإرادة الإلهية وله دور خاص يلعبه في المجتمع، ومن ثم يختفي تبعاً لأوامر تلك الإرادة. وقد يبدو لنا الزعيم أحياناً وكأنه فشل في أداء رسالته، والواقع أنه لم يفشل من وجهة نظر الذات العليا التي أرادت منه أن يقوم بما قام به، ومصدر الفشل راجع إلى نقص أحكامنا لا إلى طبيعة أعماله(١).

ويشير هيجل إلى أهمية الموقع الجغرافي للتاريخ، والأثر الذي تتركه عوامل الطبيعة على إنتاج شعب ما وروحه، وهو ينبهنا إلى أننا ينبغي ألا نبالغ في تقدير هذا الأثر، ولانغفله كل الإغفال. ويستبعد هيجل المنطقة المتجمدة والمنطقة الحارة من دراما تاريخ العالم لأنهما ليستا موقعا مناسبا لظهور التاريخ، كما يستبعد العالم الجديد (الأمريكتين) وإستراليا بدعوى أننا لم نعرف شيئا عنهما إلا حديثا، وعلى ذلك فإن مسرح التاريخ الحقيقي هو المنطقة المعتدلة أي العالم القديم أفريقية وآسيا وأوربا(٢).

ويقسم هيجل المناطق الجغرافية ثلاثة أقسام هي: الأرض المرتفعة، ثم السهول الوديانية، وأخيراً المنطقة الساحلية، وهو يعتقد أن القارات

(١) نوري جعفر: التاريخ، مجاله وفلسفته، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ، جـ١ ص ٥٥.

الثلاث - أفريقية وآسيا وأوربا - تمثل بصفة عامة هذا التقسيم الثلاثى. ويصف هيجل أفريقية بأنها الأرض المرتفعة، وآسيا هى منطقة السهول والوديان، وتمثل أوربا المنطقة الساحلية، وعلى هذا فسكان أفريقية وآسيا يعيشون معيشة قبلية، ومن آسيا انتشرت القبائل إلى أوربا. ومن الصفات التى يتميز بها سكان أفريقية وآسيا الكرم من ناحية، وصفات النهب والسلب من ناحية أخرى. ويضرب هيجل الأمثلة على الصفات الأخيرة، فيذكر غزوات المغول التى أتت من جوف آسيا ودمروا فى طريقهم كل ما وجده، ويذكر شراسة الزنوج ضد أعدائهم فى الحروب، فى حين يعمل سكان السهول فى مصر والعراق والهند والصين، على أن تنشأ الدول والممالك، حيث تكون الزراعة هى مصدر الرزق للسكان(١).

نظرية البطل والبطولة:

وثمة مدرسة تاريخية فى القرن التاسع عشر تفسر التاريخ على أساس نظرية البطل أو الإنسان العظيم، بمعنى أن الشخصيات العظيمة الهامة فى التاريخ هى الركائز الأساسية فى عملية التطور التاريخى وتغيير مجرى الأحداث، وبتلك الشخصيات وحدها ينشأ التاريخ ويفسر. وأعظم أنصار هذه النظرية هو بالطبع المفكر البريطانى المشهور توماس كارلايل (١٧٩٥ - ١٨٨١) Thomas Carlyle، الذى يرى أن تاريخ العالم ما هو إلا التاريخ، الذى أنجزه البطل أو الرجل العظيم، الذى ترك تأثيرا ليس فقط فى عصره، بل فى العصور التالية، ولاتقتصر البطولة صانعة التاريخ على البطولة السياسية والحرب، وإنما تنسحب على مختلف جوانب الحضارة(٢). وقد قال كارلايل فى كتابه «الأبطال وعبادة الأبطال

---

(١) المرجع السابق، جـ١ ص ٥٦.

(٢) Childe, History., pp. 39-40; Oman (Sir Charles), On the Writing of History. (London, 1969), p. 130.

وأعمال البطولة فى التاريخ، الذى أخرجه سنة ١٨٤٠م: «التاريخ كما أفهمه، وهو تاريخ ما أنجزه الإنسان فى هذا العالم، إنما هو فى أساسه تاريخ عظماء الرجال قادة العالم، فهم الأسوة والنموذج المحتذى، كما أنهم بمعنى واسع، يعتبرون المبدعين لكل ما حاولت الكتلة العامة من الناس القيام به أو الوصول إليه، فكل الأشياء التى نراها قائمة منجزة فى هذا العالم، هى فى الواقع النتيجة المادية، والتحقيق العملى والتجسيد الواقعى للأفكار التى دارت بخلد عظماء الرجال الذين أرسلوا إلى هذا العالم. هذا وإن جوهر تاريخ العالم بأكمله يمكن اعتباره بحق أنه تاريخ هؤلاء الرجال، وما تاريخ العالم إلا ترجمة حياة العظماء»(١).

وقد أعلن المؤرخ أندروديكسون هوايت Andrew Dickson White عن إعجابه بكارلايل قائلا: «لقد بدا إلى دوماً أن كارلايل قد عبر عن حقيقة مبدعة عندما قال إن تاريخ أى بلد هو تاريخ عظمائه الذين صنعوه»(٢). ولكن المؤرخ جولدوين سميث الذى أعجب كثيراً بأسلوب كارلايل، قد ارتاب فى صحة الفكرة الرئيسية التى عبر عنها كارلايل عن أهمية الأفراد فى التاريخ، فالرجال العظماء - كما يوضح سميث - لم يكونوا مبدعين، ولكنهم نتاج جيلهم ويعبرون عن ميوله أفضل تعبير، ويؤثرون فيه بقوة عبقريتهم.، وانفرد سميث ببعض الشخصيات العظيمة

---

(١) Young (L.M.), Thomas Carlyle & the Art of Hist. (New York, 1971), P. 128; Stern, The Varaieties of Hist., P. 101;

ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ٢ ص٨٤.

(٢) Ausubel (Herman), Histrotians and their craft. (New York, 1965), P. 256.

التى صورها كارلايل مثل النبى والشاعر والكاهن والأديب والملك، وطرح أسئلة منها: ماذا سيكون محمداً ﷺ بدون القبيلة العربية؟ وماذا سيكون شكسبير المتوفى سنة ١٦١٦م برواياته التراجيدية بدون عصر الملكة إليزابث، وماذا سيكون فولتير بدون القرن الثامن عشر الذى عاش فيه، ونابليون بدون الثورة الفرنسية؟. ومن ناحية أخرى، أدى غلواء كارلايل إلى إضعاف الثقة بنظريته، خشية أن تتحول السلطة المعطاة إلى البطل إلى دكتاتورية تقضى على آخر أمل فى الديمقراطية[١]. وفى سنة ١٩٣٩م وضع المؤرخ أومان Oman ـ إستناداً إلى كتاب كارلايل فى الأبطال وعبادة البطولة ـ قائمة ببعض الشخصيات التى غيرت مجرى التاريخ، وقد اشتملت على الرسول محمد ﷺ، وبوذا والإسكندر الأكبر، ويوليوس قيصر، وشارلمان، والبابا جريجورى السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥)، ووليم الفاتح، ونابليون، وبطرس الأكبر، وفردريك ملك بروسيا المسمى فردريك الأكبر. فإذا نظرنا إلى تلك القائمة نجد أن النظرية التى أتى بها كارلايل قد تعرضت للإخفاق التام، إذ لم يحدث أن اتفق إثنان من المؤرخين على قائمة واحدة تضم صناع التاريخ أو الأبطال، وإن كان هذا لايعنى التقليل من أهمية دور هؤلاء الأبطال، ومن العيوب الأساسية لهذه النظرية أنها تغفل أثر البيئة الاجتماعية والوضع الاقتصادى والقواعد التكنولوجية التى نهض البطل من خلالها[٢].

وهنا نلاحظ أن كارلايل راح يوازن بين شخصيات ليست من طبقة واحدة أو نوعية واحدة، فمثلا يقارن بين شكسبير كبطل ومحمد عليه الصلاة والسلام كبطل، وهنا ينبغى أن نفرق بين العبقرية والبطولة،

---

(١) Ibid., p. 256.

(٢) Oman, On the Writing of History., pp. 130-133.; Childe, History., p. 40.

فالبطولة درجة أعلى من العبقرية. وقد يكون الإنسان بطلا وعبقريا فى آن واحد، فى حين أن العبقرى قد لاتتوفر له البطولة. فمحمدﷺ بطل وعبقرى فى آن واحدة، بينما شكسبير عبقرى فقط، وكل من الشخصيتين أدى دوره ورسالته، وعلى هذا فقد أخطأ كارلايل عندما وازن بين شاعر ونبى(١).

ومن الكتب التى أصدرها كارلايل «رسائل وخطب كروموبل»، «وتاريخ فردريك الكبير»، و«الثورة الفرنسية»، وقد ضمنها جميعا آراءه فى مهارة فائقة، ولكنها ذات قيمة متوسطة. وعلى الرغم من تحيزه الواضح وافتقار كتبه إلى المنهج الناقد، وقلة اعتماده على المصادر الجيدة، إلا أنه صاحب شهرة كبيرة «كأعظم كاتب إنجليزى فى تصوير الشخصيات»(٢).

وفى وقتنا الحاضر، نشر المؤلف الأمريكى مايكل هارت كتاباً بعنوان «المائة: تقويم لأعظم الناس أثراً فى التاريخ». وأقام أسس اختياره على أن يكون الشخص عميق الأثر وعالمى، وليس إقليمياً، ومن هنا استبعد كل الزعامات السياسية والدينية والمواهب العلمية التى لها أثر محلى فقط(٣).

وأخيراً نتطرق إلى الحديث عن تراجم عباس محمود العقاد والعبقريات الإسلامية بصفة خاصة. فالعقاد كتب العبقريات عن قواد أبطال أكثر شهرة من غيرهم، فهل نلزمه بكتابة سيرة؟. الواقع أننا لو طلبنا منه ذلك لما زاد شيئاً عن الذين سبقوه وبخاصة أن محمداً ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعلياً كثرت عنهم التراجم التى تناولت تطورات حياتهم، ولهذا كان لابد للعقاد أن يدرس هؤلاء القواد العباقرة فى ظل

---

(١) أحمد حسين الطماوى: على أدهم بين الأدب والتاريخ (القاهرة ١٩٩٠)، ص ٩٦.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ٢٦١.

(٣) عاصم الدسوقى: البحث فى التاريخ، قضايا المنهج والإشكالات (القاهرة ١٩٨٦)، ص١١٧.

منهج آخر، ألا وهو رسم الصورة للشخصية من جميع جوانبها يراعى فيها التتابع التاريخى، حتى تتضح فى الذهن تماما(١).

التفسير القومى للتاريخ:

وقد اهتم بعض الباحثين بالنظر إلى أحداث الماضى وتفسيرها من منظور قومى بحت. والقومية نابعة من الإنسان بوصفه فرد فى جماعة، يشاركها لغتها وتقاليدها وآمالها وآلامها، ويجد سلامته فى سلامتها، ويطمح إلى أن يراها عالية الشأن. وهنا نلاحظ أن العصور الوسطى لم تعرف القومية رغم وجود الكثير من مقوماتها فى تلك العصور، ولكن القوى الباعثة لها لم تكن قد اتخذت طريقها بعد إلى المجتمع الأوربى. هذا إلى أن الكنيسة والإقطاع كانا يحولان دون أن تعبر القومية عن نفسها، فالكنيسة تفرض سيطرة عالمية لاتعترف بحدود قومية، والإقطاع لايمكن أن يتمشى مع فكرة القومية، لأن القومية معناها وحدة عناصر الأمة والشعور بهذه الوحدة، والإقطاع يقوم على تفرقة أساسية بين النبلاء من ناحية، وبقية الطبقات من ناحية أخرى.

وقد ظهرت القومية فى دول غرب أوربا فى العصر الحديث، حين ثارت على مفاهيم العصور الوسطى ونظمها وتقاليدها، ومن هذه الدول تسربت القومية إلى البلدان الأوربية الأخرى وإلى أمريكا. وقد سبقت الإشارة إلى أن الكونت جوبينو قد عرّف الجنس النبيل بأنه الألمان أو الآريون، وأعلن أن نقاء السلالة يضمن خلود الشعب، بينما يؤدى الاختلاط إلى الانحلال ويحمل معه بذرة الفناء، والحضارة الحقة لاتوجد، وفقا لرأيه، إلا حيث يسود الجنس الآرى(٢).

---

(١) أحمد النطاوى: المرجع السابق، ص ٩٢.

(٢) هانز كوهين: عصر القومية، ترجمة عبدالرحمن صدقى، مراجعة مصطفى حبيب، ص ٣٣.

ويمكننا أن نلمس بوضوح الروح القومية فى أعمال بعض المؤرخين. فقد حاول الفيلسوف الألمانى فخته Fichte فى كتابه «رسائل إلى الشعب الألمانى» إثارة الألمان إلى أداء دورهم فى التاريخ، قائلا بأن «جرثومة الكمال البشرى وبذوره قد وكلت إليهم بوجه خاص». ومع أنه دفع بأن الأمة لاتصبح أمة إلا بالحرب وبقيامها بكفاح مشترك، راح مع ذلك يعلن: «ألا وأن مصيركم لهو المصير الأعظم، لإنشاء إمبراطورية تقوم على العقل والتفكير، وتدمير سلطان القوة الفيزيائية الغليظة بوصفها الحاكم المسيطر على العالم»[1].

وتظهر كتابة التاريخ القومى فى كتاب «تاريخ فرنسا» الذى ألفه جول ميشيليه (١٧٩٨ - ١٨٧٤) Jules Michelet، ويعتبر هذا الكتاب من أعظم الكتب الأوربية التى كتبت عن تاريخ فرنسا فى أى عصر سواء من ناحية فصاحته أو من ناحية عرضه المثير. ذلك أن المؤلف تملكته مشاعر حب جارف لوطنه وتوافرت لديه قدرة خيالية خلاقة رائعة[2]. وقد رجع ميشليه فى كتاباته إلى مصادر أولية كانت مهملة، ونادى بأن الشعب، وليس زعمائه أو مؤسساته، هو الذى يشكل التاريخ[3].

وهناك مؤرخون آخرون مثل درويسن (١٨٠٨ - ١٨٨٤) Droysen وتريتشكه (١٨٣٤ - ١٨٩٦) Treitschree فى ألمانيا، ركزوا كل اهتماماتهم على الكتابات التى تدور حول الموضوعات القومية الوطنية، فقد كان درويسن عضواً بارزاً لما يسمى «مدرسة المؤرخين البروسية»، وكرس حياته لوحدة ألمانيا تحت قيادة بروسيا[4]. أما

---

(١) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ٢ ص ٧١ - ٧٢.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٣) Stern, The Varieteis, of History., p. 108.

(٤) Ibid., p. 121.

نويتشكهه فقد كتب: «إن القلب القوى الجرئ الذى يحس بأن أفراح الوطن وأحزانه هى أفراحه وأحزانه الخاصة، هو وحده الذى يستطيع أن يضفى طابع الصدق على أى سرد تاريخى»(١).

وكما أدى الاعتزاز بالقومية بين الدول فى جميع مصادر التاريخ القومى الخاص بها، كذلك حدث أن دفع التنافس بين الدول الأوربية المختلفة فى القرن التاسع عشر إلى فتح أبواب دور الحفظ القومية منها والسماح للمؤرخين القوميين باستخدامها، بل إن البابا ليو الثالث عشر فتح أرشيف الفاتيكان سنة ١٨٨١م. وحصل العلماء من غير رجال الدين على امتياز فحص ودراسة الكنوز التى احتوتها دور الحفظ فى الفاتيكان(٢).

كان لنمو القومية تأثير متعدد الجوانب على الكتابة التاريخية، كما أنه جاء نعمة ونقمة. ويبدو الجانب الطيب لهذا التأثير فى تيسير إعداد مجموعات من المصادر التى لم يكن من الممكن توفيرها لولا ذلك الدافع القومى. يضاف إلى ذلك ما صاحب عملية جمع المصادر من تدريب كثير من المؤرخين على أعمال جمع ونشر المصادر التاريخية. أما الجانب السيء من ذلك التأثير فيتركز حول خلق التحيز الخطير والمتطرف للوطنية، بحيث لم يعد بالإمكان تناول الحقائق التاريخية تناولا موضوعيا هادئا، حتى عند أرقى المؤرخين مستوى وتدريباً، وإنما أسهم الدافع القومى بقدر كبير فى إشعال روح التعصب والحماسة الوطنية، الأمر الذى أدى إلى كارثة الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م(٣).

ونصل إلى القول أنه مما يعاب على كتاب التاريخ القومى ميلهم إلى إثبات الأحداث التى تؤيد وجهة نظرهم، والحصول على الوثائق التى

---

(١) ويدجرى: التاريخ وكيف يفسرونه، جـ٢ ص ١٤٤.
(٢) بارنز: المرجع السابق، جـ٢ ص ٣٤.
(٣) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ٢ ص ٤٣ ـ ٤٤.

تقوى إتجاههم وتقربهم إلى أهدافهم، حتى وإن كانت ضعيفة أو مشكوكاً في صحتها أو تطويعا للروايات لتلائم مواقفهم.

التفسير الحضارى للتاريخ:

يرى بعض المؤرخين أن الحضارات التى نشأت فى بيئات مختلفة من العالم، هى التى لعبت دوراً فعالاً فى تفسير التاريخ. فقد ذكر المفكر الروسى نيقولاى دانيلفزكى (١٨١٢ - ١٨٨٥) Nikolai Dailebisky فى كتاب ألفه عام ١٨٦٩م فحواه أن مجموع التاريخ الإنسانى مكون من «نماذج أو مجاميع ثقافية مختلفة»، لكل منها خصائصهاودورها فى تقدم الإنسانية من نواحيها العديدة. وقد ظهرت من تلك مجموعات: المجموعة الثقافية المصرية، والصينية، والآشورية، والبابلية، والفينيقية، والكلدانية أو حضارة ما بين النهرين القديمة، والهندوسية، والإيرانية، والعبرية، واليونانية، والرومانية، وما بين النهرين الحديثة أو العربية، والجرمانية الرومانية أو الأوربية، والمكسيكية، والبيروية نسبة إلى بيرو بأمريكا الجنوبية، والروسية ـ السلافية[1]. وكل مجموعة من هذه المجاميع ترتكز على فكرة مسيطرة Predominant idea، ونشرت أنشطتها فى تطورها. فالمجموعة الثقافية التاريخية اليونانية ركزت على الإدراك الحسى وتعبير الجمال، والجرمانية الرومانية ركزت على القانون والنظام السياسى، والصينية كانت مقيدة بالنفعية وهو مذهب يقول بأن تحقيق أعظم الخير لأكبر عدد من الناس يجب أن يكون هدف السلوك البشرى، والهندية مالت لثقافة الغموض والخيال، أما المجموعة الجرمانية الرومانية فقد استنفذت فائدتها التى قامت أساساً على العناصر السياسية والعلمية، وبدأ

---

(١) Buddha Prakash, The Modern Approach to History. (Delhi, 1963). P. 49;

نورى جعفر: التاريخ، مجاله وفلسفته، ص ٦٨.

أفولها فى القرن السابع عشر الميلادى، ويظهر ذلك فى نمو التشاؤم، والتخلى عن القيم المسيحية، والتعطش الشديد للقوة والسيطرة، أما المجموعة الثقافية الروسية - السلافية فهى تدخل حالياً عصر النضج وتبشر بمستقبل البشرية(1). ولاشك أن دانيليفزكى كان هدفه من ذلك أن يبين آخر الأمر أن هناك وحدة صقلبية أو سلافية تتزعمها روسيا.

والجدير بالذكر أن دانيليفزكى قسم الجنس البشرى من حيث المساهمة فى أحداث الثقافةوالحضارة إلى ثلاثة أقسام، سمى القسم الأول بالشعوب الإيجابية أو الشعوب المبدعة التى قامت الحضارة على أكتفاها وهى التى ذكرناها، وأطلق على القسم الثانى الشعوب السلبية أو الشعوب المخربة مثل المغول، والهون والأتراك وبخاصة فى بداية تكوينهم الاجتماعى، وأطلق على القسم الثالث الشعوب التابعة فلا هى بالمخربة ولاهى بالمبدعة من نفسها، وإنما يتوقف عملها على نوع الشعوب التى تستولى عليها(2).

وقد تناول فكرة دانيلفيزكى الفيلسوف الألمانى أوزوالد شبنجلر Oswald Spengler (١٨٨٠ - ١٩٣٦) فى كتابه «إضمحلال الغرب» الذى ظهر جزؤه الأول سنة ١٩١٩م، فيرى أن التاريخ مكون من كائنات عضوية حية هى الحضارات، وكل حضارة منها تشبه الكائن العضوى تمام التشابه، فتاريخ كل حضارة كتاريخ الإنسان أو الحيوان أو الشجرة سواء بسواء، والتاريخ العام هو ترجمة حياة هده الحضارات(3). وهو يقصد بذلك أن ميلاد الحضارات ونموها وازدهارها ثم أفولها ما هو إلا

---

(1) Buddha Rakash, Op. Cit., P. 49.

(2) نورى جعفر: المرجع السابق، ص ٦٨ - ٦٩.

(3) عبدالرحمن بدوى: اشبنجلر (بيروت ١٩٨٢)، ص ١٠١ .

عملية بيولوجية تشبه ما يحدث للكائنات الحية، فتاريخ كل حضارة كتاريخ الإنسان سواء بسواء.

ولما كانت الحضارة كالكائن العضوى الحى، فإنها تمر بنفس الأدوار التى يمر بها هذا الكائن الحى إبان تطوره .فلكل حضارة طفولتها وشبابها ونضجها وشيخوختها، أو أن كل حضارة مرت أدوارها بأدوار السنة، أى أن لكل حضارة ربيعها وصيفها وخريفها وشتاءها، ولكل دور من هذه الأدوار خصائص الفصول السنوية، أو خصائص حياة الإنسان المناظرة لها[1] . فدور الطفولة (الربيع) يتميز من الناحية السياسية والاقتصادية بانتشار الإقطاع وسيادة المفاهيم الإقطاعية فى الحكم على المجتمع فى جميع أوجه حياته، ودور القوة والنشاط (الصيف) يتضح فى انتقال السيادة من الريف إلى المدينة حيث تنمو الصناعة وتنتقل الثروة من رؤساء الإقطاع إلى الطبقة الوسطى من التجار، ودور الذبول والانحطاط (الخريف)، ودور الإضمحلال والتفسخ (الشتاء)[2] . وقد أوضح شبنجلر أن الحضارة الغربية تمر الآن بشتائها، وقد تسلم هذه الحضارة الزمام إلى الجنس الأصفر.

وقد توصل شبنجلر فى دراسته للحضارات القديمة والحديثة إلى أن عدد تلك الحضارات تسع حضارات فقط هى الحضارة المصرية القديمة، وحضارة وادى الرافدين، والحضارة الهندية، والحضارة الفارسية، والحضارة اليونانية ـ الرومانية، والحضارة الغربية (المسيحية)، والحضارة الإسلامية، والحضارة المكسيكية[3] . ولكل حضارة أسلوبها المتمايز عن أسلوب غيرها تمام التمايز، أسلوب تستطيع أن تتلمسه فى كل مظهر من

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٢) نورى جعفر: التاريخ، ص ٨٧ ـ ٨٨.
(٣) المرجع السابق، ص ٨٩.

مظاهرها فنجده واضحا كل الوضوح: من فن ودين وعلم وسياسة وتركيب اجتماعي[١]. ذلك أن كل حضارة كيان مستقل منعزل تمام العزلة عن كيان غيره من الحضارات، ولاسبيل إلى اتصال حضارة بحضارة أخرى مادامت كل حضارة، بوصفها كائناً عضويا،ووجوداً حقيقيا، تكون وحدة مقفلة على نفسها. وما نشاهده من التشابه، في الموضوع أو في أسلوب التعبير بين حضارة وحضارة، إنما هو في رأى شبنجلر مجرد وهم، إنه ليس إلا تشابها في الظاهر لا يتعدى الجوهر، لأن كل حضارة تعبر عن روح، والروح تختلف من حضارة إلى أخرى تمام الاختلاف في جوهرها وأسلوبها وممكنات وجودها[٢]. وقد اختارت كل حضارة طابعا معينا في الفن تعبر به عن روحها وشخصيتها، إنه في حضارة مادية تتصور اللامحدود محدوداً واللامتناهي متناهيا وتجسيم الروح تجسيما ماديا، وقد عبر الإغريق عن آلهتهم بصورة مجسمة محدودة في النحت الذي يمثل التجسيم والتحديد؛ أما الحضارة الإسلامية فقد استبعدت النحت والتصوير لأنهما لايلائمان روحها المجردة، وإنما عبر المسلم عن عقيدته بالزخرفة لأنها خطوط فيها جانب التجريد والمفارقة للجسمية والمادة، أما الحضارة الأوربية فيعد الفن التعبيري معبراً عن خصائصها، فالموسيقى لغة عالمية تعبر عن عالمية المسيحية، والموسيقى تعبير عن اللامتناهي لأن إله المسيحية لامتناه، والموسيقى لغة الروح لأن إله المسيحية روح لاجسد[٣].

ويعتقد شبنجلر أن الحضارة تولد في اللحظة التي يتسنى للمجتمع أن يظهر فيه زعيم تختاره العناية الإلهية للسير بالمجتمع من وضعه الحاضر

---

(١) عبدالرحمن بدوي: اشبنجلر، ص ١٠٦.
(٢) المرجع السابق، ص ١٢٨.
(٣) أحمد صبحي: في فلسفة التاريخ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

المتأخر إلى وضع أرقى منه تعينه العناية الإليعة بنفسها. ويقتصر دور الزعيم على مدى أمانته وإخلاصه فى تنفيذ ذلك. وينتهى دور البطل أو الزعيم عندما تبدأ الحضارة نفسها ـ وفقا للعناية الإلهية ـ بالانطواء على نفسها فيذوى كثير من جوانبها ويعتريها الذبول والانحلال(١). غير أن الحضارة مع هذا لا تموت حتما بعد فترة وجيزة من تسرب الانحلال إلى جسمها، فقد تستمر مئات السنين وهى فى حالة الاحتضار والضمور إلى محاولات كثيرة مبعثرة يقوم بها بعض الأفراد لغرض بعثها من جديد، إلا أن جهودهم تذهب أدراج الرياح إذا كان لابد لتلك الحضارة أن تموت(٢).

وقد وجه عالم الاجتماع الروسى سوروكين النقد إلى شبنجلر وإلى من يقول معه بأن الحضارة تولد وتنمو وتزدهر ثم تضمحل، وأنكر عليهم منهجهم هذا فى تفسير الحضارات، إذ رأى سوروكين أن الحضارة ما هى إلا تكتل لظواهر اقتصادية وسياسية وعلمية ودينية، وهذه الظواهر هى الإنسانية كلها توجد فى مكان ثم تنتقل فى مكان آخر(٣).

كذلك هاجم كثير من المؤرخين شبنجلر لأسباب علمية أخرى، وعلقوا أهمية كبرى على بعض الأخطاء التاريخية التى وقع فيها فى دراسته الواسعة. ومهما يكن من أمر رأيه فى الحضارة الغربية وتعذر إعادة الشباب إليها، كما يتعذر إعادة الشباب إلى إنسان بلغته الشيخوخة، فإن الباحث لا يملك إلا أن يرى أنه قد ذهب فى تشبيه دورة الحضارة بدور حياة الكائن الحى إلى مدى بعيد لايتفق والمنهج العلمى. ذلك أن الكائن الحى يبدأ فى الموت بعد أن يصل جسمه إلى درجة معينة من

---

(١) نورى جعفر: التاريخ، ص ٨٩ ـ ٩٠.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٠.
(٣) نيفين علم الدين: فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبى، ص ٦٨.

النمو، فى حين أن الشعوب أو الجماعات يتجدد شبابها مع ميلاد كل جيل، ولا وجه لوصف حضارة ما بالشيخوخة إلا على سبيل المجاز المحض، فالشيخوخة هنا هى الضعف والفساد فى الظواهر الاجتماعية والسياسية التى تختلف كل الاختلاف عن الشيخوخة العضوية. ولا وجه لتمثيل الحضارة بالكائن الحى، أو تفسير مسار التاريخ تفسيراً بيولوجياً، فضلا عن أن التاريخ قبل كل شيء، هو مجال الحرية الإنسانية، فليس فيه ما فى الطبيعة من حتمية الظواهر، ولذلك فليس ثمة مجال للمتنبئين بين دارسيه[1].

أما المؤرخ الإنجليزى المعروف أرنولد توينبى (١٨٨٩ - ١٩٧٥) Ar-nold Taynbee، فقد قدم لنا نظريته «التحدى والاستجابة» Challenge and Response التى تلعب دوراً رئيسياً فى تصوره للتطور الحضارى، وفى تفسير أحداث التاريخ واستخلاص نتائجها وعبرها. والتحدى يعنى هنا وجود ظروف صعبة تواجه الإنسان فى بناء حضارته، وعلى قدر استجابته لها تكون تلك الاستجابة ناجحة إذا تغلب على هذه المصاعب، أو استجابة فاشلة إذا عجز عن التغلب عليها.

ويذكر توينبى أن الظروف الصعبة هى التى تتحدى قدرة الإنسان وتستحثه على العمل لتكوين الحضارة. ويضرب لنا توينبى مثلا على هذا بأن الرأى السائد منذ القدم أن الحضارة قد نشأت أول ما نشأت فى مصر بسبب خصوبة أرضها ووفرة مياه نيلها، ولما وصف هيرودوت أرض مصر وصفها بأنها «هبة النيل». غير أن الأبحاث العلمية الجادة تشير إلى أن هذا القول ينطوى على خطأ كبير. ذلك لأن حضارة مصر الزراعية ليست هبة من النيل، وإنما هى حصيلة جهود الإنسان المصرى الذى أقام

(١) عفت الشرقاوى: أدب التاريخ عند العرب، جـ ١ص ٩٠.

المقاييس، ورصد النجوم، وتوصل إلى حسابات السنة الشمسية وتقاويمها، أى أن الانسان المصرى هو الذى سيطر على الطبيعة وأخضعها لخدمة أغراضه الإنسانية(١). ومن الأمثلة على ذلك أيضا ما حدث عندما اضطهد الرومان الجماعات المسيحية الباكرة من العبيد والفقراء، فقد سعى هؤلاء المضطهدون إلى التماسك والتسلح بقوة الإيمان، حتى قدر لهم فى نهاية الأمر أن ينتصروا عندما أصبحت ديانتهم هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية كلها(٢).

وقد حرص توينبى على أن يتجنب ما وقع فيه شبنجلر من خطأ، حين غلبت عليه نزعته الفلسفية، فمثل الحضارات بالكائن الحى، ورتب على ذلك ما رتب من النتائج الحتمية الملازمة لقيام الحضارات وفنائها، وفقا لقانون الموت والحياة فى عالم الطبيعة. ولقد عبر توينبى نفسه عن ذلك، موضحا ما بين منهجه ومنهج شبنجلر من اختلاف، فقال: «لقد اضطرب عدد كبير من أبناء عصرى عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، فأدركوا أن الموت ينالنا نحن أيضا. إن هذه التجربة القاسية، أظنها فيما يخصنى قد وجهت موقفى من شأن مستقبل حضارتنا الغربية. غير أنى شعرت أيضا من الناحية العلمية، أنه من الحسن بالنسبة للمجتمعات، أو قل بالنسبة لأعضاء تلك المجتمعات أن يدركوا أن الموت ينالهم. ففيما يخص حياتنا الفردية، فإننا لا حيلة لنا، فنحن نقبل برباطة جأش تقل وتزيد، أن يحين أجلنا بعد ردح من الزمن، غير أنى لا أعتقد - وأنا فى هذا الصدد أخالف شبنجلر مخالفة تامة - أن المجتمعات من هذه الناحية شبيهة بالأفراد البشرية. إن الكائن البشرى كالحيوان أو النبات، كتب عليه الموت بعد أجل معلوم. وإنى لا أرى لماذا يكون كذلك

---

(١) إسحق عبيد: معرفة الماضى، ص ١٢٧.
(٢) المرجع السابق، ص ١٢٩.

المجتمع، قد كتب عليه هو أيضا الموت. إنى أؤمن إيماناً راسخا بالاختيار، وبأن المستقبل مفتوح، إنى ألاحظ طبعا أن جل المجتمعات البشرية، لما ارتكبت من أخطاء وحماقات، قد اندثرت كلها بعد عصور متفاوتة الطول، غير أنى لاأعتقد أن مجتمعا واحداً من هذه المجتمعات قد كتب عليه هذا المآل. هذا هو الفرق الجوهرى بين نظريتى ونظرية شبنجلر؛ فأنا إذاأقف موقفا من الحضارة الغربية، غير أنى لا أقف منها موقفا متشائماً[1].

ويعتبر توينبى الحضارة هى الوحدة الموضوعية لدراسة التاريخ، أى أن التاريخ لايمكن أن يدرس دراسة علمية صحيحة أو أن يتوصل الباحثون إلى معرفة اتجاه سيره وعوامل تغيره إلا إذا درست كل حضارة على حدة كشىء قائم بذاته بغض النظر عن جنسية الشعوب المساهمة فيها أو مواقعهم الجغرافية أو لغاتهم أو ألوانهم. وقد توصل توينبى أثناء دراسته إلى أن مجموع الحضارات التى ظهرت منذ فجر التاريخ الإنسانى حتى الآن لايتجاوز ثلاثين حضارة، منها إحدى وعشرون حضارة ولدت ولادة طبيعية أدت رسالتها وبلغت أقصى مراحل نموها فى جميع مظاهر حياتها، ومنها خمس حضارات لم تبلغ فى نموها غايته، بل وقفت فى محل ماسماها توينبى «الحضارات المتعطلة» أو «الحضارات المتوقفة» Ar-rested Civilization لأنها ظلت على ما هى عليه[2]، وتلك الحضارات هى: الحضارة المسيحية الغربية (أوربا وأمريكا)، والحضارة المسيحية الشرقية الأرثوذكسية (روسيا ودول البلقان)، والحضارة الإسلامية، والحضارة الهندية (الهندوسية وبوذية الهينايانا) ،وحضارة الشرق الأقصى أو (بوذية المهايانا)[3]. أما الأربع الحضارات الأخرى، فقد زعم توينبى أنها أجهضت قبل أوانها ودعاها Aborative Civilizations .

---

(١) عفت الشرقاوى: أدب التاريخ عند العرب، جـ ١ ص ٩١ - ٩٣.

(٢) نورى جعفر: التاريخ، ص ٩٠ - ٩١، منح خورى: التاريخ الحضارى عند توينبى (بيروت ١٩٦٠)، ص ٣٨.

(٣) أحمد صبحى: فى فلسفة التاريخ، ص ٢٦٦

ويرى توينبي أن الحضارة لاتنمو وتزدهر إلا إذا توافرت شروط ثلاثة[1]:

١ ـ وجود أقلية من السكان تتصف بالإبداع الفكرى والاجتماعى والسياسى والعسكرى لتمضى بالمجتمع قدما. ولايشترط بطبيعة الحال أن يتصف كل فرد من أفراد تلك الأقلية بجميع تلك الصفات. ولكن ينبغى حتما أن تضم تلك الأقلية أفراداً يمتاز بعضهم بالإبداع الفكرى وبعض آخر بالإبداع الاجتماعى، ولا بأس من توافر أكثر من صفة واحدة من تلك الصفات فى الفرد الواحد..

٢ ـ أن يتسنى لتلك الأقلية تصريف شئون الملك وحكم البلاد والمجتمع شريطة أن يتعاون أفرادها جميعا فى أداء مهمتهم على وجهها الأتم من جهة، وأن يكون هدفهم خدمة البلاد والمجتمع ورفع مستواه المعاشى والفكرى من جهة أخرى. ولا يتم ذلك إلا إذا استطاعت تلك الأقلية الحاكمة أن تكيف ظروف الحياة المادية والفكرية وفقاً لأهدافها، وتستذل قوى الطبيعة حسب إمكانياتها المادية والفكرية، وتسخر قوى المجتمع لخدمة المصلحة العامة، وفى الوقت نفسه ينبغى لها أن تكون على أتم استعداد لتكييف نفسها وأحوالها المادية والفكرية حسب مقتضيات الظروف وفقا لأهدافها.

٣ ـ ظروف جغرافية ملائمة يأتى فى مقدمتها مناخ مناسب لاهو بالحار ولا هو بالبارد.

وهكذا فقد رأى توينبى أن الشخصية الفردية المبدعة، وليست الشعوب هى القوى المحركة الرئيسية لتطور المجتمعات، ويأخذ بعض المؤرخين ذلك على توينبى، لأن هذا المنهج يؤدى إلى اعتبار أن الصناع

---

(١) نورى جعفر: التاريخ، ص ٩١ ـ ٩٢.

الحقيقيين للتاريخ هم هؤلاء «الشخصيات المبدعة» الذين يطلق عليهم توينبى إسم «الصفوة». وينكر البعض على توينبى هذه النظرية التى تعتقد بأن الشعوب تمثل عقبة فى وجه التطور، فهى قوة خاملة لاتمثل دوراً إيجابيا، ولكن الحقيقة أن الشعوب هى صاحبة الدور الحاسم فى التقدم التاريخى(١).

ويعزو توينبى ضعف الحضارة ثم تفسخها وانحلالها وانهيارها إلى تغير فلسفة الفئة الحاكمة فى الحكم. ويمكن إجمال طبيعة الانهيار فى ثلاث نقط:

الأولى: قصور الطاقة الإبداعية فى أقلية المجتمع وهى التى تتولى قيادة أغلبيته العظمى العاطلة عن الإبداع.

الثانية: عزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية بعد قصور طاقة هذه الأقلية الرائدةالإبداعية.

الثالثة: تفكك وحدة المجتمع الاجتماعية، وذلك لانصراف الأغلبية الساحقة عن بذل الولاء للأقلية الرائدة القائدة، تلك الأقليةالتى كانت طاقتها الإبداعية تستهوى غالبية المجتمع الساحقة وتدفعها لبذل الولاء والطاعة وتحفزها للإقتداء بها، وعندئذ يسير المجتمع كله قدما فى طريق التقدم والارتقاء. فإذا تقاعست الأغلبية عن الولاء لأقلية المجتمع - بسبب زوال افتتان الأغلبية بالأقدمية بعد ضمور طاقتها الإبداعية - فإن أقلية المجتمع تتشبث بسلطانها وتتحول إلى طبقة مسيطرة تسعى لفرض سلطانها على المجتمع وتعمل على حكمه باستخدام القوة العارمة، فترد أغلبية المجتمع على هذا بالثورة على الأقلية الحاكمة والانتقاض عليها،

---

(١) نيفين علم الدين: فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبى، ص ١٢٨ - ١٢٩.

وهنا تتفكك وحدة المجتمع وتنحل قواه[1]، وهذا بدوره يؤدى إلى موت الحضارة واندثارها.

ويصور توينبى عوامل إخفاق الأقلية الرائدة للمجتمع فى الاستجابة لتحديات العصر بوساطة سرد أمثلة من التاريخ. من ذلك المثال التقليدى عن تجسيد المجتمع المصرى السيادة السياسية فى عصر الدولة القديمة فى إنسان بشرى. وقاد تشبث المجتمع بفكرته إلى إعراضه عن رسالة سامية نادى بها أخناتون الذى رنا لتجديد شباب مجتمعه روحانيا. وبمعنى آخر، فإذا كان المجتمع المصرى قد استجاب بنجاح فائق لتحدى البيئة، إلا أنه قد أخفق فى الاستجابة لنداء رسالة أسمى وأعظم صفاء - أى رسالة أخناتون - ، وأدى هذا الفشل إلى انهيار الحضارة المصرية مبكرا[2].

ومن رأى توتنبى أن المهارة المصرية الفنية وثروات البلاد قد وجهت توجيهاً سيئاً صوب بناء الأهرامات بغية منح الخلود والمجد لأصحابها عوضاً عن تكريسها لنيل مزيد من السيطرة على البيئة الطبيعية لكفالة مصالح المجتمع بأسره. ولم تكن الملكية المؤلهة الكابوس الوحيد الذى قصم ظهر الفلاحيين المصريين فى عصر الدولة القديمة، إذ كان عليهم أن يحملوا كذلك عبء طبقة بيروقراطية تتمثل فى موظفى الدولة وطائفة الكهنة، ثم أصبح على هؤلاء الفلاحين أن يحملوا فوق ظهورهم كذلك أعباء نفقات الجنود المرتزقة الذين أخذ فراعنة الأسرة العشرين وما بعدها يستعينون بهم لصد هجمات أعداء البلاد، فلاعجب أن يتصدع بنيان الحضارة المصرية وتنهار، ثم تتحلل فى نهاية المطاف[3].

---

(١) فؤاد شبل: منهاج توينبى التاريخى، ص ٦٥ - ٦٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٧٠.
(٣) المرجع السابق، ص ٧٠ - ٧١.

ومهما يكن من أمر، فإن المدارس التاريخية التى أشرنا إليها فى مجال تفسير التاريخ، تتناول الأحداث التاريخية من خلال اهتمامات خاصة فى النواحى السياسية والاقتصادية والدينية والقومية، وفى مثل هذه الحالة ترفض تلك المدارس قبول الآراء المعارضة، وذلك على حساب الحقيقة التاريخية. أما الوجهة الأخرى المقابلة لتلك المدارس فى دراسة التاريخ، فهى أن نبدأ دراستنا لأحداث التاريخ بعيداً عن أى اتجاه معين أو نظرية سابقة أو فلسفة مفروضة. فالتاريخ - كما ذكرنا - علم، والعلم من خصائصه البعد عن التحيز، وأن نحاول استعادة الماضى بدراسة ما لدينا من أصول ومواد تاريخية، ثم نكوّن آراءنا ونضع نتائجها بعد الدراسة والتحليل فى أيدى الأجيال الحاضرة.



الفصل السابع

العلوم المساعدة للتاريخ

علم الإنسان(الأنثروبولوجيا)
علم الاجتماع
علم السكان
علم النفس
العلوم السياسية
الجغرافيا
علم الاقتصاد
اللغات
فقة اللغة (الفيلولوجيا)
قراءة الخطوط (الباليوجرافيا)
الأختام
علم الرنوك
علم النميات
الآثار
الوثائق
الأدب

مهنة المؤرخ تشبه معظم المهن، فمن المستحيل ممارستها دون أن تكون لدى المرء بضاعة خاصة من المعلومات الفنية لاتغنى عنها المواهب الطبيعية ولا المنهج. وحول العلوم المساعدة للتاريخ يذكر ما بلى Mably فى كتابه «مبحث فى دراسة التاريخ» بأن هناك دراسات تحضيرية لايمكن للقارىء أيا كان شأنه، أن يستغنى عنها، مثل القانون الطبيعى، والقانون العام، والعلوم الاجتماعية والسياسية. كما تساءل دونو Dauno فى كتابه «محاضرات فى الدراسات التاريخية» عن ماهية الدراسات التى سيحتاج إليها من يكرس نفسه لكتابة التاريخ، فقال بأنها دراسات أدبية وفلسفية وتاريخية، بالإضافة إلى اللغات ومعلومات فى الفيزياء وفى الرياضيات[1]. وقد قال المؤرخ الإنجليزى فريمان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) Freeman إنه من واجب المؤرخ أن يعرف الفلسفة والقانون والمالية والأجناس وعلم الانسان (الأنثروبولوجيا) ، ولهذا فإنه بقدر ما تتعدد الفروع الخاصة فى المعارف التى يكون المؤرخ حجة فيها، يكون أكثر استعداداً لعمله الذى اتخذه مهنة له[2]. ولاريب فى أن ابن خلدون كان أصدق نظرا عندما أوصى بأن يحصل المؤرخ ثقافة اجتماعية تعينه على فهم حوادث التاريخ، وهذا هو ما دعاه إلى إنشاء علم العمران الذى يهدينا إلى معرفة قوانين كل من العمران البشرى، والطبيعة الإنسانية. فإن ذلك هو المعيار الذى ينبغى أن نعتمد عليه لفهم الحوادث الماضية تمهيداً لإمكان تفسيرها[3].

والحقيقة أن كل العلوم على الإطلاق تعد علوماً مساعدة للتاريخ وتفيد الدراسة التاريخية، وذلك لطبيعة التاريخ نفسه، كعلم يتناول جميع

---

(١) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى (الكويت ١٩٧٧)، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠.

(٣) محمود قاسم: المنطق الحديث مناهج البحث (القاهرة ١٩٤٩)، ص ٤٢٩.

الجوانب السياسية والاجتماعية والفنية والفكرية. وسوف نشير إلى العلوم المساعدة للتاريخ، والتى لايستطيع الباحث فى التاريخ إغفالها، مهما كان نوع التخصص الذى سوف يكتب فيه.

علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) Anthropology :

ربما كان علم الإنسان أشد العلوم الاجتماعية ملاءمة للمؤرخين. ذلك أن علماء الانسان والمؤرخين يواجهون مشكلات كثيرة مشتركة، وتظهر بينهم عند بحثها اختلافات متشابهة فى الرأى. والخط الفاصل بين علم الآثار والتاريخ غير واضح، وقد جرى علماء الإنسان على دراسة ثقافة الإنسان البدائى. أما المؤرخون فيدرسون الإنسان المتحضر، وهنا أيضا نجد أن الخط الفاصل ليس حداً قاطعاً[1].

ومن أعظم أسباب التخبط بشأن مكانة علم الإنسان فى باب العلوم الإنسانية، أن مادته كما هى الحال تماما فى التاريخ ذات صبغة عامة. فليس لعلم الانسان وجود منفصل كالطبيعيات، وإنما هو موجود من حيث أنه ميدان يلتقى فيه كل من لهم اهتمام بالإنسان. وقد ظهرت أربعة فروع منفصلة لعلم الانسان هى: علم الانسان الفيزيائى الذى يدرس التطور البيولوجى والتغاير السلالى للإنسان، وعلم الاثار، الذى يسعى إلى اكتشاف طبيعة ثقافات الإنسان فيما قبل التاريخ، وعلم اللغات الأنثروبولوجى الذى يحلل الثقافات الشفوية والمدونة، وعلم الإنسان الثقافى الذى يدرس الثقافات المعاصرة والنماذج الشخصية والعلاقات البشرية[2]. وعلم الانسان يعالج بالضرورة المسائل التاريخية عند تتبعه مجرى التطور البشرى، وانتشار البشرية على سطح الأرض، ونشوء

---

(١) إتكن (هيرج): دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة د. محمود زايد (بيروت ١٩٦٣)، ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧ ـ ٢٨.

الثقافات الإنسانية. ثم إن مناهج علم الآثار وعلم الإنسان الفيزيائى هى فى أساسها مناهج التاريخ مع تعديلات تتطلبها المعطيات[1].

وقد أسهم علماء الإنسان إسهاماً عظيماً فى فن التحليل التاريخى وذلك على وجه التحديد عن طريق تفسير تطور البشرية وشرح أوجه التشابه فيها، فضلا عن توضيح تنوعها والفروق بين نواحيها المختلفة. ومن الطبيعى أن يكون هذا الأسلوب غير ذى موضوع بالنسبة للباحث التقليدى فى التاريخ الذى لايهمه إلا الأحداث الفريدة، ولكن لاغنى عن هذا الأسلوب للمؤرخ الذى يسعى إلى علاج تاريخ الحضارة والثقافة علاجاً علمياً[2].

هذا إلى أن علم الانسان فيما يختص بمسائل الجنس والدين ساعد على تحرير المؤرخ من التعصب الوطنى والفكرى، فمنذ جيل واحد مضى كان أبرز المؤرخين وأكثرهم موضوعية واقعا تحت تأثير جوبينو Gobi-neau بنظرياته الشاذة غير المقبولة القائلة بتفوق الجنس الأبيض وبتفوق المجموعة الآرية من بين هذا الجنس الأبيض. ولم يكن هناك تأثير أكثر ضرراً وإساءة بالموضوعية التاريخية من تأثير الأساطير المتعلقة بفكرة وحدة الجنس وثباته على ما يترتب على هذه الفكرة من الإحساس بتفوق جنسى أو تخلف آخر[3]. كذلك فإن علم الانسان فعل الكثير من أجل الإقلال من التعصب عند تناول مشكلة تاريخ الدين. من ذلك أن التحليل الأنثروبولوجى للأصول الدينية، أوضح أن هناك تشابها كبيراً يظهر فى أصول الديانات وفى الأشكال التى اتخذها رد الفعل تجاه مسائل ما وراء الطبيعة عند شعوب الأرض قاطبة، فضلا عن أنماط السلوك النفسانى المرتبط بالظواهر الدينية[4].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٨. (٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ٢ ص ١٧٩.
(٣) المرجع السابق، جـ٢ ص ١٨٢. (٤) المرجع السابق، جـ٢ ص ١٨٤.

علم الاجتماع:

علم الاجتماع كعلم الإنسان دراسة شاملة شمولا تاماً للأفعال والعلاقات الإنسانية. ويعرّف عالم الاجتماع ميدانه بأنه دراسة للمجتمع وبنائه ووظائفه وعملياته. فإذا نظر أحد إلى الحدود المضمنة فى مثل هذا التعريف فلا يبدو هناك إلا فرق ضئيل بين ميادين علم الإنسان الثقافية أو الاجتماعية وبين علم الاجتماع، وإن كان ثمة اختلافات فيما يختص بمحور الاهتمام وبمناهج البحث(١).

ولقد تشعبت فروع الدراسة التاريخية فى العصر الحديث، فلم تعد تقتصر على سرد التاريخ السياسى فى الدول، وأخبار الملوك والعروش، بل تطرقت إلى دراسة الشعوب والجوانب الاقتصادية والاجتماعية. ويعرّف لنا المؤرخ البريطانى تريفليان التاريخ الاجتماعى على أنه «الحياة اليومية لسكان الأرض فى العصور الخالية. ويشمل هذا العلاقات الإنسانية والاقتصادية بين بعض الطبقات المختلفة وطبيعة حياة الأسرة والحياة المنزلية وظروف العمل والفراغ وموقف الناس من الطبيعة، وثقافة كل عصر عندما انبثقت من ظروف الحياة تلك واتخذت ألوانا دائمة التغير من الديانة والأدب والموسيقى وهندسة البناء والعلم والفكر». ويقول إجمالا: «بدون التاريخ الاجتماعى يصبح التاريخ الاقتصادى عقيما، ويصبح التاريخ السياسى غير قابل للاستيعاب»(٢).

علم السكان:

ويتناول علم السكان أحجام الشعوب وتكوينها وتوزيعها الجغرافى، والتغيرات التى تصيبها وأهمها التكاثر والوفيات والهجرات. وقد كان لعلم

---

(١) إتكن دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ص ٣٤.

(٢) راوس: التاريخ، ص ٦٠.

السكان فيما مضى صلات وثيقة بعلوم طبيعية وطنية معينة مثل الإحصاء وتقدير الأعمار والأوبئة والجغرافيا البشرية. وبالتوسع فى تفسير المجال الذى تتناوله دراسات السكان نشأت علاقات أوثق بين هذا العلم والعلوم الاجتماعية وخاصة الاقتصاد والاجتماع وعلم النفس. كما ازداد استعمال مفردات هذه الميادين ومفهوماتها. ويستطيع الإنسان أن يلحظ الزيادة فى عدد الدراسات التاريخية خلال العقد الماضى من السنين أو خلال ما يزيد قليلا عليه(١).

علم النفس:

يعتبر علم النفس بفروعه المختلفة من العلوم اللازمة لدراسة التاريخ. فعلماء النفس الذين لهم دراسة بالمنهج التاريخى، والمؤرخون الذين لهم دراية بمبادىء علم النفس وتقنيه، يستطيعون عن طريق دراسة الشخصية من مواقع صور الشخصيات التاريخية، أن يجعلوا مثل هذا العلم القائم على دراسة الشخصيات أكثر رسوخا، وأكثر دقة، وأكثر تنوعا(٢).

ولكى يفهم المؤرخ تاريخ العلوم أو الفنون فى بلد معين وفى فترة محددة، لابد من دراسة علم النفس الاجتماعى، لأنه بدون دراسته من الصعب فهم التطور المادى فى المجتمع. وما من واقعة تاريخية إلا ويسبقها ويرافقها ويعقبها حالة من حالات الشعور والوعى، ومن هنا تأتى دراسة السيكولوجية الاجتماعية للمجتمع الذى نتناول دراسته فى فترة زمنية معينة، وبدون ذلك لايمكننا أن نخطو خطوة واحدة فى مجال فهم تيارات الأدب والفن والفلسفة والأغنية التى ترجم سيكولوجية الشعب إزاء قضايا معلنة أو مكبوتة(٣).

---

(١) إتكن: المرجع السابق، ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) لويس جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٣) سيد الناصرى: فن كتابة التاريخ، ص ٢٣١

إن دراسة السيكولوجية الاجتماعية تساعد المؤرخ على أمرين فى غاية الأهمية بالنسبة للبحث التاريخى: أولهما تشخيص الحقائق التاريخية، وثانيهما وضع تفسير ومبادىء لتفسير هذه الحقائق. فضلا عن أن المؤرخ يستطيع أن يكسب ويتعلم أشياء جديدة من علم النفس الاجتماعى مثل مفهوم عقدة النقص عند القادة والشعوب والانطواء والكبت وغيرها من سائر الأمراض النفسية التى تنتشر فى مجتمع معين. كل ذلك بالتأكيد سوف يهذب الكفاية الإدراكية للمؤرخ ويساعده على إعادة اكتشاف ما هو واضح[١].

ويستطيع التاريخ أن يستقى من علم النفس معظم المعلومات الهامة المتعلقة بطبيعة دوافع وأنماط وضوابط التصرفات البشرية. فالعقل هو العامل الموحد والمنسق فى الفرد والمجتمع على السواء. وينبغى أن نتبين أنه يستحيل على المؤرخ أن يفهم أنماط سلوك الناس فى الماضى دون أن يكون مزوداً بقدر كاف من المعرفة عن السيكولوجية العامة للسلوك البشرى[٢].

ويمكن إدراك أهمية صلة علم النفس الاجتماعى بالتاريخ، فى تفسيرات ظهور «الرجل العظيم»، على الرغم من أن بعض المؤرخين يختلفون فيها، ويقدمون تفسيرات اقتصادية فى المقام الأول. وهناك دراسة أخرى لها صلة قوية بعلم التاريخ وهى دراسة سيكولوجية الزعامة والقادة الذين غيروا وجه التاريخ، إذ اعتاد علماء النفس الاجتماعى أن يلتمسوا فى الزعماء صفات معينة من الشخصية تمكنهم من أداء دورهم بنجاح متفاوت، الأمر الذى يجعل المؤرخ قادراً على تحليل قراراتهم[٣].

---

(١) إتكن: دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ص ٥٥، سيد الناصرى: المرجع السابق، ص ٢٣٢.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ٢ ص ٢٠٨.

(٣) إتكن: المرجع السابق، ص ٦٤.

العلوم السياسية :

لاتزال الأحداث السياسية هى الأساس العادى فى التركيب التاريخى، ولذلك يميل المؤرخون إلى الاعتقاد بأنهم على اطلاع كاف فى ميدان الحكم أو علم السياسة[1] . ومن أهم الجوانب التى يغطيها علم السياسة العلاقات الدولية أو ما يعرف بالدبلوماسية .والمؤرخ بالتأكيد يهمه هذا الجانب لأنه كما قال بعض الفلاسفة «التاريخ هو علم السياسة فى الماضى» . وعلم السياسة هو علم تاريخ المستقبل، فالعلاقات بين الدول والمعاهدات التى تعقد بينها تشكل اتجاه السياسة العالمية وقيام التحالفات القومية والعسكرية، كذلك فإن قيام الحروب، وعقد معاهدات السلام، كل ذلك وليد علم السياسة من ناحية، والمصدر الأول للمعلومات بالنسبة للمؤرخ من ناحية أخرى. وفى كثير من الأحيان يصعب على المرء الفصل بين التاريخ المعاصر والسياسة خاصة فى المجال الدولى، فالعلاقات الدوليةوما يترتب عليها من نتائج هى المادة الأولى التى يصنع منها المؤرخ مادته التاريخية، خاصة فى العصر الحديث، حيث تشابكت المصالح الدولية، ولم يعد هناك دولة واحدة تعيش فى معزل عن الأخرى أو لا تتعامل معها[2] .

الجغرافيا :

ترتبط الجغرافيا إرتباطا وثيقا بالتاريخ، وهى من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة التاريخ، فالأرض هى المسرح الذى حدثت عليه وقائع التاريخ، وهى ذات أثر كبير فى توجيه مصائر البشر. وللظواهر الجغرافية المختلفة أثر كبير فى حياة الإنسان وتكوينه النفسى، وفى قوانينه وشرائعه، وفى نظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

---

(١) سيد الناصرى: فن كتابة التاريخ، ص ٢٤٣ .

(٢) راوس: التاريخ، ص ٦٢ .

وقد تحكمت الجغرافيا فى ظهور الحضارات فى مواقع محددة، كما منعتها الظهور فى مواقع أخرى. وتحكمت فى اتصالها وصدامها وتفاعلها فى أقاليم اختارتها الجغرافيا ولم يخترها التاريخ ولا الإنسان، للدرجة التى كان فيها بعض من أعظم النظريات فى تفسير التاريخ ذا أساس جغرافى، مثل نظرية التحدى لتوينبى، ونظرية المادية التاريخية التى تمتد جذورها الاقتصادية فى الإنتاج وفى المجتمع. وبدون المكان الجغرافى يقف التاريخ فى الفراغ، وليس من حدث يجرى فى فراغ(١).

ومنذ عهد التوسع الأوربى فيما وراد البحار اعتباراًمن سنة ١٥٠٠م فصاعداً، وعلى الأخص منذ سنة ١٨٧٠م أصبحت جغرافية العالم مادة ذات أهمية بالغة ومتزايدة بالنسبة للمؤرخ. ولايوجد هناك من يستطيع أو يأمل أن يكتب كتابة ممتازة عن التوسع الأوربى ما لم يكن على دراية تامة بمعالم وموارد المناطق التى تم اكتشافها واستعمارها واستغلالها(٢).

ومما يوضح لنا أثر الجغرافيا فى التاريخ أنها أحيانا تتدخل تدخلاً حاسما فى تغيير مجرى التاريخ. فعلى سبيل المثال اختار الإمبراطور الرومانى قنسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧م) مكان بيزنطةالقديمة على البوسفور، على النتوء البارز فى المكان المعروف حاليا باستنبول، واحتفل بافتتاحها يوم ١١ مايو سنة ٣٣٠م. ومن الناحية الجغرافية تقع تلك المدينة عند التقاء قارتى آسيا وأوربا، إذ يحدها البوسفور من جهة الشرق، والقرن الذهبى من جهة الشمال، وبحر مرمرة فى الجنوب، ولايمكن الوصول إليها براً إلا من جهة واحدة. أما من الناحية الاستراتيجية، فأرضها تشكل مثلثا تحمى المياه ضلعيه، أما الضلع الثالث فقد حمته

---

(١) شاكر مصطفى: «التاريخ هل هوعلم؟»، ص ١٨٣، عالم الفكر أبريل - مايو - يونيو، العدد الأول، الكويت ١٩٧٤.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠.

الأسوار المنيعة التى أقامها الحكام. يضاف إلى ذلك أن القسطنطينية صارت أهم مراكز التجارة العالمية، وبفضل مزاياها ظلت قادرة على الوقوف فى وجه المسلمين، والحفاظ على الإمبراطورية الشرقية لمدة تربو على الألف عام(١).

وكذلك فقد ساعدت العواصف وهياج البحر الأسطول الإنجليزى فى سحق الأرساد الأسبانية الضخمة فى سنة ١٥٨٨م، مما أدى إلى هبوط أسبانيا فى مجال القوة والسيطرة، وارتفاع شأن إنجلترا. كما أن سهول روسيا الشاسعة وشتاؤها القارس وثلوجها، كانت عوامل أدت إلى إخفاق حملة نابليون عليها فى سنة ١٨٢٢، وتكرر نفس الشيء عندما زحفت جيوش هتلر عليها من بحر البلطيق حتى البحر الأسود فى الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤١م(٢).

ولدراسة تاريخ مصر لابد من معرفة أثر موقعها الجغرافى على تطور تاريخها. فقد حبت الطبيعة مصر ببيئة جغرافية فريدة ممتازة، ففيها يجرى نهر النيل العظيم الذى لعب دوراً هاماً فى توحيد واديه، وأوجد سبل التضامن والنظام والطاعة بين سكانه فى مختلف العصور التاريخية. ولاشك أن موقع مصر الجغرافى لعب دوراً خطيراً فى حياتها وأثر فيها، فمصر تتوسط البحرين المتوسط والأحمر، أولهما يربط مصر بالغرب الأوربى والمحيط الأطلسى، وثانيهما يصل مصر بالمحيط الهندى، على أن هذا الموقع كان نعمة لمصر فى فترات قوتها ووبالا عليها فى فترات ضعفها. ففى العصور التى استمسكت فيها مصر بوحدتها، ازدهرت حضارتها، وامتد نفوذها، وردت الطامعين فى أرضها، وفى العصور التى انحلت فيها وحدتها، وعمتها الفوضى، طمع فيها الطامعون، وسعى إليها

---

(١) محمود الحويرى: سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ٤٢ - ٤٣.
(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ٣٤.

الغزاة من أدنى الأرض وأقصاها، وصارت مصر الضعيفة أداة يسخرها العالم ويستغل موقعها، ويوجهها وجهات كثيرة، قد غيرت عليها أكثر من مرة مظهر ثقافتها،وإن لم تستطع أن تغير من أسس حضارتها الأولى[1].

وقد أثرت التضاريس فى طابع مصر، فعاش المصريون فى واديهم الطويل الضيق على ضفاف النيل، تفصلهم عن العالم الخارجى صحراوات شاسعة على الجانبين، تقيه كأنها الدروع شر الغزوات، ولذلك كان الشعب المصرى دائما يكاد أن يكون منفصلا عن العالم المجاور له، وفضلا عن ذلك كان للصحارى أثرها المعروف، والذى تمثل فى أن عبورها كان عسيراً على المهاجرين من الرعاة، فلم يصل مصر منهم إلا عناصر قليلة، بل كان سببا فى أن مصر لم يصلها فى أى وقت من الأوقات هجرات كبيرة العدد، تغير معالم سكانها الجنسية تغييراً أساسياً، كما حدث فى بعض البلاد المجاورة الأخرى[2].

وعلى أية حال، ينبغى على المؤرخ أن يكون على دراية بالأحوال الجغرافية للمكان الذى سيتناوله بالدراسة، ولقد بلغ من أهمية الارتباط الوثيق بين الجغرافيا والتاريخ أن ظهرت نظرية لتفسير التاريخ عن طريق الجغرافيا كما سبق أن ذكرنا.

علم الاقتصاد:

يرتبط علم الاقتصاد ارتباطا وثيقا بدراسة التاريخ، بل إن بعض المؤرخين يؤثرون العامل الاقتصادى كعامل محرك لأحداث التاريخ، ومن ثم ولد تخصص جديد هو التاريخ الاقتصادى كفرع من فروع

---

(١) محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، ص ٩.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

التاريخ الأخرى مثل التاريخ الاجتماعي والسياسي. ولاشك أن الثروة الطبيعية في بلد ما تحدد نوع الإنتاج الزراعي والصناعي والتجاري، ومدى تركيز تلك الثروة في يد طبقة أو طبقات معينة. ومن المعروف أن الوضع الاقتصادي يؤثر في علاقته بالعالم الخارجي، وكذلك يؤثر في مستوى قوته العسكرية، ومركزه في المجتمع الدولي.

ومن الأمثلة على أثر الظروف الاقتصادية في أحداث التاريخ ما نلاحظه من أن بلاد مصر وما بين النهرين كانت تنعم باقتصاد قوي وتكاد أن تكون مكتفية ذاتيا، ومن ثم لم تسعى هذه البلاد إلى التوسع الاقتصادي خارج حدودها، بعكس الإغريق الذين كانت مصادرهم الطبيعية محدودة ولاتنتج ما يفي بحاجة سكانها، مما جعل الانتشار الاستيطاني للإغريق أمراً ملحا، كما يقال أن الإسكندر المقدوني خرج على رأس جيوشه نحو الشرق ليضع حلا لمشكلة التزايد السكاني في بلاد الإغريق ونضوب المصادر الطبيعية(١).

وقد كان من الممكن أن تبقى الإمبراطورية الرومانية المتأخرة في الغرب الأوربي أمداً أطول رغم الانحلال الذي دب في كيانها لولا هجمات البرابرة وغزواتهم التي أسرعت بالإمبراطورية نحو تقويض دعائمها. وذلك أنه عندما اقتربت القبائل البربرية من حدود الإمبراطورية بهرت عيونها ما تتمتع به بالإمبراطورية من ازدهار وتقدم ورخاء ومناخ لطيف معتدل، فآثرت بغزواتها وتجوالها السلمي، مشاركة الامبراطورية ثرواتها وخيراتها من ناحية، وإيجاد مكان أمين للعيش بين ظهرانيها من ناحية أخرى(٢).

---

(١) سيد الناصري: فن كتابة التاريخ، ص ٢٣٧.

(٢) محمود الحويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ٩٦.

ويرى البعض أن العامل الاقتصادى كان من بين العوامل الهامة التى أدت إلى اندفاع العرب ـ عند ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى ـ من شبه الجزيرة العربية، التى يغلب على أكثرها الطبيعة المجدبة، إلى سهول العراق الفسيحة وربوع الشام المورقة[1]. وفى هذا الصدد يزعم المؤرخ الإنجليزى توماس أرنولد[2] وغيره من أن العرب قاموا بفتوحاتهم الكبرى فى القرن السابع الميلادى بسبب دوافع اقتصادية جعلتهم حريصين على الخروج من دائرة بلادهم الجرداء إلى بلاد أخرى كثيرة الموارد وفيرة الخيرات، وفى ذلك يقول: «إن الحماسة الدينية، وبواعث العقيدة لم تكن تسربت إلاقليلا فى نفوس أبطال الجيوش العربية». ومن الواضح أن هذا الرأى يتضمن الكثير من المبالغة، لأنه يغفل أثر الحماس الدينى، والرغبة الصادقة فى الجهاد والتضحية والاستشهاد. ويشجب المؤرخ أرنولد توينبى[3] الإدعاء القائل بأن القوة المادية هى العامل الحاسم فى انتشار الإسلام، فعندما خرج العرب المسلمون من شبه جزيرتهم لنشر الإسلام فى أنحاء العالم المعروف وقتذاك، وواجهوا الإمبراطورتين الرومانية والفارسية، لم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل، ولكن بين الإسلام أو الجزية، وتلك سياسة مستنيرة أجمعت الاراء على امتداحها.

وكانت الظروف الاقتصادية واضحة الأثر فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وفى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، وفى العلاقات بين الدول الكبرى والصغرى بعضها وبعض، وهى من الأسباب الرئيسية للمشاكل المختلفة البادية فى شتى أنحاء العالم. وستظل

---

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ٣٧.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن ابراهيم حسن وزميليه (القاهرة ١٩٧٠)، ص٦٤.

(٣) فؤاد شبل: توينبى، مبتدع المنهاج التاريخى الحديث، ص ٨٦ ـ ٨٧.

الظروف الاقتصادية عاملا هاماً فى توجيه مصائر الشعوب بل الانسانية جميعها.

ومهما يكن الأمر، فينبغى على المؤرخ أن يدرس الأحوال الاقتصادية للعصر الذى يتناوله بالدراسة، وأن يتفهم النظريات الاقتصادية المختلفة دون أن ينحاز إلى إحداها. وقد رأينا من قبل ما أسهمت به المدرسة المادية فى تفسير التاريخ، بعد أن بدأ الاقتصاد ينتظم كعلم من العلوم فى القرن الثامن عشر مع ظهور الثورة الصناعية فى أوربا.

اللغات:

وإلى جانب العلوم التى ذكرناها، والتى تجعل الباحث فى التاريخ على درجة واعية من الثقافات، هناك مجالات أخرى للإبداع الإنسانى تفيد الباحث مثل ألوان الأدب والفنون المختلفة. واللغات من أهم العلوم المساعدة التى ينبغى أن يتزود بها الباحث، فلا يعقل أن يبدأ الباحث رحلة البحث الشاقة دون أن يكون عارفا باللغة الأصلية الخاصة بالموضوع التاريخى الذى يدرسه، سواء اللغات القديمة مثل المصرية القديمة، أو اليونانية واللاتينية الكلاسيكية، أو اللغات السامية القديمة أو لاتينية العصور الوسطى بالنسبة لتاريخ أوربا العصور الوسطى، ومن يرغب فى الكتابة عن ناحية من تاريخ عصر النهضة لابد له من الإلمام باللغة الإيطالية.

وكلما تعددت اللغات الأصلية القديمة أو الحديثة التى يلم بها الباحث اتسع أمامه أفق البحث. وقد يبدو مسألة تعلم اللغات أمراً عسيراً، ولكنها دراسة أساسية لمن يرغب جديا فى دراسة التاريخ وكتابته[1]. ذلك أن الجهل التام باللغات المعتادة للعلم - الألمانية والإنجليزية والفرنسية

(١) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى، ص ٣٦ هامش ١.

والإيطالية ـ، هو فرض يصبح مع السن غير قابل للعلاج، وليس من المبالغة أن نطلب من كل من يرشح نفسه لممارسة مهنة علمية أن يكون على علم بثلاث لغات على الأقل، أى أن يفهم بغير عناء لغتين حديثتين، بخلاف لغته الأصلية[1].

ويظن البعض أن الترجمات تكفى فى هذا الصدد، ويدعون أنه ليست هناك حاجة لمعرفة لغة النص الأصلى مادام هناك يتواجد المترجمون. وهذا هو الخطأ بعينه، فإذا وجدت الترجمة فى مجال بحث معين فهى لاتوجد فى الآخر، فإمكانية الترجمة غير متوفرة، وليست كل المواضيع يعنى المترجمون بترجمتها. وثمة تخصصات معينة قد تستهوى المترجمين، أما غالبية التخصصات فلا تجد من يقبل على ترجمتها إما لصعوبتها أو لعدم الحاجة إليها. والواقع أنه لايصح للباحث أن يضع نفسه تحت رحمة غيره وأن يسمح لنفسه أن يستجدى عطف وإحسان الآخرين. وحتى لو وجدت الترجمة فكثيراً ما يوجد الخطأ فيها خاصة إذا كان المترجم محترفا للترجمة وغير متخصص. ولقد أثبتت التجارب أن الباحث التاريخى الذى يجيد بعض اللغات الأوربية، يكون فى الغالب أكثر ثقافة وأشمل إطلاعا فى مجال تخصصه[2].

ومما يدل على أهمية اللغات للباحث فى التاريخ ما نعرفه عن الآثار المصرية، فقد أهملت تلك الاثار فترة طولة، وانطوت فى زوايا النسيان، بل تعرض جانب كبير منها للتدمير والاندثار، بعد أن انمحت الوثنية من مصر، وحلت محلها المسيحية ثم الإسلام. واستمر الوضع على هذا النحو إلى أن عثر على حجر رشيد، وحلت رموز اللغة المصرية التى اختفت

---

(١) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى، ص ٣٦ هامش ١.

(٢) عطية القوصى: علم التاريخ، ص ١٢٣.

بالقضاء على الوثنية فى القرن الرابع الميلادى. وقد عثر ضابط بسلاح المهندسين فى حملة نابليون بونابرت على مصر على هذا الحجر فى صيف عام ١٧٩٩م بالقرب من مصب فرع رشيد. وقد أرسل الحجر بعد ذلك إلى المجمع العلمى المصرى بالقاهرة، حيث اهتم به العلماء(١).

وحجر رشيد عبارة عن كتلة من البازلت يبلغ طولها ١١٣ سنتيمتراً وعرضا ٧٥,٥ سنتيمترا وسمكها ٢٧,٥ سنتيمترا، وهى مهشمة الجوانب، فقد جزؤها العلوى. وقد دون على وجه الحجر الأملس نقش كتب باللغتين المصرية القديمة واليونانية. وقد سجل النص المكتوب باللغة المصرية بخطين: الخط الهيروغليفى وهو الخط المقدس أو خط كلام الآلهة كما أطلق عليه النص نفسه، وهو يضم أربعةعشر سطراً فقط فى القسم العلوى من الحجر، والخط الديموطيقى وهو الخط الشعبى الدارج فى عصور مصر المتأخرة أو الخط الوطنى على حد تعبير النص، وهو يضم اثنين وثلاثين سطراً فى القسم الأوسط من الحجر. أما الجزء المكتوب باللغة اليونانية وهى لغة البلاط الرسمى، وقتئذ، فقد ضم أربعة وخمسين سطراً فى القسم الأسفل من الحجر. ويرجع الفضل فى الكشف عن أسرار وأصول تلك الكتابة إلى العالم الفرنسى الكبير جان فرنسوا شمبليون Jean François Champolion (١٧٩٠ - ١٨٣٢)، ومنذ ذلك الوقت بدأ العلماء فى ترجمة النصوص والوثائق المصرية - نقوش وأوراق بردى - التى كانت قبل ذلك بمثابة طلاسم وألغاز من الصعب حلها(٢).

وكذلك فإن العلماء المختصين بالدراسات الآشورية قد أخذوا ينشرون ويترجمون، منذ أن تمكن سيرهنرى رولنسن H. Rawlinson فى عام ١٨٤٧ من حل رموز الكتابة المسمارية الفارسية القديمة، وفى عام ١٨٥٠

---

(١) عبدالحميد زايد: مصر الخالدة، ص ١١٦ - ١١٧.
(٢) المرجع السابق، ص ١١٧ - ١١٨.

من حل رموز الكتابة المسمارية البابلية، أخذوا ينشرون النصوص التى وجدت على قوالب الصلصال المتخلفة عن حضارات بلاد ما بين النهرين القديمة[١].

فقه اللغة: الفيلولوجيا Philology:

تعتبر الفيلولوجيا من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة التاريخ، وتزداد أهمية الفيلولوجيا كلما بعد العصر الذى نتناوله بالدراسة، ذلك أن اللغة كائن حى ينمو ويتغير ويتطور تبعا لظروف المكان والزمان، واختلاط الثقافات. وفى بعض الأحيان قد يدل اللفظ اللغوى على معنى محدد تماما، كمايمكن أن يدل اللفظ اللغوى على معان مختلفة باختلاف استخدامها عند كاتب بعينه. ولذلك فلابد من معرفة اللغة التى يقرأ فيها دارس التاريخ، فضلا عن الدراية بمانال ألفاظها من المعانى المتفاوتة أو المختلفة، حتى لايفسر ما ايقرأ على غير حقيقة[٢]. وتنشأ بعض الأخطاء التاريخية عادة بسبب رداءة فهم المؤرخ للدلالات الحقيقية للكلمات أو بسبب جهله لقوانين اللغة وقواعدها[٣].

قراءة الخطوط: الباليوجرافيا Paleography :

ويتصل بدراسة اللغات علم قراءة الخطوط، وهو من العلوم الأساسية لدراسة نواح كثيرة من التاريخ، ويستخدم فى قراءة خطوط اللغات القديمة كاللغة الفرعونية والإغريقية القديمة واللغة اللاتينية. ومن البديهى أن من يحاول دراسة التاريخ المصرى القديم مضطر بطبيعة بحثه إلى معرفة الكتابة الهيروغليفية. وتقل أخطاء دارس الوثائق كلما

---

(١) لويس جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ١٤٨.
(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ٢٧.
(٣) محمود قاسم: المنطق الحديث ومناهج البحث، ص ٤٣١.

ازداد إلمامه بهذا العلم. إذ من المهم أن يكون المؤرخ قادراً على قراءة الوثائق وفهمها، حتى يحسن استخدامها، فمعرفة اللغة الفارسية ضرورية لمن يريد التخصص في دراسة إحدى الدويلات التي انقسمت إليها الدولة العباسية التي غلبت عليها ملوك من أصل فارسي، كدولة بني بويه مثلا. وبالمثل لايستطيع باحث أن يدرس أثر المسلمين في أوربا في العصور الوسطى إلا إذا كان ملماً باللغة اللاتينية(١).

ولقد نمت الخطوط العربية مثلا وتطورت وكتبت بأشكال مختلفة. فمنها الطومار (نسبة إلى قلم الطومار في عصر المماليك)، ومنها النسخي والرقعة والثلث والكوفي والفارسي، والمغربي والغبار (نسبة إلى دقته وكأنه ذرات الغبار). وفي الشرق الأدنى العثماني كتبت الوثائق العثمانية بعدة خطوط، مثل الخط الديواني، وخط القيرمة (من قيرمق التركية بمعنى الثني والتكسير)، وتستلزم قراءة هذين الخطين تعليما خاص(٢). ومن ثم فإن دراسة الخطوط لازمة للباحث في التاريخ، حتى يمكنه الرجوع إلى الوثائق التي دونت بها.

الأختام:

وينبغي على الباحث في التاريخ دراسة الأختام التي تمهر بها الوثائق المتعلقة بالمكاتبات الرسمية للدولة، وهي ذات أنواع وأشكال مختلفة، وتختلف من عصر لعصر ومن دولة لأخرى. وقد شاع استخدام أختام الشمع منذ أزمان بعيدة ولاتزال مستخدمة حتى اليوم. ووجدت الأختام المعدنية وخاصة من الرصاص، واستخدمها البابوات والملوك والأمراء بخاصة في أزمنة مختلفة. ووجدت أختام الذهب ولاسيما عند ملوك

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.
(٢) حسن عثمان: المرجع السابق، ص ٢٨.

الفرنجة الكارولنجيين[١] فى خلال العصور الوسطى وظلت تستخدم عند بعض الأسرات الحاكمة حتى أزمنة حديثة. ولاشك أن معرفة أنواع الأختام تفيد الباحث فى التأكد من صحة الوثائق التى يقوم بدراستها[٢].

علم الرنوك Heraldry:

ومن العلوم المساعدة فى دراسة التاريخ علم الرنوك وهى العلامات المميزة التى تظهر على الأختام أو الدروع أو على ملابس النبلاد والفرسان والجند أو على الرايات. ولقد عرفت الشعوب الرنوك على مدى العصور، ومن أشكال الرنوك نجد الكأس والسيف والدواة والنسر والهلال والصليب وذيل الحصان وزهرة الزنبق[٣]. ويقول القلقشندى[٤] المتوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م): «ومن عادة كل أمير كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه.. بحسب مايختاره ويؤثره، ويجعل ذلك دهانا على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم، كمطابخ السكر، وشون الغلال، والأملاك والمراكب وغير ذلك، وعلى قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص، ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة تنقش على العبى والبلاسات ونحوها، وربما جعلت على السيوف والأقواس وغيرها». ومعرفة الباحث

---

(١) ظهر الفرنجة خلال النصف الأول من القرن الثالث الميلادى، بنزولهم فى الحوض الأدنى لنهر الراين فى مجموعتين هما: الفرنجة البحريون أو الساليون أى الذين ينزلون قرب البحر، والفرنجة البريون أو الريبواريون أى الذين يقيمون على شاطىء النهر. ويعتبر شلوجيو (ت ٤٤٨م) أول ملوك الفرنجة الساليين فى بلاد الغال (فرنسا الحالية)، وأتى من بعده ميروفيتش وسميت بإسمه الأسرة الميروفنجية التى حكمت الفرنجة حتى عام ٧٥١م، حيث عزل آخر الملوك الميروفنجيين، وبدأت الأسرة الكارولنجية أشهر أسرات الفرنجة. أنظر محمود الحويرى: روية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ١٤٨ ـ ١٥٦.

(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ٣١.

(٣) المرجع السابق، ص ٣١ ـ ٣٢.

(٤) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، جـ ٤ ص ٦١ ـ ٦٢.

فى التاريخ بالرنوك تجعله قادراً على إثبات صحة ما يقع تحت يده من الدروع أو الأسلحة أو الوثائق أو ما شاكل ذلك.

علم النميات Numismatics:

أما علم النميات (أو النومات) أى علم النقود والمسكوكات، فهو من العلوم الهامة فى دراسة جوانب من التاريخ. ويتناول هذا العلم النقود القديمة التى بطل تداولها،والتى أصدرتها السلطة الحاكمة بهدف تيسير التعامل، وتحمل على كل وجه من وجيهيا رسماً أو نقشاً بارزاً ذا طراز خاص عن موضوع معين. والعملة بما تحمله من صور الآلهةوصور الملوك والأمراء وأسمائهم، وذكرى الحوادث التاريخية، وسنوات ضربها تقدم للباحثين مادة تاريخية قيمة بالنسبة للتاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى فى الشرق والغرب على السواء[1].. ومن المعرف أن العملة هى المقياس الدقيق للتجارة ولنفوذ الدولة وقوتها، وقديماً كانت الدول تحرص على ثبات وزن عملتها ونقاوةمعدنها سواء من الذهب أو الفضة، وكانت أى دولة تتعرض لمتاعب اقتصادية تلجأ إلى تخفيض وزن العملة . فعلى سبيل المثال أدى استمرار الإنهيار الاقتصادى فى الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث الميلادى إلى حدوث آثار سيئة على قيمة العملة النقدية المتداولة فى ولايات الإمبراطورية. فالغزوات الجرمانية التى تعرضت لها الإمبراطورية فى هذا القرن، بما تخللها من نهب المزارع وإحراقها، وإفساد المحاصيل، وترك مساحات هائلة من الأراضى الزراعية خرابا، والحاجة الماسة إلى المال لدفع رواتب الجند، أجبرت الأباطرة على إنقاص قيمة العملة المتداولة. ويلاحظ أن قيمة العملات أخذت فى الهبوط المستمر منذ عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ ـ ١٨٠م)،

---

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ٣٢.

حتى صارت فى عهد الإمبراطور جاليانوس (٢٦٠ ـ ٢٦٨) عملات نحاسية مغطاة بطبقة رقيقة من الذهب أو الفضة. والأمر الذى لاخلاف فيه أن إنقاص العملة وما صاحبها من ارتفاع كبير فى الأسعار، أديا إلى «التضخم» inflation، وكذلك رفض من يمتلك عملة سليمة التعامل مع العملات المخلوطة الشائبة[١]. ويمكن القول إن وجود عملة مستقرة فى أية دولة قديما أو حديثا يأتى دليلا على ازدهار النشاط التجارى فيها، وغياب تلك العملة أبلغ دليل على ارتفاع الأسعار، واختفاء الانتاج الكبير، وازدياد التضخم، ويستطيع المؤرخ أن يثبت ذلك عن طريق دراسة شاملة للعملة.

الآثار:

وتعد الاثار أهم المصادر التى يعتمد عليها الباحث فى التاريخ لجمع المادة العلمية لموضوع بحثه، كما أن الآثار تساعدنا إلى حد كبير فى سد الفراغ الذى نلمسه فى المصادر الأدبية والتاريخية، فضلا عن أنها تصحح فى بعض الأحيان أخطاء تاريخية مشهورة .ففى المقام الأول نجد أن آثار المصريين القدماء الآن المصدر الأول الذى يجد فيه المؤرخ أصدق العناصر التى تعينه فى دراسة تاريخ مصر القديم، وعلى تصوير الحضارة المصرية فى نواحيها المختلفة. ولعل أهم ما يميز تلك الآثار عن غيرها من المصادر أنها المصدر الوحيد الذى عاصر الأحداث والذى أشركه المصريون عن قصد أو بغير قصد فى الكشف عن تاريخهم، وتخليد حضارتهم[٢]. وتشمل هذه الآثار المعابد والأهرام والمقابر والمسلات والتماثيل واللوحات والتوابيت وقطع الشقاف وأوراق البردى، وكافة ماالستعمل فى الحياة اليومية. ويرجع السبب فى وفرة تلك المخلفات إلى العقيدة الدينية التى قضت أن يتزود المصريون لحياتهم الآخرة على

---

(١) محمود الحويرى: رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية، ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) عبدالحميد زايد: مصر الخالدة، ص ١١٥.

نحـو مـا كـانوا يفـعلون فـى حـيـاتهم الدنيـا، وإلى تقـدمـهم فـى الفنون والصناعـات والبناء، مما أتاح لـهم وضع ذلك التـراث المنقطع النظيـر، ثم إلى جفـاف مناخ مصـر الذى ساعد على حفظ تلك الآثار حـتى وصلت إلينا سليمة(١).

الوثائق:

والتـاريخ لايمكن أن يقـوم إلاعلى أسـاس من الـوثائق، وهذه الـوثائق تنقـسم إلى آثار أو مـخلفـات خطيـة أو روايات أو نـقـوش، ولهـذا يجب أن تكون الخطوةالأولى فى المنهج التـاريخى هى خطوة البـحث عن الـوثائق المتعلقة بحادث من الأحداث التاريخية. فعلينا أولا أن نجمع كل ما يمكن جمعه من الوثائق المتـعلقة بعصـر من العصـور أيا كـان نوع هذه الوثائق، والخطأ الأكـبر الذى يقع فـيه المؤرخـون إنما كـان ينشـأ دائمـاً عن كـونهم لاتتوافر لديهم كل الوثائق المتعلقة بالحادث موضوع الدراسة. ولم ينهض التـاريخ نهضـتـه الحـقيـقيـة إلا بعد أن هيأت المكتـبات والمتـاحـف ودور المحـفوظات التى تضم الأشتات المختلفة لموضوع واحد فى مكان واحد، مـيسـرة بهذا المؤرخ أن يقـوم بعمله. وبعد جمـع الوثـائق نـخضـعها للتدقيق والنقـد والفـحص، فـلا يقبل منهـا إلا مـا يثبت صـحـتـه، ثم ربط الحـقـائق بعضـهـا ببعض واسـتـخـلاص صـورة منها للمـاضى، إن لم تكن صـادقة تماما، فـهى أقرب ما تكون إلى ذلك. وتبقى هذه الصـورةخـاضعة للتبديل والتـعديل حـسـبمـا يظهـر من أصـول جـديدة، أو مـا يكتـشـف من حـقـائق مجهولة(٢).

وهذا الأسلوب العلمى - كمـا رأينا من قبل - نجـده عند علمـاء الحـديث الأوائل فى تاريخنا الإسلامى، فقد اهتموا بدراسة أقوال النبى ﷺ وأفعاله،

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ص ٤٢ - ٤٣.

كذلك كان علم التاريخ عند المسلمين يهدف فى البداية إلى دراسة سيرة النبى الكريم وأعمال الصحابة والجماعة الإسلامية الناشئة وأخبار الغزوات والجهاد. وهكذا نرى أن طبيعة علم التاريخ لم تكن تختلف أولا عن طبيعة علم الحديث، اللهم إلا فى هدف كل منهما ونوع الروايات التى يعنى بها، فالمحدثون يعنون بالروايات التى تقرر مبادىء فقهية أو خلقية، بينما يعنى المؤرخون بالروايات التى تتجه إلى سرد الحوادث. والمعروف أن المحدثين عنوا بالإسناد عناية كبيرة وكانوا لايثقون بالحديث إلا إذا كان إسناده سلسلة متصلة من الرواة الموثوق بهم، وكان هذا كله أساساً لعلم نقد الرواة وهو المعروف فى مصطلح الحديث باسم «الجرح والتعديل»[١].

الأدب:

والأدب وثيق الصلة بالتاريخ، وهو تعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه، وهو يصور أحلام البشر وأمانيهم وواقعهم، ويرسم جوانب مختلفة من حياة الأفراد والجماعات. وقد دأب كثير من المؤرخين على كتابة أبحاثهم بأسلوب يتم على حساب الوضوح فى الكتابة، ويقدموا الروايات التاريخية ضمن إطار خال من الطلاوة. والواقع أن المؤرخ الذى يكتب تاريخا لايستمتع به أحد، يعتبر مؤرخاً رديئاً بقدر ما يبعثه من ملل، فهو بحكم مهنته مسئول عن أن يدون حوادث الماضى وأن يبتعث الجو الذى وقعت فيه تلك الحوادث[٢].

وليس المطلوب من المؤرخ الأكاديمى أن يكتب على نسق فولتير وشيللر وماكولى، وكل ما يطلب منه أن يكتب ببساطة وأن يتجنب الشرود والإيهام بالمعرفة، وأن يعرف عن الأسلوب قدراً يسمح للكتابة أن تكون

---

(١) سيدة كاشف: مصادر التاريخ الإسلامى، ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) جوتشلك: كيف تفهم التاريخ، ص ٢٥ - ٢٦.

أداة سهلة طيعة توصل إلى حقائق الأشياء التى يتحدث عنها، لا أن تكون عقبة فى سبيل الوصول إليها[1].

ودراسة الأدب بوجه عام توسع مدارك الإنسان، وتجعله أقدر على الفهم والاستيعاب. ويذكر المؤرخ دونو أنه فى مجال الأدب لابد لدارس التاريخ أن يقرأ للقصصيين المحدثين، «فهم يعلمون كيف توضع الوقائع والأشخاص، وتوزع التفاصيل، ويقتاد مجرى الأحداث ببراعة، وأن يغذى اهتمام القراء بقلق الإستطلاع»[2]. ويحسن بدارس التاريخ كذلك أن يلم بشىء من مذاهب النقد الأدبى، إذ أن دراسة حياة الأدباء، وتحليل آثارهم وتذوقها ونقدها، تقدم للمؤرخ ذخيرة قيمة فى دراسته التاريخية[3].

الرحلات :

ومن الضرورى لباحث التاريخ أن يكون مستعداً للترحال سواء داخل بلده أو خارجها، بحثا عن المعلومات والوثائق، فيزور الأماكن والمواقع التى شهدت أحداثا غيرت مجرى التاريخ، ويتفقد المكتبات ودور المحفوظات العالمية، لأن ذلك يزيده علماً وتجربة على الدوام. فعلى سبيل المثال كان المؤرخون المسلمون يجوبون الآفاق ويقطعون الأميال طلبا للعلم والدراسة، والاطلاع على أحوال الشعوب، وبحثا عن الحقيقة فى وقت كانت وسائل المواصلات صعبة ومحفوفة بالأخطار. والمثل الواضح على ذلك المؤرخ المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ (٩٥٧م) رائد طبقة المؤرخين الكبار بعد الطبرى، الذى ينادى منذ أكثر من ألف عام

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٧.

(٢) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى، ص ٢٨.

(٣) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ٤٠.

بمنهج «المعاينة»، ويعتمد فى التحقيق التاريخى على المعاينة والمشاهدة، وعدم الاعتماد على النقل والسماع، فليس من رأى كمن سمع[1]. وقد استفاد المسعودى من رحلاته وأسفاره لونا من الحس التاريخى الصادق. وقد طاف المسعودى أكثر أجزاء العالم الإسلامى، وقضى الجزء الأخير من حياته فى بلاد الشام ومصر، حيث ألف كتابه الشهير «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وهو كتاب تاريخى جغرافى عظيم القيمة، جعل الكتاب يطلقون على المسعودى إسم «هيرودوت العرب».

وعلى أية حال، هذه هى بعض العلوم التى تساعد فى إعداد الباحث فى التاريخ ثقافيا ومهنيا، وينبغى عليه أن يكون متسلحاً بها. وليس المقصود بذلك التعمق فى دراسة تلك العلوم، فهذا أمر فوق قدرة المؤرخ، ولكن يكفيه أن يكون عارفا بها إجمالا، دون الخوض فى تفاصيلها.

---

(١) على أدهم: التاريخ عند المسلمين، ص ٥٤.



الفصل الثامن

كتابة التاريخ بين الموضوعية والذاتية

الموضوعية فى كتابة التاريخ.
الذاتية فى كتابة التاريخ
الذاتية المتطرفة فى كتابة التاريخ
التوافق بين الموضوعية والذاتية فى كتابة التاريخ

يعد الحديث عن الموضوعية والذاتية فى كتابة التاريخ من أعقد مشكلات فلسفة العلوم الاجتماعية والتى اختلفت فيها الآراء واحتدم الجدل. ذلك أن التاريخ يكتبه باحثون ينتمون إلى مجتمعات معينة، ويلونون كتاباتهم فى كثير من الأحيان بنوازعهم الشخصية وانعكاسات التيارات السائدة فى مجتمعاتهم، وكثيراً ما علت الأصوات مطالبة بتحرى الموضوعية فى كتابة التاريخ.

الموضوعية فى كتابة التاريخ:

يقصد بالموضوعية Objectivity معالجة الظواهر باعتبارها أشياء لها وجود خارجي مستقل عن وجود الإنسان. والشيء الموضوعى هو ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد المشاهدين مهما اختلفت الزاوية التى يشاهدون منها. ويوضح الفيلسوف الإنجليزى برتراندرسل[1] هذه النقطة بقوله: «لكي نوضح الفرق بين الموضوعية والذاتية نقول: إفرض أن عدداً كبيراً من المتفرجين فى مسرح كانوا يشاهدون فى آن واحد ما يجرى على خشبة المسرح، كذلك كان فى المسرح عدة آلات للتصوير تلتقط فى آن واحد صور مايجرى على خشبة المسرح، فعندئذ تكون الصور التى تلتقطها الات التصوير، وكذلك الصور التى يتلقاها المتفرجون، متفقة فى وجوه مختلفة فى وجوه؛ وسأصف بكلمة «موضوعى» ذلك الجانب الذى يشترك فيه المتفرجون جميعا، أو آلات التصوير جميعا. كما أنى سأطلق كلمة «ذاتى» على الجوانب التى ينفرد بها هذا المتفرج دون غيره، أو آلة من آلات التصوير دون غيرها، فسيبدو الممثل على خشبة المسرح أطول عند المتفرج القريب منه مما هو عند المتفرج البعيد. وعلى هذا فالذاتية أمر لايقتصر على مجرد الأهواء الشخصية، بل هو أحد جوانب الطبيعة

(١) الفلسفة بنظرة علمية (القاهرة ١٩٥٦)، ترجمة د. زكى نجيب محمود، ص١٣١-١٣٢.

نفسها، ومعناها أن المؤثر الواحد لايبدو للأعين المختلفة فى أوضاعها على صورة واحدة، أما إذا كان فى هذا المؤثر جوانب لاتتغير صورتها عند مختلف الأعين مهما اختلفت أوضاعها، كانت تلك الجوانب المشتركة «موضوعية».

ومصطلح «الموضوعية» هو فى ذاته حكم على قيمتها، فالمقصود بها الوصول إلى الحقيقة دون تدخل للعوامل الشخصية للباحث، فلايشوهها بنظرة ضيقة أو بتحيز خاص. ويذكر فؤاد زكريا[1] أن «الموضوعية» كلمة شديدة التعقيد، تحتمل جوانب أوجه متباينة، وأول معنى للموضوعية أن تكون لدى المرء روح نقدية، ومعنى ذلك ألا يتأثر بالمسلمات الموجودة أو الشائعة، وأن ينقد نفسه ويتقبل النقد من الآخرين. والنزاهة معنى أساسى من معانى الموضوعية، ويتمثل ذلك بوضوح فى أن يستبعد الباحث العوامل الذاتية من عمله العلمى، وينبغى عليه أن يطرح مصالحه وميوله واتجاهاته الشخصية جانبا، وأن يعالج موضوعه بتجرد تام. وعلاوة على ذلك، فإن الحياد يعتبر معنى عظيم الأهمية للموضوعية، فإذا وصفنا الشخص الموضوعى بأنه محايد، فإننانعنى بذلك أنه لاينحاز مقدماً إلى طرف من أطراف النزاع الفكرى أو الخلاف العلمى.

والموضوعية فى العلوم الطبيعية تختلف عنها فى العلوم الإنسانية الاجتماعية والأدب والفن. فالموضوعية فى العلم غير الموضوعية فى الفلسفة، فإذا كان العلم والفلسفة يتفقان فى أنهما تعبير عن الواقع الكونى وظواهره الموضوعية، فإن الموضوعية التى يقصدها العلم هى موضوعية الوقائع التى تظهر فى المعمل الكيميائى بعد التحليل والتركيب. وعلى العكس من ذلك، فإن موضوعية الظواهر التى تقصدها الفلسفة إنما تتعلق بالكون ككل، أى بذلك الخليط الهائل من الأشياء الذى نطلق عليه إسم

---

(١) التفكير العلمى (القاهرة ١٩٩٦)، ص ٢٦٨، ٢٧٧، ٢٨٣.

العــالم والذى يطلق عليـه الفـلاسـفـة إسم المكان الزمــانى - Lespace Temps[1].

وفى الالتزام بالموضوعية يختلف العلم عن الفن فى كل صوره، لأن الخـبـرة الذاتيـة أسـاس الفنون والآداب، فـالفنان ينظـر إلى الشـىء الذى يصـوره إن كـان مـصـوراً، أو ينظمـه إن كـان شـاعـراً من خـلال عـواطـفـه وأحساسيسه وانفعالاته وأخيلته، أما العالم فإن منهجه العلمى يقتضيه أن ينظـر إلى مـوضـوع بحـثـه كـمـا هـو فى الواقع، إن الفنون ابتـداع ذهنى تلقائى، وأما العلم فيقوم على وصـف الأشياء وتقرير حالتـها كما هى فى الواقع تحـتـفظ بذاتهـا عـلى مـر الزمـان، ومن هنا قـيل فى التـفـرقـة بين شـخصية الفنان وشـخصية العالم: الفن أنا والعلم نحن! فيما يقول الطبيب الفرنسى المشهور كلود برنار (ت ١٨٧٨) Claude Bernard الذى استقل علم الأحـياء على يده، فإذا عـرض لدراسة مـوضـوع واحـد مـجـمـوعـة من العلماء، انتـهوا فى آخر المطاف إلى نتائج واحدة، وإن اختلف بعضـهم مع بعض حـسمـوا الخلاف بالالتـجاء إلى الواقع، ومـحك الصـواب عندهم هو «التـجربة» التى يمكن تكرار إجرائها - للتثبت من صـحـة النتائج - بطريقة موضوعيةخالصـة، أما فى حـالة الفن فإن المنظر الواحد يصوره الفنانون أو الشـعراء فى صـور شتى أو قصـائد مـتباينة، وبمقدار مـا يكون بينهـا من تفاوت وتباين، يمكن أن تكون عبقرية كل من أصحابها[2].

ومـسـألة الموضـوعـيـة أمـر نسـبى تمامـاً فى جـمـيع أدوات البـحـوث الاجتماعية والنفسية، ولايمكن إعداداها واستـخدامهـا ونتائـجها بمنجاة من التـحـيـز والمعادلة الشـخـصـيـة فى أكـثـر من مـوضـع. فلو أخـذنا استـبيـانا

---

(١) يحى هويدى: مقدمة فى الفلسفة العامة (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٥٢ - ٥٣.

(٢) توفيق الطويل: أسس الفلسفة (القاهرة ١٩٦٧)، ص ٢٠٧.

للاتجاهات الاجتماعية أو النفسية لوجدنا أن التحيز يظهر فى وضع الاستبيان نفسه، إذ يقوم الاستبيان على وضع مجموعة من الأسئلة تعتبر مشيرة ودالة على الاتجاه المراد نفسه. وفوق هذا يدخل التحيز فى أنواع الاستجابات نفسها، فمن قبيل التصور النظرى أيضا أن الشخص الذى يجب على استبيان أو مقابلة إنما يقدم للباحث «عينة» من إجاباته. فقد تكون لديه جملة استجابات لموقف معين أو نحو موضوع ما، وما يجيب الباحث به إن هو إلا عينة تناسب الموقف الذى يوضع فيه، وقد تتغير هذه الاستجابة إذا تغيرت بعض عناصر الموقف. كذلك نلاحظ أن هناك مجالا واسعاً للذاتية فى صياغة الأسئلة، سواء كان مصدر الذاتية هو واضع الأسئلة أو كان مصدرها الوسط أو الجو الحضارى الذى ينتمى إليه(١).

إن أهم الأمور التى دعت إلى تطبيق المنهج العلمى فى الدراسات الاجتماعية الرغبة الملحة فى الوصول إلى الحقائق «للموضوعية» بعيدة عن التصورات الذاتية أو التلوين الشخصى، وهذا هو من أكبر ميادين انتصار العلوم الطبيعية. بيد أن فى العلوم الاجتماعية والإنسانية نجد صعوبة بالغة فى تحقيق هذه الغاية، نتيجة لتأثير عملية البحث بالعامل الذاتى. ففى طبيعة الموقف الاجتماعى أو مظاهر السلوك الإنسانى انغماس الباحث فيما يبحث فيه، فهو من ناحية ملاحظ بعيد عن الموقف، وهو فى نفس الوقت جزء من الموقف الملاحظ. ومما يزيد فى تعقيد مسألة الموضوعية فى العلوم الاجتماعية أن ظواهر المجتمع ليست بساطاً ممتداً أمام أعين الباحثين دائماً، بل إن جزءاً منها واضح لبعض الناس، وجزءاً آخر غير واضح، وجزءاً منها يتضح فى بعض الأوقات، وربما

---

(١) حامد عمار: المنهج العلمى فى دراسة المجتمع (القاهرة ١٩٦٤)، ص ٣٢ـ ٣٤.

كانت هناك أجزاء غامضة كثيرة غير معلومة(١) . ويشير البعض إلى أن الموضوعية المطلقة أمر عسير التحقيق فى البحوث الاجتماعية، ولكنهم فى الحقيقة قد بالغوا فى تقدير أثر العوامل الذاتية فى تلك الدراسات . فقد أمكن الوصول فعلا إلى عدد كبير من القوانين والنظريات العلمية فى الميدان الإجتماعى، ولايمكن القول بأنها كانت قائمة على تحيزات شخصية، أو أن أصحابها كانوا يغلبون الجانب الذاتى على الجانب الموضوعى فى دراساتهم. وتتوقف الموضوعية فى البحث الاجتماعى على ضمير الباحث العلمى، ورغبته فى إظهار الحقائق كما هى دون تحيز لرأى، أو تعصب لمذهب معين(٢) .

وقد اختلفت آراء المؤرخين فى ضرورة مراعاة الموضوعية فى كتابة التاريخ، وتفاوتت قدرتهم فى الاستجابة لمطالب الحيدة المطلوبة. فالبعض من المؤرخين التزم الطريقة الموضوعية المطلقة فى كتابة التاريخ، بمعنى أن ينكر المؤرخ نفسه كل الإنكار، ويمسك عن التعبير عن وجهة نظره الخاصة، وهذا الفريق هو الذى عرف باسم أصحاب النزعة الموضوعية Objectivism . وذهب فريق آخر من المؤرخين إلى إنكار قدرة المؤرخ على إلتزام الموضوعية المطلقة، على أساس أنه لايمكن للمؤرخ أن يتخلص من ذاتيته ويتخلى عن معتقداته ومواقفه الفكرية، وهذا الفريق هو الذى عرف بأصحاب النزعة الذاتية Subjectivism . ويرى فريق ثالث أنه على الرغم من الموضوعية التامة الواجب توافرها فى المؤرخ، إلا أنه لايمكن إلغاء شخصية المؤرخ الذاتية بما فيها من أحاسيس ومشاعر، والمؤرخ الناجح فى نظر هذا الفريق هو الحريص على ألا تطغى عواطفه على حياده وموضوعيته.

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٨ ـ ٦٠.

(٢) عبدالباسط محمد حسن: أصول البحث الاجتماعى (القاهرة ١٩٩٠)، ص ١٠٣ ـ

وهنا نتساءل هل يمكن للمؤرخ أن يتجرد من ميوله وأهوائه؟ وهل يمكن أن يقف موقف الحياد الصارم بين ذاته والموضوع الذى يتناوله؟ لقد طمح إلى هذا عدد كبير من المؤرخين على مر العصور، كان أعظمهم طموحاً المؤرخ الألماني الشهير ليوبولد ڤون رانكه (١٧٩٥ - ١٨٨٦) Leopod von Rankc زعيم المدرسة العلمية الحديثة فى التاريخ، وواضع أسس الموضوعية فى القرن التاسع عشر.

ولد رانكه فى إحدى مدن مقاطعة ثورنجيا فى ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٥، من أسرة دينية متمسكة بتعاليم مذهب المصلح الدينى مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦)، وكان أبوه يعمل فى المحاماة، وتولى تعليمه فى مدرسة شول فورتا Schupforta، وهى مدرسة داخلية تعلم فيها بسمارك الشهير فيما بعد. وفى جامعة ليبزج درس رانكه اللاهوت واللغات وفقه اللغة والآداب الكلاسيكية والأدب الألمانى، ونال درجة الدكتوراه فى سنة ١٨١٧م. وأول منصب تولاه كان التدريس فى جمنازيوم فرانكفورت آن دير أودر (١٨١٨ - ١٨٢٥) Frankfurt an der Oder، وعندما نشر أول كتبه فى سنة ١٨٢٤م عاد عليه بالشهرة، فعين أستاذاً للتاريخ فى جامعة برلين فى أوائل سنة ١٨٢٥ . ثم قام رانكه بجولته الأولى فى الأرشيفات الأجنبية فى ڤيينا وفلورنسه وروما والبندقية، حيث قابل شخصيات هامة منها الوزير النمساوى مترنيخ (١٧٧٣ - ١٨٥٩) . كما قام بجولة ثانية (١٨٣٤-١٨٣٧)، وبين هاتين الجولتين حرر «المجلة التاريخية السياسية»، ونشر كثيراً منها بنفسه(١) . وفى سنة ١٨٣٤ رقى رانكه، فقد أسست له

(١) Gay (Peter), Historian at Work (New York, 1975), Vol. III, p. 17; Stern, The Varieties of History., p. 54' Gay (Peter), Style in Historry (New York, 1974), pp. 69-71; Ramm (Agatha), Leopold von Ranke, p. 36, in the Histtorrian at Work, ed. by John Canon (New York, 1975).

جامعة برلين كرسي للتاريخ، وظل أستاذاً بها حتى سنة ١٨٧١ . وعندما بلغ سن الثامنة والأربعين فى سنة ١٨٤٣ تزوج من كلاراجريفز Clara Graves وهى إنجليزية التقى بها فى فارس. وفى سنة ١٨٦٥ منح رانكه لقب نبيل، وبذلك انتسب إلى الطبقة الأرستقراطية العليا، وبدأ فى إعادة كتابة أعماله الرئيسية التى نشرت فى خمسة وأربعين مجلداً بين سنتى ١٨٦٧ و١٨٩٠م، وقد أتمها بعد وفاته نخبة من تلاميذه الأوفياء. ومن أهم مؤلفاته «تواريخ الشعوب اللاتينية والجرمانية» (١٤٩٤ ـ ١٥١٤)، «تاريخ البابوات فى القرن السادس عشر والسابع عشر» (١٨٣٤ـ١٨٣٦)، «تاريخ الإصلاح الدينى فى ألمانيا» (١٨٣٩ ـ ١٨٤٧)، «تاريخ» «بروسيا» (١٨٤٧ ـ ١٨٤٨)، «تاريخ فرنسا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر» (١٨٥٢ ـ ١٨٥٦)، «تاريخ إنجلترا فى القرن السابع عشر» (١٨٥٩ ـ ١٨٦٨)[١].

وقد مال رانكه إلى الدراسات التاريخية أثناء دراسته للأدب الكلاسيكى ولآراء المدرسة الرومانسية، بعد إطلاعه على رواية كونتن ديروارد Quentin Durward التى كتبها الروائى الكبير السير والتر سكوت[٢]، وصور فيها شخصية لويس الحادى عشر وشارل الجرىء، وقرأ

(١) Tholfsen (Trygve R.), Historical Thinkings. An Introduction. (New York, 1967), P. 158.

(٢) كان أبرز كتاب المدرسة الرومانسية فى مجال التاريخ والأدب فى إنجلترا هو السير والتر سكوت (١٧٧١ـ ١٨٣٢)، الذى جاء إنتاجه فى الأدب أكبر وأهم مما كتبه عن تاريخ الأدب. ولايوجد هناك أديب فعل أكثر مما فعله سكوت بما فى ذلك شاتوبريان نفسه، وذلك فيما يتعلق بإثارة الاهتمام بحياة العصور ونظام الفروسية فيها. وتجلت مقدرته الأدبية الفنية فى المقدرة على إعادة صياغة الماضى فى صورة تتفق والصبغةالمحلية الإقليمية. وكانت لكتبه «إيفانهو» و«تاليزان» كذلك لرواياته عن اسكتلندا فى العصور الوسطى أثر كبير لافى مجال الأدب وتذوقه فحسب، بل على نظرة المؤرخين إلى العصور الوسطى. أنظر: بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ١ ص ٢٥٥.

بعد ذلك عن الصراع بينهما فى المؤلف التاريخى الذى كتبه فيليب دى كومين[1] Philipe de Commine قراءة مستفيضة، وكتب رانكه إلى أخيه أنه وجد أن هذا المؤلف التاريخى أفضل وأشوق من القصة، وأكثر طرافة ودقة منها. وعقد العزم من فوره على ممارسة الكتابة التاريخية متوخيا الصدق وتصوير الوقائع التاريخية كما حدثت دون أن يعمد إلى الاختراعات والخيالات والإضافة فى مؤلفاته، وصرح بأنه عندما يلقى المؤرخ بقلمه عند إنتهائه من الكتابة، فعليه أن يكون قادراً على أن يشهد أمام الله بأنه لم يكتب إلا ما كان حقيقياً، أى أفضل ما يمكن كتابته اعتماداً على معرفته، وآمن بأنه ينبغى على المؤرخ ألا يضيف لمادته شيئاً بقصد زيادة سحرها الجمالى، أو سعيا وراء إحداث تأثير بلاغى براق[2].

وأخذ رانكه على المؤرخين محاولتهم إصدار الأحكام على الماضى لإفادة الحاضر ولينتفع بتجاربه المستقبل، وأوضح بأنه فى تناوله للتاريخ لايطمع فى الوصول إلى هذا الهدف، وأن غاية المؤرخ هو الاقتصار على ما حدث، أى الماضى كما حدث حقيقة Wie es eigentlich gewesen ist، أى أنه سوف يسجل الأحداث كما أخبرته بها الوثائق التى قرأها، وسيكتب الرواية التاريخية بموضوعية بما تنطوى عليه من متعة[3].

(١) فيليب دى كومين (١٤٤٥ - ١٥٠٩)، مؤرخ فرنسى يعرف بأبى التاريخ الحديث، تقلب فى كثير من المناصب السياسية، وفى أواخر حياته كتب مذكراته Memoirs، وتعتبر تاريخا هاما بما اشتملت عليه من بلاغة الوصف، وصحة الحكم، والقدرة على فهم الوقائع. انظر هرنشو : علم التاريخ، ترجمة عبدالحميد العبادى (القاهرة ١٩٤٤، هامش ص ٣٠.

(٢) أرنست كاسيرر: فى المعرفة التاريخية، ترجمة د. أحمد حمدى محمود، مراجعة على أدهم (القاهرةبدون تاريخ)، ص ٢١ - ٢٢،

Gay, Historian at Wark, Vol. III, P. 17; Thompson (James Westfall), A Hist. of Historical Writing (New York, 1942), P. 170.

(٣) Ramm, Lepold von Ranke, P. 37;

على أدهم: «التاريخ بين الذات والموضوعية»، مجلة العربى، العدد ١٧٥، يونيو ١٩٧٣، ص ١١٦.

ونتيجة لذلك صور رانكه شخصيات العصور التي أرخ لها تصويراً يتسم بالاعتدال وتحاشي المبالغة، وقاوم ميوله، وأحكامه على قلتها وندرتها لهاوزنها وقيمتها. وحينما عرض لوفاة الإسكندر السادس زعيم أسرة بورجيا المعروفة بجرائمها البشعة اكتفى بأن يقول: «لقد وضع حد للجريمة الإنسانية، ولقد مات وصار موضع استنكار القرون التالية»(١).

ولم يكن باعث رانكه على ملازمة الحياد التام، ومجافاة إصدار الأحكام، فتور في العاطفة أو جمود في الإحساس، وإنما كان مصدر تلك الروح الدينية العميقة التي كانت مستولية عل نفسه، إذ كان يرى أن البشر ليس من حقهم إصدار أحكام على الحركة التاريخية لأنها من تدبير العناية الإلهية التي توجه كل أحداث التاريخ نحو غاية لا يعلمها إلا الله. وفي سنة ١٨٢٤ كتب رانكه أنه يعتقد أنه رأى «من مسافة عظيمة» الهداية المباشرة وعمل الله المرئي في التاريخ، أي أن الله هو صانع التاريخ وأن العناية الإلهية هي التي توجهه(٢).

وكان رانكه يرى أن غاية ما يستطيعه المؤرخ هو أن يبذل جهده في تحري الحقائق، ويصدق في تصوير الوقائع والأحداث،وكان كثيراً ما يردد أن منطق الأحداث وتطور سير التاريخ يفتن لبه، ويهفو قلبه، وفي تأريخه لحياة فردريك الكبير ملك بروسيا(٣) (١٨٥٨ - ١٨٦٥) لم يبد أي

---

(١) على أدهم: المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٢) Ramm, Op. Cit., P. 48; Bayd (C.Shaver) & others, Historical Study in the West (U.S.A., 1986), PP. 17-18; Tillinight (Pardon E.), The Specious Past: The Historians and Others (London, 1972), P. 141.

(٣) بروسيا دولة ألمانية خلقت في العصر الحديث من مناطق معينة ترجع في تاريخها إلى العصور الوسطى. وأصل بروسيا هو مقاطعة براندنبرج التي تنحصر بين نهري الميز والب، تأسست في القرن العاشر. على أن تاريخ هذه المقاطعة لم يسر في اضطراد مستمر، فقد شاهد فترات انتكاس خصوصات في القرن الرابع عشر بسبب النزاع حول الحكم في داخل المقاطعة حتى قام الإمبراطور سيجسموند في عام ١٤١٥ بتعيين

عداء للنمسا، ولم يظهر أى تحيز لفردريك الكبير كما جرت العادة بين المؤرخين الألمان من قبله، وقد حمل ذلك المؤرخ الإنجليزى توماس كارلايل[(١)] على أن يقول عنه فى إحدى رسائله: «لو كنت بروسيا أو حتى ألمانيا لأعلنت احتجاجى على كتابه عن فردريك الكبير». وحينما كتب «تاريخ فرنسا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر» كتبه من وجهة النظر الأوربية، وأعرض عن طريقة المؤرخين الألمان فى التحامل على الفرنسيين حينما يتصدون للخوض فى تاريخ فرنسا، ولذلك رحب الفرنسيون بظهور هذا الكتاب واستمتعوا به، وأعلنوا ارتياحهم له[(٢)]. وأعجب به المؤرخ الإنجليزى جوش Gooch إعجابا بالغا، ورأى فيه المؤرخ المثالى، الذى لم يتحيز فى كتابته، وتجرد من عواطفه عندما وصف الماضى كما حدث، دون أن تكون لديه فكرة أو نظرية ما، ومع أن رانكه لم يكن أول من استخدم الأرشيفات، الا أنه جعل من الضرورى أن يقوم العمل التاريخى على المصادر المعاصرة، وهو أول من أسس علم البرهان التاريخى[(٣)].

وترجع قوة رانكه الفائقة للحقيقة الخاصة بأنه لم يضع برنامجاً معينا، وبدلا من ذلك جعل نفسه وأعماله مثالاً. فقد أعد أداة لمعرفة التاريخ اعتمد فيها على فنه النقدى فى تحليل المصادر، واتبع هذا الفن

فردريك هو هنزلرن، وهو نبيل من جنوب ألمانيا، منتخبا لها. وقد قدر لهذا المنتخب أن يكون مؤسس أسرة حكمت فى براندنبرج لخمسة قرون، وفى النهاية حصل ممثلو تلك الأسرة على تاج الإمبراطورية الرومانية. انظر: د. محمد فؤاد شكرى، د. محمد أنيس: أوربا فى العصور الحديثة، جـ١ ص ٢٧١-٢٧٢.

(١) انظر ص ١٥٤ - ١٥٧ .

(٢) Scheville (Ferdinand), Six Historians (U.S.A., 1956), P. 148;
على أدهم: المرجع السابق، ص ١١٦.

(٣) Halperin (S. William), Hadsel (Fred. L.), Gooch (George Peabody), in Some 20th Century Historians (U.S.A., 1916), PP. 265-266.

بعد ذلك كل مؤرخ، بصرف النظر عن اتجاهه أو انتمائه أو القضية التى يدافع عنها. وتمثل الطريقة التى اتبعها فى فحص تقارير السفراء والأوراق الدبلوماسية ومضاهاتها بعضها ببعض،، ثم غربلتها واستخدامها بعد ذلك فى فهم المسائل السياسية اتجاها جديدا[1]. ويذكر ألفرددوف Al-fred Dove (١٨٤٤ - ١٩١٦) كاتب سيرته الذى أشرف على تحرير المجلدات الأخيرة من مجموعة أعمال رانكه من أوراقه، أن السبب فى اندفاع رانكه وراء الوثائق الأصلية يرجع إلى اختلاف شخصية الملك الفرنسى لويس الحادى عشر فى رواية السير والتر سكوت - وهى كونتن ديروارد التى أشرنا إليها - عنها فيما كتبه المؤرخ فيليب دى كومين[2]. وقد بلغ من حماس رانكه وتلاميذه لهذه الأصول أن انتشروا فى الأرض ينقبون فى كهوف المحفوظات ورفوف الأديرة باحثين عن الوثائق فى حماس شديد جعل الدول والحكومات والكنائس وغرف التجارة وبيوت النبلاء تهتم بتلك الوثائق وتنظيمها فنشأ علم الوثائق. وأخذت قواعده تستقر، وقامت دور المحفوظات ومجموعة السجلات فى أوربا كلها، وأقبل طلاب التاريخ يدرسونها وكأنهم - كما قيل يومئذ - فيران تقضى الليل فى قضم صفحات الكتب[3]. ومما يدل على اهتمام رانكه بالوثائق أنه طلب فى سنة ١٨٢٧ من ناشر كتابه الثانى أن يعيد إليه المسودة النهائية لمخطوطته، لأنه عثر على وثيقة تتطلب منه مراجعة أحد الفصول[4].

وخير صورة توضح لنا ما قام به رانكه من إسهامات فعالة فى

---

(١) كاسيرر: المرجع السابق، ص ٣٠.

(٢) Ramm, Leopold von Ranke., p. 52.

(٣) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٧٧.

(٤) Gay, Style in History, P. 87.

اكتشاف المادة التاريخية ونشرها، ذلك الوصف الذى أطلقه عليه المؤرخ الإنجليزى لورد آكتون (١٨٣٤ ـ ١٩٠٢) من أن رانكه هو البطل الحقيقى لدراسة الوثائق، الأمر اذى جعله معروفا تماماً. وقد اطلع رانكه أساساً على أرشيفات الحكومة الألمانية، واستخرج مقتطفات أو نسخ من وثائق الرايخ Reichstag والمؤسسات الألمانية الأخرى. ومن المعروف أن معظم عمل الدايت Diet (المجلس الإمبراطورى فى ألمانيا) كان يدار بالمراسلات الرسمية أكثر منه بالمناقشة الشفهية، ولهذا فإن وثائق الدايت كانت تحتوى على وصف دقيق للقرارات التى تم الوصول إليها. وعندما شرع رانكه فى كتابة «تاريخ بروسيا»، حصل من فردريك الكبير على كتاباته الخاصة به وبأبيه، وفى المدن الإيطالية وجد رانكه أثمن كنوزه فى قصور العائلات القديمة، وكتب «تاريخ البابوات» دون أن يقترب من أرشيفات الفاتيكان، لأن أرشيفات الولايات فى إيطاليا كانت فى الواقع مبعثرة فى المجموعات الخاصة للعائلات التى كان أفرادها يديرون شئون تلك الولايات[1]. وهذا يعنى أن رانكه كان يقرأ نوعاً خاصا من الوثائق، يأتى فى مقدمتها الرسائل التى من بينها رسائل السفراء أو المبعوثين فى مهام خارجية، وهؤلاء كانوا يضعون للوطن تقارير عن الأحداث الجارية أو المتوقع حدوثها فى العواصم التى كانوا يقيمون بها. وكثيراً مما نشره رانكه فى فهارسه الوثائقية كان يتألف من رسائل أو حوليات غيرمعروفة حتى الآن، ولذا فليس من المدهش أن الحروب والدبلوماسية والنضال بين الأحزاب المتنافسة حول السلطة، وأهم من ذلك أفكار ودوافع وأعمال الشخصيات السياسية، هى التى سيطرت على كتابته. ولم تكن مادته التاريخية التى دونها وتركت تأثيراً فى القارىء ترجع إلى أنه تناول

(١) Ramm, Leopold von Ranke., pp. 51-52.

تاريخ شخصيات بارزة قليلة فحسب، بل أيضا لأنه كتب تاريخ الشعوب من خلال أفكارها وأعمالها(١).

وعلى أية حال، أصبح رانكه شهيراً بسبب نقده للمصادر الأصلية وتحليلها. ويقال أنه ورث هذا الاتجاه من المؤرخين نيبوهر(٢) (١٧٧٦ - ١٨٣١) وتيودورمومسن (١٨١٧ - ١٩٠٣)، اللذين تناولا تاريخ روما الكلاسيكية. فقد أدخل نيبوهر فى دراسته القضايا السياسية والاجتماعية ودشن بذلك التاريخ الاجتماعى، إذ درس نصوص المؤرخين وغيرهامن المصادر الأسطورية للجمهورية الرومانية، وألف كتابه الشهير «تاريخ الرومان»، ونهج به نهجا علميا مبتكراً أحيا به التاريخ الرومانى، وجعل للتاريخ بهذا الكتاب مكانة علمية(٣). ويعتبر مومسن أكبر مؤرخى الألمان بعد نيبوهر، فقد كان فقيها باللغة، قانونيا، عالما بالنقوش الأثرية، نشر كتاب «تاريخ الرومان» الذى عمت شهرته الآفاق، وكتاب «تاريخ الحق العام الرومانى»، و«مجموعة النقوش الرومانية»، وجدد بهادراسة القديم

---

(١) Ibid., P. 52.

(٢) كان بارتولد جورج نيبوهرNiebuhr رجل سياسة مميزاً وباحثا قديراً، ولم يكن مواطنا بروسيا، بل دنماركيا، وهو ابن الرحالة الشهير كارستون نيبوهر. وفى سن الثامنة عشرة عرف بارتولد نيبوهر ثمانية عشر لغة أوربية، بالإضافة إلى العبرية والفارسيةوالعربية. وتعلم الفلسفة والرياضيات والطبيعية والكيمياء والتاريخ الطبيعى، وكان على معرفة تامة بالتاريخ الألمانى والفرنسى، والقانون الرومانى. وفى سنة ١٨٠٦ غادر نيبوهر كوبنهاجن، والتحق بخدمة بروسيا، وأصبح عضواً هاما فى حركة الإصلاح البروسية. وفى سنة ١٨١٠ اختير محاضراً فى جامعة برلين الوليدة، ونالت محاضراته نجاحاً هائلاً. وعين سفيراً بروسيا لدى الفاتيكان فى روما (١٨١٥ - ١٨٢٢)، ومضى أيامه الأخيرة أستاذاً فى جامعة بون. انظر:

Thompson, A Hist. of Historical Writing, Vol. II., PP. 153-156: Stern, The Varieties of History., P. 46.

(٣) نور الدين حاطوم، نبيه عاقل، أحمد طرمين، صلاح مدنى: المدخل إلى التاريخ (دمشق ١٩٦٤)، ص ٤٥٢.

اللاتينى، وحاز على جائزة نوبل(1). ويظهر تأثير نيبوهر وموسن واضحا فى رانكه فى أنه كان يسأل نفس الأسئلة التى سألاها كيف ظهرت هذه الوثيقة؟ وكيف وصلت إلينا؟ يبد أنه كان أكثر منهما ميلا إلى تحليل وثائقه ونقدها ومضاهاتها بعضها ببعض، ليظهر الفروق بين وصفين لحدث واحد، أو بين الأسطورة والحقيقة، وشرح السبب فى تفضيل وثيقة على أخرى، أو رفض الإثنين معا، أو ترك ما جاء بهما مفتوحاً لبراهين وأفكار جديدة، ولذا جاءت الروايات المنبثقة من قراءاته واستنتاجاته أكيدة وصادقة ولاتترك فجوات واضحة.

كان رانكه يقول عن نفسه إنه مرآة تتراءى فيها الأحداث كما وقعت بالفعل فى الماضى، دون أن يكون له أى تأثير فيها. وفى رسالة بعث بها إلى شقيقه هينريك يقول: «ليست فكرتى الأساسية هى قبول هذا المذهب أو المذهبالآخر أو المذهب الوسيط بينهما، وإنما فكرتى الأساسية هى معرفة الحقائق والسيطرة عليها وإظهارها، والتعليم الصادق لايكون إلا بمعرفة الحوادث(2). وفى وقت مبكر فى سنة ١٨٤٠م لاحظ رانكه أن المؤرخ يحتاج إلى ثلاث صفات رئيسية، نفاذ البصيرة، والشجاعة، والنزاهة الأولى بإدراك الأشياء كلها، والثانية ألا يخاف مما يراه، والثالثة ألا يقع فى خداع الذات(3).

وإذا كانت أهمية رانكه تكمن فى أنه ترك علامة بارزة فى علم كتابة التاريخ، بما ساهم به فى وضع قواعد النقد الخاصة بمضمون الوثائق، وإصراره على تناول الماضى بموضوعية مطلقة، فإن الأثر الذى تركه على تدريس علم التاريخ من المحتمل أنه أعظم من الأثر السابق،

---

(1) المرجع السابق، ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(2) على أدهم: «التاريخ بين الذات والموضوعية»، ص ١١٥ - ١١٦.

(3) Gay, Style in History., P.

لأن رانكه وضع أساس ما يعرف بالسمنار- أى حلقات البحث والدرس- فى سنة ١٨٣٣م، ولم يكن هدف تلك الحلقات قاصراً على المؤرخين الألمان فحسب، بل رحبت بدارسى التاريخ الذين أتوا من كل أنحاء العالم لدراسة المنهج التاريخى الذى اتبعه رانكه طوال نصف قرن. وعندما تقدم العمر برانكه وأصبح عاجزاً عن قيادة سمناره بكفاءة، تبنى تلميذه المقرب إليه جورج فيتز George Waitz منهجه فى جامعة جوتنجن(١). وقد سار على نهج رانكه المؤرخ البلجيكى هنرى بيرين، فأنشأ حلقات السمنار، وأشرف على قيادتها فى بلجيكا(٢).

سار كثير من كبار المؤرخيم المحدثين على نهج رانكه فى ضرورة التزام الموضوعية التامة كتابة التاريخ، وآثروا أن ينكر المؤرخ نفسه تماما ويمسك غن إقحام أفكاره الشخصيةومشاعره ووجهات نظره الخاصة. ومن هؤلاء المؤرخين راتزل Ratzel، وهيلموت Helmot، وفوستل دى كولانج (١٨٣٠ - ١٨٨٩) الذى يعتبر مؤسس المنهج العلمى فى دراسة التاريخ فى فرنسا. وقد اهتم بتاريخ فرنسا فى العصور الوسطى، وألف كتبا أهمها «الحياة فى فرنسا من العصور الوسطى» فى أربعة مجلدات، وفيه اعتمد على مقتطفات من كتاب العصور الوسطى وعلى ما كتبه الروائيون الأخلاقيون فى تلك العصور(٣). وقال فوستيل إنه ينبغى على المؤرخ ألا يتدخل فى الأحداث التاريخية التى يتناولها، ويبعد آراءه الشخصية،وكان مقتنعاً أنه من خلال الدراسة الدقيقة للمصادر الأصلية يستطيع المؤرخون أن يصلوا إلى الحقيقة التاريخية، وعندما يفعل

---

(١) Barnes (Harry Elmer), A Hist. of Historical Writing Second ed. (New York, 1962, P. 246; Thompson, A Hist. of Historical Writing, Vol. II, PP. 177-178.

(٢) Cate (James L.), Henry Pirenne, in Some 2oth century Historians, ed. by S.William Halperin., P. 3.

(٣) Renier (G.J.), History, its Purpose and Method (London, 1950). PP. 249-250.

المؤرخـون ذلك ـ مثلمـا فـعل هو ـ فـإن التـاريخ هو الذى يتـحـدث من خلالهم(١). ويروى أنه قال لجماعة من المتحمسين له عند إلقاء إحدى محاضراته: «لا تمتد حونى، فلست المتحدث، وإنما التاريخ هو الذى يتحدث من فمى»(٢).

ومن المؤرخين الذين ساروا على نهج رانكه فى الإلتزام بالموضوعية فى كتابة التاريخ المؤرخ الفرنسى إيبوليت تين (١٨٢٨ ـ ١٨٩٢) Hippo-lite Taine، الذى كان يرى أن المؤرخ باستطاعته تحقيق الموضوعية تحقيقا تاما، وفى هذا الصدد يذكر أنه سوف يبحث مثل الفيلسوف إسبينوزا (ت ١٦٧٧) ـ وهو من أتباع المذهب العقلى ـ فى العواطف الإنسانية، وكأنه يبحث أشكالا هندسية أو سطوحاً أو أشياء صلبة، ذلك أن الانفعالات مثل الحب والكراهية والغضب والطموح والتعاطف ينبغى ألا ينظر إليها كعلامات ضعف، بل كمظاهر للطبيعة الإنسانية، فهى تمثل جانبا منها، كما تمثل الحرارة والبرودة والعواصف والبرق وظواهر أخرى من هذا القبيل جانبا من الظواهر الجوية. وبهذه الصورة يبدو المطلب الخاص للموضوعية كما فهمه رانكه، فعلى المؤرخ ألا يسمح لنفسه لحظة بأن يذهب بعيداً فى اهتمامه بما حدث، ولا يحق له أن يحكم، بل أن يحلل فقط وأن يفهم(٣). أما المؤرخ تشارلز أندروز، فقد شدد على أنه ينبغى على المؤرخ أن يغمر نفسه تماماً فى حقائق الفترة التى يتناولها، حتى لايسىء فهمها أو تفسيرها. ويشير أندروز إلى أنه عندما يتغنى المؤرخ بعظمة الموضوعية، فإنه ببساطة يتغنى بالحقيقة لذاتها، والمؤرخ

---

(١) Shafer (Boyd C.) & others, Historical Study in the West (U.S.A., 1928), P. 19; Tholfen, Historical Thinking., P. 195; Stern, The Varaieties of History, p. 178.

(٢) Ausubel (Herman), Historian and their Gaft., P. 90; Snyder (Phil. L.), Detachment and the Writing of History: Essays and letters of Carl L. Becker., P. 54., Tholfsen, Historical Thimking, P. 221.

(٣) إرنست كاسيرر: فى المعرفة التاريخية، ص ٤٨.

الموضوعى هو المؤرخ المحايد، والمشاهد غير المتحيز، لايحابى قضية معينة أو يدعم مذهب أو نظرية أو فلسفة خاصة، وذلك لأن نتائج الوصف التاريخى الموضوعى تأتى من الحقائق نفسها، وليست من أفكار مكونة سلفاً عاشت فى ذهن المؤرخ[1].

الذاتية فى كتابة التاريخ:

ذهب فريق آخر من مشاهير المؤرخين مذهباً آخر فى كتابة التاريخ، وهو إنكار قدرة المؤرخ على التزام الموضوعية المطلقة، بمعنى استحالة أن يستقل المؤرخ عن عواطفه وأهوائه وشعوره وذوقه. ولهذا يرى المؤرخ لويس جوتشالك[2] أن هناك تحاملاً على المعرفة الذاتية على أساس أنها دون المعرفة الموضوعية، ذلك فى الغالب لأن كلمة «ذاتى» تعنى أيضا «خداعاً» أو «مبنيا على اعتبارات شخصية»، ومنهنا صارت تعنى «غير صحيح» أو «متحيزاً» والمؤرخ الذى يظن أنه ليست لديه فلسفة للتاريخ أو الذى يعتقد أنه فى معزل عن كل تأثير يخدع نفسه بنفسه، اللهم إلا أن كان يتمتع بصفات لم يحرزها البشر.

وكان أكبر ناقدى رانكه المؤرخ يعقوب بوركهات (١٨١٨ - ١٨٩٧)، وهو من أصل سويسرى، وتتلمذ لرانكه وتخرج عليه فى برلين، وقد نفر من جمود رانكه وقضائه على الجانب الشاعرى من التاريخ. وبلغ من استنكاره لمذهب رانكه هذا أن رفض أن يتولى كرسى التاريخ بعده فى جامعة برلين، ثم قام بتأليف ثلاثة من أحسن ماكتب فى التاريخ على المذهب الجديد وهى: «عصر قنسطنطين الكبير» (١٨٥٣)، «حضارة

---

(١) Ausubel, Op. Cit., P. 171.

(٢) كيف نفهم التاريخ - مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخى، ترجمة عائدة سليمان عارف، أحمد مصطفى أبو حاكمة (بيروت ١٩٦٦)، ص ٥٧ - ٥٨.

عصر النهضة فى إيطاليا، (١٩٦٠)، وتاريخ النهضة فى إيطاليا، (١٨٦٨ - ١٨٧٣)، ثم أتبعها بكتابه المشهور «تأملات فى التاريخ العالمى» وكلها كتب تجمع بين المنهج التاريخى الدقيق إلى جانب الإحساس الإنسانى والجمالى(١).

ويعترف أصحاب المذهب المثالى - وهو المذهب الذى يجعل الذات لا الموضوع محور المعرفة - صراحة بإنكار وجود حقيقة تاريخية تكون الموضوعية فيها مطلقة، ويبررون ذلك أنه لايمكن فهم الموضوعية فى التاريخ بنفس مفهومها فى العلوم الطبيعية، لأنه ليس فى الطبيعة تفسير ماركسى لظاهرة فيزيقية أو تفسير بورجوازى لها، كذلك الأمر فى الظاهرة البيولوجية، ولكن هناك تاريخا ماركسيا وآخر بورجوازيا، كما أن هناك تاريخا بروتسانتيا وآخر كاثوليكيا لعصر الإصلاح الدينى وقيام مارتن لوثر، ويختلف تاريخ مؤرخ سنى عن آخر شيعى لفترة حكم الخلفاء الراشدين، وهم يبررون هذا التمايز فى الموضوعية بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية وأخصها التاريخ إلى انتماء الذات (المؤرخ) والموضوع (الواقعة التاريخية) إلى مقولةواحدة هو الإنسان، وليس الأمر كذلك بالنسبة للعلوم الطبيعية حيث هناك مقولتان مختلفتان: المادة والإنسان.

ويرى المثاليون أنه من المتعذر أن تتفق وجهات نظر المؤرخين بصدد موضوع معين لعدة عوامل، أهمها تعذر تحرر المؤرخ تماما من عاطفته الذاتية إزاء من يؤرخ لهم من شخصيات، إنه مطالب أن يتمثل الماضى وشخصياته، بل أن يتقمص روح القديم وإن بلغ درجة الوعى ذاتياً فإنه ليس انفعاليا، إذ ليس من حق المؤرخ أن يزور وثيقة أو يتحيز أو

---

(١) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٨١ - ٨٢.
(٢) أحمد صبحى: فى فلسفة التاريخ، ص ٤٩.

يتحامل[1]. ومن أهم العوامل أيضا إنتماء المؤرخ إلى حزب أو طبقة أو مذهب معين، الأمر الذى يجعل المؤلفات التاريخية معبرة عن وجهات نظر مؤلفيها، ولا يعد المثاليون ذلك مما ينقص من قيمة المؤلف، على العكس أنهم ينتقدون الموضوعية المطلقة التى تجعل من التاريخ سجلا لا حياة فيه ولا لون له، ويسخرون من المؤرخ الذى انمحت شخصيته حتى أصبح كأبى الهول فى صمته، فالفكر الفلسفى أو الأيديولوجى للمؤرخ هو الذى يلون تفسيره للماضى، فليس الخلاف بين المؤرخين فى الحقيقة إلا نتيجة اختلاف الأيديولوجيات أو العقائد، ولكن ذلك لايعنى إلغاء الموضوعية تماما، وإنما الموضوعية فى التاريخ تختلف عن موضوعية العلوم الطبيعية، إنها تعنى تسجيل الوقائع التاريخية وتصويرها تصويراً دقيقا من وجهة نظر المؤرخ[2]. ويمكننا القول إن المؤرخين لايتأثرون بعوامل ذاتية فحسب، بل إنه من الواجب أن يتأثروا. فالتاريخ غير الإنحيازى ليس مثلا أعلى فحسب، بل هو مستحيل استحالة مطلقة، ولتأييد ذلك يمكننا أن نشير إلى أن كل مؤرخ ينظر إلى الماضى من وجهة نظر معينة، فهو لا يستطيع أن يتجنبها، وتجنبها يشبه مطالبته بتغير طبيعته[3].

ومن المعروف أن تدوين تاريخ الثورة الفرنسية التى قامت فى ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩، كان شغل فرنسا الشاغل فى القرن التاسع عشر. ومن المؤرخين الذين ساهموا فى كتابة تلك الثورة ودافعوا عن أمجادها وأهدافها فى إعجاب بالغ: الكسس دى توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩) A lexis

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) نفس المرجع، ص ٥١ - ٥٢.

(٣) وولش (و.هـ.): مدخل لفلسفة التاريخ، ترجمة أحمد حمدى محمد، راجعه محمد بكير خليل (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٢٣.

وفرانسوا مـينيه (١٧٩٦ ـ ١٨٨٤) Francois Mignet، de Tocquevlle، وتاييــه (١٧٩٧ ـ ١٨٧٧) Thayer، والفــونس دى لامــارتين (١٧٩٥ ـ ١٨٦٩)Lamartine، وجول ميشليه (١٧٩٨ ـ ١٨٧٤)Michelet ، ولويس بلان (١٨١٢ ـ ١٨٨٢)Louis Blanc . وقد اختلف هؤلاء المؤرخون فى وجهات نظرهم، وتعارضت علاقتهم بمصادرهم وطرق استخدامها إلى حد بعيد، ولكنهم جميعا كانوا يسعون أساساً إلى كتابة رواية للأحداث.

ويقال إن دى توكفيل رفض التاريخ الذى كتبه تاييه، لأنه كان بعيداً عن كونه دراسة يمليها الضمير، لاتعتمد على الدليل الوثائقى، كما صدمه عمل لامارتين الأخلاقى «تاريخ الجيروند». ويشير المؤرخ الفرنسى جورج ليفيبر (١٨٧٤ ـ ١٩٥٩) George Lefeber إلى أن توكفيل لم يقتبس من أى تاريخ مبكر تناول أحداث الثورة الفرنسية[١]. ففى مقدمة كتابه الذى يعد من أشهر كتبه وهو «النظام القديم والثورة الفرنسية»، يذكر دى توكفيل أنه كتبه دون تحيز، ولكن ليس بدون عاطفة passion، وفى هذا يقول: « وغير ذى جدوى الإنكار أننى شاركت فى الكتابة بمشاعرى، فغاية الموضوعية فى التاريخ ـ لو وجدت ـ أمراً غير واقعى، والتاريخ الموضوعى البحت سوف يكون أيضا تاريخا ميتا، وأشد المؤرخين خطراً ذلك الذى يعتقد ويشجع قراءه على الاعتقاد أنه موضوعى تماما، ومن ثم فإن دى توكفيل بسبب مشاعره الخاصة التى شاركت كتاباته، فقد سيطر كتابه «النظام القديم والثورة الفرنسية» بقوة على القارىء، واستطاع أن يعطى قارئه نفاذ بصيرة عبقرية الملامح[٢].

أما المؤرخ جول ميشليه فقد كان مثله الأعلى فى التاريخ هو «الإحياء» ressurrection، أى إحياء الماضى، حتى أنه عاش فى الماضى

---

(١) Tayor (Jon), A Lexis de Tocqueville., in the Historican at Worke. ed. by John Canon., P. 73.

(٢) Ibid., P. 74.

بصورة لم يعرفها أحد من قبل أو بعد. واستولى على مشاعره حب جارف لوطنه، وكتب بأسلوب اتسم بالروعة والذكاء والمشاركة الوجدانية والتأثير[1]. وقدر أى ميشليه فى التاريخ نضالا روحياً، صراعاً بين الروح والجسد، حربا بين الحرية والجبرية necessity، وآمن بأن فرنسا رسول الحرية للعالم الحديث، وقال عنها إنها مركز العالم وقوته الحيوية. وأخذت أفكاره فى التاريخ شكلا محدداً، فقد مال إلى أن يتتبع الحياة العميقة للشعب الفرنسى واستخدام الأغانى الشعبية والعملات والحلى والصورة والأمثال والعمارة والزجاج الملون[2]. وفى سنة ١٨٣٣ نشر ميشليه المجلد الأول من كتابه المطول «تاريخ فرنسا»، وفى سنة ١٨٤٣ انتهى من العمل فى هذا الكتاب حتى نهاية العصور الوسطى. وحتى تلك السنة لم يكن ميشليه ضد مبادىء الكنيسةالكاثوليكية، ولكن حدث التغيير عندما دخل فى صراع ضد الجزويت (اليسوعيين) الذين هددوا بالسيطرة على التعليم الفرنسى، ذلك أن لويس فيليب باع نفسه للجزويت، وفى المقابل طلبوا منه أن يسيطروا على التعليم فى فرنسا ثمنا لتأييدهم له. وكان مركز المعركة الكوليج دى فرانس Collége de France التى أسسها فرانسيس الأول لتكون مقراً للتعليم العلمانى خارج جامعة باريس الدينية، فهاجم ميشليه الكنيسة لمحاولتها إعاقة العقل العلمانى[3].ولم يقف الأمرعند هذا الحد، بل ترك ميشليه العصور الوسطى ليتحول فجأة إلى الكتابة عن الثورة الفرنسية، فكان كتابه الرائع «تاريخ الثورة الفرنسية»، وهو عمل كتبه بين سنتى ١٨٤٣ و١٨٥٥، صورفيه انتصار الشعب على

---

(١) Scheville, Six Historian, pp. 197-198; Gay (Peter), Historians at Work, Vol. III, p. 68; Butterfield, Man on his past (U.S.A., 1966), pp. 228-232.

(٢) Butterfield, Op. Cit., p. 234.

(٣) Butterfield, Op. Cit., p. 235.

طغيان الكنيسة والملكية على السواء. وقد استخدم ميشليه المصادر بعد أن حرّفهاخدمة لمبادئه وموضوعه، وكتب عن تاريخه قائلا: «إذا أردت رجالا أمواتا وأحداثا ميتة تعود إلى الحياة فها هي»[1].

ومن الأمثلة على اختلاف آراء المؤرخين بالنسبة لنفس الحدث، ما حدث عندما تناول المؤرخان جول ميشليه وجان جوريس (١٨٥٩ - ١٩١٤) أحداث الثورة الفرنسية، ففى الكتاب الذى أصدره مشيليه ذكر أن سبب قيام تلك الثورة هو البؤس الشديد الذى عانى منه الشعب الفرنسى، فى حين ذكر جوريس فى كتابه «التاريخ الاجتماعى للثورة الفرنسية» الذى ظهر فى بداية القرن العشرين، أن السبب الأساسى للثورة ليس هو فقر الشعب، بل ثراء البورجوازية التى كانت تطمح فى الاستيلاء على السلطة، وبالتالى كانت تريد أن تلغى العوائق التى تقف أمام تقدم نمو الاقتصاد الفرنسي[2]. إذن ليس ثمة أى تناقض بين تفسيرى مشيليه وجوريس، فالثورة الفرنسية ثورة على الفقر والبؤس، وثورة من أجل الرخاء.

ولايمكن للمؤرخ إعداد عمل تاريخى بدون اختيار جزء معين من الأحداث المتاحة، بمعنى أن عمل المؤرخ لايخرج عن كونه اختياراً للأحداث التى يريد أن يتناولها، ولايمكن أن تنفصل نظرته عما يختاره من أحداث. وقد لاحظ المؤرخ الهولندى بوسماكر Bussemaker أن اختيار المؤرخ للحقائق التاريخية هو نوع من إصدار الحكم على أهميتها، الأمرالذى يجعلنا لانصدق أن التاريخ يتسم بالموضوعية. كما كتب عالم المنطق شيلر قائلا: «إن المعرفة غير المتحيزة عملية لايصدقها

(١) Gay, Op. Cit., v. III. P. 68; Butterfield, Op. Cit., p. 228.

(٢) Stern, The Varieties, of History, pp. 164-165.

العقل، وينبغى أن نسلم أيها فكرة مجردة وخيال واستحالة، .ويرى المؤرخ هازليت Hazlitt فى مقالته «فى العبقرية والبصيرة السديدة» On Genius and common sence أن الفن والتذوق والحياة والخطابة كلها حالات نابعة من الشعور (الوجدان) وليس من العقل. أما المؤرخ البلجيكى هنرى بيرين (١٨٦٢ - ١٩٣٥) الذى درس تاريخ التجارة والمدن والديمقراطية ومراحل التاريخ الاجتماعى للرأسمالية فى العصور الوسطى فقد فسر صعوبة احتفاظ المؤرخ بشخصيته بعيداً عن التاريخ الذى يتناوله بقوله: «موضوع المؤرخ هو المجتمع نفسه، وعمله هو فهم وإعادة سرد الأحداث التى تتكون عناصرها من رجال مثله، وشعوب مثل الشعب الذى ينتمى إليه، وحتى إذا كان من الممكن أن يتجرد من مشاعره، فلا يمكنه أن يظل موضوعياً تماماً، ومهما كانت شخصيته فليس فى استطاعته أن يهرب من بيئته الإجتماعية، لأن العصر الذى يعيش فيه المؤرخ يعبر بالضرورة عن نفسه فى الأعمال التى يتناولها، وتتحدد وجهة نظره الخاصة بمستوى حضارة الشعب الذى يخاطبه، وهو عضو فيه لا ينفصل عنه[1]. ويكرر بيرين الإشارة إلى أنه لايمكننا أن نسلم أنفسنا إلى منطق التاريخ، لأننا ننظر كثيراً إلى الأحداث والوقائع من زاوية عاطفتنا ومصالحنا كأشخاص أو أفراد ينتمون إلى طبقة من الطبقات، وهذه عوائق تقف حائلا دون كتابة التاريخ بموضوعية. لقد كتب بيرين تاريخه بدقة ووضوح، وكبح جماحه عن استخدام الأسلوب البراق فى الكتابة، وصور بعض الشخصيات ببراعة فائقة الحد، ولكنه لم يخضع أبداً لإغراء تفسير أفكارهم الباطنية أو إعادة تكوينهم السيكولوجى[2]. كما يرى المؤرخ

(١) Renier, Hist., its Purpose and Method., PP. 249-250.

(٢) Pirenne (Henri), A Hist. of Europe, Vol. I. (U.S.A., 1957), Introudcton by Jan-Albert Goris., P. XVI.

الهولندى رينييه أن المؤرخ لايستطيع أن يتحرر تماما من الدافع الإنسانى إلى إصدار الأحكام، ولايستطيع كذلك فى كل المناسبات أن يقاوم إغراء المشاركة فى الأعمال التى يروى أحداثها(١).

ويعترف المؤرخ البريطانى هربرت بترفيلد Herbert Butterfield أن التاريخ بدون تحيز من الممكن أن ينظر إليه كمجرد تاريخ ممل، ومن ثم فإن إسهام الخيال التاريخى المنظم الذى لايخرج عن إطار الحقيقة يعتبر ضروريا. ولايمكن الحصول على رواية صحيحة ما لم نرى الشخصيات التاريخية من الداخل، نحس بهم مثلما يشعر أى ممثل بالدور الذى يلعبه. وكان بترفيلد ينتقد بقسوةأولئك الذين يعتقدون أن كتابة التاريخ تزيد قليلا عن نسخ بطاقات الفهارس، فالمؤرخ مشاهد للماضى، ولكنه ليس مشاهدا سلبيا، وهو وحده الذى يستطيع أن يجعل الماضى واضحا فى عيون الحاضر، «وبهذا المعنى ينبغى أن يكتب التاريخ دوماً من وجهة نظر الحاضر، وينبغى على كل جيل أن يعيد كتابةالتاريخ من جديد». ويختلف بترفيلد مع المؤرخ البريطانى لورد آكتون القائل بأن المؤرخ قاضيا، فالمؤرخ ليس قاضيا ولامحلفا، ولكنه يشبه فى كثير من الوجوه المشاهد الخبير، وهو أقرب ما يكون إلى المستجوب (المحقق) detective(٢).

وقد سبقت الإشارة عند الحديث عن الموضوعية فى كتابة التاريخ إلى أن رانكه كان يقول عن نفسه أنه مرآة تتراءى فيها الأحداث كما وقعت بالفعل فى الماضى. بيد أن المؤرخ برادلى رفض ذلك، فقد كتب فى سنة ١٨٧٤م. أنه لا يمكن أن يكون مؤرخاً هذا الذى يكتفى بدور المرآة الصافية التى تعكس ما ورد فى الوثائق، إذ لابد للمؤرخ أن يعايش

---

(١) على أدهم: «التاريخ بين الذات والموضوعية»، ص ١١٦.

(٢) Ferry (John), Herbert Butterfield, in Historian at Work., P. 175.

الأحداث ليتمكن من تفسير المعاني الكامنة وراء المعلومات التى يحصل عليها، فالمعلومات فى حد ذاتها، كما يعثر عليها فى المخطوطات والمصادر القديمة، لاتزيد عن كونها مجموعة من الشهادات المنفرة المزعجة، ومن الأقاصيص المفككة المتناقضة. ويتوقف ما ينسخه المؤرخ من هذا الخليط على شخصيته واستعدادته وخبراته، ذلك لأن وثائق الماضى تضم ما هو انطباع ذاتى، وما هو حقائق موضوعية، وما هو أسطورى، كما أنها زاخرة بأحكام واستنتاجات تحتمل الصواب والخطأ بالضرورة[1].

وهكذا فالمؤرخ موجود بوضوح تام فى عمله بكل ذرات شخصيته ومزاجه وشعوره الكامل وعقله، وسيكون من السخف والخطورة أن يطلب من المؤرخ إخفاء مشاعره. وفى هذا الصدد يشير المؤرخ هالفن Halphen إلى أن تحيز المؤرخ له فائدته، لأنه يحذرنا من الحدود التى تقف عندها أفكاره. ويقر المؤرخ البريطانى تريفليان (١٨٧٦ - ١٩٦٢) أن التحيز المتزن أمر ضرورى، إذ يساعد المؤرخ أحيانا على أن يعطف على الناس الذين عاشوا فى الماضى، حينما يكون عمله وصف أعمالهم. كما يذكر المؤرخ بوير Bauer أن عبادة الموضوعية تنطوى على عيوب جسيمة لأنه لا يمكن الوصول إلى أهدافها أو تحقيقها، وما على المؤرخ إلا أن يتجنب الميول والأهواء وكذلك الموضوعية التى لا لون لها[2].

الذاتية المتطرفة فى كتابة التاريخ:

ولكن بعض المؤرخين نزعوا إلى الذاتية المتطرفة فى كتاباتهم التاريخية، فاستبعدوا التزام الحيدة، وتحمسوا بشكل زائد لآرائهم، متأثرين بمصالحهم القومية، فجاءت كتاباتهم أكثر تعصبا إلى الحد الذى انتفت فيه أمانتهم فى تقصى الحقيقة. وأبرز من يمثل الذاتية المتطرفة فى

---

(١) كولنجوود: فكرة التاريخ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٢) Renier, Op. Cit., PP. 250-251.

كتابة التاريخ القومي - وبخاصة ألمانيا - فردريك كريستوف داهلمان (١٧٨٥ - ١٨٦٠)، ويوحنا جوستاف درويسن (١٨٠٨ - ١٨٨٤) Droy-sen، وماكس دنكر (١٨١١ - ١٨٨٦) Dunkerرائد الدراسةالعلمية لآثار الشرق القديم في ألمانيا، وهنرى فون سيبل (١٨١٧ - ١٨٩٥)Sybel ، وهنرى فون تريتشكه (١٨٣٤ - ١٨٩٦) Treitschke، فقد كانوا «أنبياء» مدرسة رانكه التاريخية، ثم انفصلوا عنها(١)

فالمؤرخ داهلمان الذى يعتبر «أبا لمدرسة التاريخ البروسية» لم يكن مؤرخاً من الدرجة الأولى، بل كان فى المقام الأول دعائياً تغلب عليه عاطفة الوحدة الألمانية، واشتهر بأنه كان خطيبا مفوها، ووطنيا متحمساً، وملهما للعمل السياسى، وكاتبا ومدرساً للتاريخ. أما دنكر فقد كان تلميذاً لرانكه، بيد أنه لم يكن مؤرخاً بارزاً، وأشهر أعماله «التاريخ القديم»، ويقع فى تسعة مجلدات، وهو عمل قليل القيمة، على الرغم أنه اعتمد على وثائق جديدة اكتشفها مؤرخون آخرون. ومع أنه تدرب فى سمنار رانكه، إلا أنه كان عاجزاً أوغير راغب فى استخدام نقد المصادر المتاحة(٢). أما سيبل الذى كان أبرز تلاميذ رانكه واعترف بأنه مدين لأستاذه «وقضى سنتين فى سمناره، فقد تخاصم مع أستاذه، وأصبح فى المقام الأول نصير «مدرسة التاريخ البروسية» وقد نشر سيبل فى سنة ١٨٤١ كتابه «تاريخ الحملة الصليبية الأولى»، ولقى استحسانا فى سمنار رانكه. وبعد ذلك بثلاث سنوات أصبح أستاذاً فى بون، وفى سنة ١٨٥٦ عين أستاذا فى ميونخ بتوصية من رانكه، وفى الفترة من سنة ١٨٦١ إلى ١٨٧٥ رجع إلى ميونخ مرة أخرى، وعينته الحكومة البروسيةمديراً للأرشيفات اعترافا بجميله باعتباره أعظم المتحدثين باسمها. وكانت هذه السنوات

---

(١) Thompson & Hellman, A Hist. of Historical Writing., P. 205.

(٢) Ibid., PP. 205-208.

مليئة بالعمل السياسى والبحث والنشاط الصحفى، وكلها كانت من أجل هدف واحد هو تأييد حكومة الهوهنزلرن Hohenzollern القوية. وفى رأى سيبل أن التاريخ ما هو إلا أداة من أدوات السياسة، وانتقد رانكه لموضوعيته، وأصر على أنه ينبغى أن يكون للمؤرخين الألمان «وعياً وطنياً» national conscience[1]. ويذكر المؤرخ بارنز[2] أن سيبل كان آخر الزعماء الثلاثة - درويسن وتريتشكه وسيبل - للمدرسة البروسية، وقد بدأ عمله تلميذا مخلصا لرانكه، ولكن المواقف السياسية المثيرة التى شاهدها فى منتصف القرن التاسع عشر جعلته يتخلى عن اتزان أستاذه، وأصبح المدافع القوى عن الوحدة الألمانية عن طريق الزعامة الحربية البروسية. وجاء كتابه «تاريخ الثورةالفرنسية» هجوما عنيفا على حركة الثورة الفرنسية، فركز فى كتابته على الاعتقاد الرومانسى السابق الذى يتضمن افتقار الفرنسيين إلى المقدرة الساسية. ثم تحول بعد ذلك إلى وصف الأحداث التى بدت له أنها قادرة على إثبات قوة أمته الفائقة فى الشئون السياسية، وهى قيام الإمبراطورية الرومانية (الألمانية) على أيدى بسمارك.

ومن المؤرخين الألمان الذين لم ينهجوا نهج رانكه فى الإلتزام بالموضوعية درويسن، فقد ترك اهتمامه بدراسة التاريخ القديم، وكرس نفسه للسياسة والتاريخ الحديث فى مدينة كيلKiel. وفى هذه المدينة التى كانت تعتبر قاعدة القومية الألمانية، اشتعل درويسن حماساً للوحدة الألمانية، واقتنع بأنه لايوجد حلا لألمانيا إلا باتحادها مع بروسيا[3]. وقد تخلى درويسن عن مذهبه الحر الذى اعتنقه مبكرا، ليصبح مادحاً متملقا

(١) Ibid., p. 209.

(٢) Barnes, A Hist. of Historical Writing., P. 211.

(٣) Thompson & Ehrman, A Hist. of Historical Writing., Vol. II, PP. 214-216.

ذليلا لأسرة هوهنزلون، ولذلك جاء كتابه «تاريخ السياسة البروسية» مشوباً بتحيز تام لصالح ما أسماه الرسالة التى جاءت هذه الأسرة لتحقيقها(١).

وكان من معاصرى رانكه فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر المؤرخ الألمانى القدير تريتشكه، الذى كان يتناول التاريخ من وجهة نظر تخالف تماما وجهة نظر رانكه، فقد كان شديد التعصب للنزعة الألمانية، وكان يكتب التاريخ من وجهة النظر الألمانية، ويعلن ذلك ولايخفيه بل يدعو إليه، ويحمل على مخالفيه،.ويتهمهم بضعف الشعور القومى. وعلى الرغم مما اشتهر به تريتشكه من التعصب والتحامل، فإن كتابه الشهير «تاريخ ألمانيا فى القرن التاسع عشر» يعد من الكتب المأثورة، إحدى التحف الأدبية الرائعة فى الكتابة التاريخية الحديثة(٢). والواقع أن تأثير تريتشكه على الكتابة التاريخية الألمانية لم يكن كبيراً، ولكن تأثيره على الرأى العام كان بالغاً، حتى أنه اعتبر فى خارج ألمانيا المتحدث الرسمى باسم الرايخ، وأحد أعظم الذين يمجدون الحرب ويدعون إليها، ووجدت أفكاره ترحيبا شديداً فى ألمانيا، فقد نادى بأنه ينبغى على الألمان أن يسيطروا على أوربا. وفى ذلك يقول: «إن عصرنا هو عصر الحرب والقوة والحديد، ولاشك أن قانون الحياة يقوم على تحكم القوى فى الضعيف». ولذلك فإنه ما أن انتهت الحرب العالمية الأولى، حتى ظهر فى لندن أكثر من اثنتى عشرة كتابا عدائيا ضد تريتشكه(٣). ومن الجدير بالذكر أن تريتشكه أعلن رأيه فى التاريخ وهو فى الثلاثين من عمره، وضمنه رسالة بعث بها إلى والده يقول فيها: «لا أطمع فى أن أشتهر بين خصومى ممن يلتزمون الحياد فى كتابة التايخ، فإن هذا من المستحيل،

---

(١) Barnes. Op. Cit.,P. 210.

(٢) Thompson& Ehrman, Op. Cit., Vol. II, PP. 222-223.

(٣) Ibid., PP. 223-224.

والمؤرخ في الأوقات غير المستقرة لايسمى محايداً إلا بعد أن يموت، والموضوعية الهزيلة السقيمة التي لاتعلن الجانب الذي ينحاز إليه المؤرخ نقيض المعنى الصادق المستفاد من التاريخ، وكل المؤرخين العظماء قد كشفوا لنا بصراحة عن اتجاههم، فإن ثيوكيديدس أثينى الاتجاه، وتاكيتوس أرستقراطي النزعة، وعلى المؤرخ أن يعرض مادته بالغة أقصى ما يستطيع الكمال، ولكن المؤلف مثل القارىء له الحرية في إصدار الأحكام، وقد فعلت ذلك وقمت به، على قدر ما تسمح به معرفتي»[١].

وعلى أية حال، أصبح التاريخ القومي في ألمانيا مع ظهور «المدرسة البروسية» أكثر تعصبا وأكثر تمجيداً للأسر الحاكمة، حتى إن رانكه الذي كان يسيطر على عواطفه، لم يستطع أن يقلل من إعجابه ببروسيا وبأسرة هوهنزلون، ولذلك جاءت أعماله العديدة عن التاريخ البروسي أقرب من كتاباته الأخرى لتكون تاريخيا قوميا[٢].

ونلاحظ في بريطانيا أيضا التركيز على الافتخار بالقومية فيما كتبه أكثر المؤرخين الإنجليز تعصبا للقومية وهو جيمس أنطوني فرود (١٨١٨-١٨٩٤) Froude الذي وصف أمجاد الثورات الإنجليزية منذ عصر الإمبراطورية الرومانية. ويأتي بعد ذلك المؤرخون المدافعون عن حزب الأحرار مثل جيمس ماكنتوش وهولام Hallam، وتوماس بابنجتون ماكولي (١٨٠٠ - ١٨٥٩) Macaulay، وهم الذين مجدوا ثورة ١٦٨٨ - ١٦٨٩، ويعتبر كتاب «تاريخ إنجلترا» الذي كتبه ماكولي النظير الإنجليزي للأعمال التاريخية التي كتبها تريتشكه وميشليه. ويعد ما كتبه المؤرخون

---

(١) على أدهم: «التاريخ بين الذات والموضوعية»، ص ١١٧.

(٢) Barmes, A Hist. of Historical Writing., P. 210.

الإنجليز أروع ما أسهموا به في الكتابة التاريخية، وبالغ القيمة، على الرغم مما يشوبه من تحيز(١).

التوافق بين الموضوعية والذاتية في كتابة التاريخ:

المناقشات التي دارت حول ما إذا كان ينبغي أن يكون التاريخ موضوعيا أو ذاتيا جرى التعرض لها كثيراً - كما رأينا - دون أن تحرز تقدماً ملحوظاً. فالحقيقة أن كلمتي الموضوعية والذاتية قيدان Straighti-jackets لا يشعر المؤرخون بالراحة في أي منهما. فلو أننا نقصد بالتاريخ الموضوعي البحت أنه تاريخ مجرد منزه عن المحاباة لاتلونه المشاعر الشخصية أو الآراء الخاصة، فإن مثل هذا النوع من التاريخ لايمكن الحصول عليه حتى لو استخدمنا جهاز الكمبيوتر الذي يحتفظ بالمعلومات لنستدعيها عندما نشاء في الوقت الذي نشاء، ذلك لأن عمل المؤرخ لايخرج عن كونه اختيار للأحداث التي يريد أن يتحدث معها، وهذا الاختيار لايمكن تكوينه إلا في ضوء ما يراه المؤرخ هاما(٢).

والواقع أن مهمة المؤرخ في غاية الصعوبة، ذلك لأن الوقائع التاريخية ليست كالوقائع الفيزيائية، فالأخيرة حاضرة باستمرار يمكن إجراء التجارب عليها أبداً، وفي درجة واحدة، ويمكن أن نعزل بعضها عن بعض، أما الوقائع التاريخية فتمتاز بعدة خواص أهمها أن الوثيقة التاريخية، وهي الشيء الوحيد الباقي من الواقعة التاريخية والأساس الوحيد الذي يقوم عليه التاريخ تأتي دائماً مختلطة بكثير من الوقائع. وفضلا عن هذا فإن الواقعة التاريخية محددة بزمان ومكان معينين، وإلا لم تكن لها قيمة تاريخية حقيقية، بينما الواقعة العلمية ليست محددة.

---

(١) Ibid., P. 219.

(٢) Canon, The Histoian at Work., P. 7.

بزمان ومكان[1]. وبعبارة أخرى، يفترض الحياد أن يترك الباحث تفضيلاته الذاتية على الموضوع الذى يدرسه، وهذا النوع من الحياد يمكن تطبيقه فى مجال العلوم التجريدية، حيث لايمكن أن تنشأ عاطفة بين الباحث وموضوع بحثه، الذى يكون حول مفردات الجماد أو النبات أو الحيوان. أما فى دراسة التاريخ، فهذا الحياد الصارم بين الذات والموضوع يصعب اتخاذه، لأن الباحث وهو ذات بشرية يعالج تجربة بشرية فى فترة ما، وبالتالى فمن الصعب التوصل إلى هذا القدر من الحياد بين طرفين ينتميان إلى أصل واحد[2].

وفى المقام الأول، استطاع علم النفس الحديث أن يحطم مزاعم وإدعاءات أولئك الذين يتمسكون بموضوعية تامة فى كتابة التاريخ. فقد أوضح هذا العلم أنه ليس بالمستطاع قيام عمل فكرى دون اهتمام حقيقى واقتناع أكيد به، والرأى القائل أن الفكر الإنسانى يمكنه أن يؤدى وظيفته فى حيوية بدون عواطف وهدف، أمر يناقض تماما معظم المبادىء الأساسية فى علم النفس[3].

ويعتقد المؤرخ الألمانى الكبير تيودورمومسن[4] (١٨١٧ - ١٩٠٣)

---

(١) عبدالرحمن بدوى: مناهج البحث العلمى، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) عاصم الدسوقى: البحث فى التاريخ، قضايا المنهج والإشكالات (القاهرة ١٩٨٦)، ص٢٠٤.

(٣) Barnes, A Hist. of Historical Writing., P. 266.

(٤) تمثل حياة وإنجازات تيودورمومسن أفضل روائع الكتابة التاريخية فى القرن التاسع عشر، ويعتبر أعظم باحث فى عصره، وأعظم المؤرخين إنتاجا، فقد نشر ١٥١٣ بحثاً مختلفة فى حقول متعددة: التاريخ ،ودراسة النقوش، والعملات، والقوانين الدستورية والمدنية، والآثاره وآلاف الصفحات التى كتبها أنجزها بنفسه دون مساعدة سكرتير أو كاتب اختزال، ولاعجب أن ذكر أحد الباحثين المعاصرين أن ما قام به يستغرق كتابته باليد ٤٠٠ سنة. وقال باحث بريطانى أن إنجازات مومسن أعظم عمل قام به باحث من ناحية الكم والكيف فى القرن التاسع عشر. وقد ولد مومسن فى ولاية شلزويج - هولشتين التى كانت ألمانية فى لغتها وثقافتها، وظلت تحت السيطرة الدنماركية الإسمية حتى سنة

Mommsen، أنه لايستطيع أبدا فهم تيار الأحداث التاريخية إلا إذا ألقى بنفسه فى غمرة هذه الأحداث، وجعلها تحمله فى طريقها. فلم يكن بالمشاهد الهادىء، بل كان مشاركا فى الدراما الكبرى لتاريخ العالم. وبهذه الوسيلة استطاع القيام بدوره بحيوية جمة، حتى كاد الماضى فى يديه ألا يصبح ماضيا، فقد أزيلت الفوارق بين العصور، فنحن نقف فى منتصف التاريخ الرومانى، وكأنه تاريخنا المعاصر، ونحن نتتبعه متأثرين بطريقة أو أخرى بنفس الاهتمام(١). وقد أثر كتاب مومسن «التاريخ الرومانى» تأثيراً ساحراً فى كل إنسان فى فترة من فترات حياته، ولم تكن لدى مومسن أية رغبة فى التوجيه المباشر، مثل كثير من المؤرخين السياسيين، كما لم تكن لديه أية ميول تعصبية، كما هو الحال عند المؤرخ تريتشكه، إلا أنه لم يخف ميوله ونفوره. ولقد كان مومسن موضوعياً فى كتاباته التاريخية وفى نفس الوقت نبذ كل محاولة لمحو ذاته لجعل الوقائع تتحدث عن نفسها. وقد جعل لسلطته الموضوعية التاريخية معنى آخر بأن غير مفهومها، فالشخصية التاريخية لايمكن أن تفهم إلا عن طريق الشخصية، ويستحيل هذا بغير تعاطف وثيق، وبلا حب أو كره(٢). وفى هذا يقول: «إن الذين خبروا أحداثا تاريخية كما خبرت، لابد لهم من أن يروا أن التاريخ لا يكتب ولايصنع بدون حب أو كراهية»(٣). على أن مومسن تراجع عن هذا الأسلوب الشخصى فى

= ١٨٦٦، وهو إبن قس فقير، وظهرت موهبته عندما كان يدرس القانون فى جامعة كيل، وبعد أن تخرج منها فى سنة ١٨٤٤، حصل على منحة من الحكومة الدنماركية للسفر إلى إيطاليا، حيث بقى فيها ثلاث سنوات يجمع ويدرس النقوش اللاتينية، وهو عمل استغرق معظم حياته. انظر:

Gay (Peter), Historians at Writing., Vol. III., PP. 271-272; Thompson, A Hist. of Historical Writing., PP. 502-503; Stern, The Varieties of History., P. 191.

(١) كاسيرر: فى المعرفة التاريخية، ص ٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٣) Teggart, Theory and processes of History., p. 38.

مؤلفاته الأخيرة، وخاصة بعد أن تقدم فى العمر. ففى هذه المؤلفات أصبح أكثر مثابرة على البحث عمائم فى التاريخ بدلا من إضاعة وقته فى معرفة نيات الأفراد ورغباتهم وأفعالهم، وأولى اهتماما أكبر بالنظم المالية ورسائل الحكومة والمخطوطات أكثر من اهتمامه بوصف الأحداث الجزئية والشخصيات. وفى هذه المسألة لم يضع أحد معياراً أشد صرامة للموضوعية من المعيار الذى وضعه مومسن. وقد يتسنى له بفضل العنصرين اللذين اشتراكا فى تكوينه، وهما العنصر الواقعى والعنصر الشخصى اللذان يمثلان الاهتمام الموضوعى والذاتى، واللذان يتكاملان على الدوام فى نوع من الاتزان المثالى، أن يحقق الكمال فى صورته الحديثة عن التاريخ القديم(١).

وبعد، فقد رأينا فيما سبق أن رانكه وأتباع مدرسته ركزوا فى كتاباتهم التاريخية على الموضوعية الصارمة، ونظروا إلى الماضى على اعتبار أنه شىء مستقل عن نزعات الإنسان ومشاعره وميوله وآماله الحاضرة، ونادوا بنقد الوثائق من حيث شكلها وباطنها، وإعادة بناء الماضى كما لو كان بالضبط من خلالها. وليس من شك فى أن تشرب المؤرخ بروح النقد يقيه شر الوقوع فى الأخطاء، ويصونه من مغبة الانزلاق نحو الأوهام. أما تريتشكه ومن نهج نهجه فقد رأوا استحالة الوصول إلى الموضوعية البحتة فى كتابة التاريخ، من منطلق أنه لايكن فصل الإنسان عن مشاعره وأحاسيسه وعواطفه، وأن الجرى وراء الحياد التام فى الكتابة التاريخية لاينتج تاريخا على الإطلاق. فالتاريخ ليس له تفسير واحد، وعلى المؤرخ أن يحيا الماضى بكل ما كان عليه، ويستعيد الوقائع التاريخية، كأنه عاينها بنفسه، ولهذا سيظل التاريخ بالضرورة

---

(١) كاسيرر: فى المعرفة التاريخية، ص ٦٦ ـ ٦٧.

ذاتيـا. ومن ناحـيـة أخـرى، وقف بعض المؤرخين مـوقـفـا وسطا من الموضـوعـية والـذاتية، فـجـمـعوا بينهـما فـى نوع من التـوافق والاتسـاق والاتزان، ونظروا إلى الحقائق التاريخية نظرة أمينة وصادقة ونزيهة.

والخلاصة أن الموضوعية والذاتية فى التاريخ مفهومان مرتبطان ببعضهما بعضا، وإذا وازنا بين النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية فى كتابة التاريخ، نجد أن النزعة الموضوعية رغم ما فى طريقها من الصعاب أقرب ما تكون إلى المنهج العلمى، وبدونها لايكون للبحث قيمته المتعارف عليها. فالكتابة التى تغلب النعرة القومية والميل إلى التعصب والمحاباة ورواسب العادات والتقاليد، تسمم الجو الدولى، وتقيم العقبات فى سبيل التفاهم بين الدول، وتسهم فى إشعال العداوة بين الأمم. وإذا كانت النزعة الموضوعية المطلقة حلما صعب المنال، والنزعة الذاتية الهادفة مطلب مرغوب فيه، فلا أقل أن يجمع المؤرخ بينهما. ولعل أهم صفة تطلب من المؤرخ هى صفة الاتزان، فلا تطغى كفة العاطفة عنده على كفة الموضوعية، ولا يعيش الماضى فحسب، بل يعيش الحاضر أيضا، بعيداً عن الأحقاد والكراهية.



الفصل التاسع

إعادة كتابة التاريخ

سبق أن أشرنا إلى أن مفهوم التاريخ قد تغير كثيراً فى العصر الحديث، فلم يعد قاصراً على سرد أحداث الأسر الحاكمة والحروب والمعارك التى دارت بين الدول والأمم، بل امتد إلى كافة جوانب الحضارة الاجتماعية والاقتصاديةوالفنية. ولهذا أصبح من الصعب على مؤرخ بمفرده الإلمام التام بكل الأعمال التاريخية لدولة ما ولو عن فترة محدودة. ويؤكد ذلك المؤرخ الألمانى القدير ثيودورمومسن (١٨١٧ - ١٩٠٣) الحائز على جائزة نوبل فى الآداب فى سنة ١٩٠٢ ،إذ يرى أن كاتبا واحدا بمفرده لن يستطيع الاضطلاع بأعباء البحث التاريخى، ولذا فمن الضرورى تنظيم العمل بين الموهوبين، ثم يأتى بعد ذلك دور المؤرخ الحق بطابعه الفردى وعبقريته[1].

وفى وقتنا الحاضر دار الجدل حول إعادة كتابة التاريخ، وظهرت وجهات نظر متعددة متباينة تدعو إلى ذلك. فالبعض يدعو إلى ذلك من منطلق أن أحداث التاريخ تتجدد رؤيتنا لها، ومن ثم فعلينا تقييم هذه الأحداث فى ضوء تطور المناهج التاريخية والوعى التاريخى. كما أن اكتشاف وثائق جديدةهامة تتعلق بأية دولة من الدول أو أية شخصية من الشخصيات المرموقة، يحتم على المؤرخين إعادة كتابةتاريخ تلك الدولة أو الشخصية على ضوء تلك الوثائق. كذلك تتضح ضرورة إعادة كتابة التاريخ إذا كان ما كتب منه فى موضوع ما قليل وتنقصه الموضوعية، أو أن ما كتب منه كان على سبيل الدعاية والترويج لفكرة معينة. ومما يدعو إيضا إلى إعادة كتابة التاريخ وجود فترة غير واضحة المعالم، ينبغى علينا أن نعيد لها حقها بإيجاد المادة التاريخية والوثائق المتعلقة بها.

ومن المعروف أن الأساس الذى ينبغى على المؤرخ أن يستخدمه هو

---

(١) كاسيرر: فى المعرفة التاريخية، ص ٨٩.

بالطبع مبادىء المعرفة التى يقدمها له عصره. ولهذا السبب يرى المفكر الألمانى جوته Goethe ضرورة إعادة كتابه التاريخ من وقت لآخر، إذ ليس من المبالغة أن كثيراً من الحقائق الجديدة سوف يتم اكتشافها، والأهم من ذلك أن كل جيل يحكم على الماضى بطريقة جديدة مسايرة للتطور الفكرى والحضارى، ويلاحظه من زوايا مختلفة(١).

أما التاريخ الذى تعرض فى عصر من عصوره للتزوير والتزييف عن قصد أو نتيجة لسوء فهم، فهو فى حاجة إلى التصدى له وتصحيحه بإعادة كتابته - أو التفكير فيه - بنظرة موضوعية وأصالة وصدق. فعلى سبيل المثال تلك الرواية التاريخية التى تحمل اسم «هبة قسطنطين» Do-nation of Constantine. وتتلخص فى أن بعض المتحمسين للبابوية فى الغرب الأوربى ذكروا أن الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧) كان قد ابتلى بداء عضال هو مرض الجذام لم يشف منه إلا بصلوات وبركات البابا سلفستر الأول (٣١٤ - ٣٣٥)، فكافأه قسطنطين بإصدار قانون يبيح للبابا بارتداء التاج واستعمال الصولجان تماماً كالأباطرة. ولكى لاتتأثر سلطة البابا بوجود شخص الإمبراطور فى روما، فقد تركها قسطنطين للبابوات، وابتنى لنفسه عاصمة جديدة هى القسطنطينية، ثم عهد للبابوات بحكم روما وإيطاليا كلها. وقد ثبت اختلاق هذه الرواية منذ أواخر القرون الوسطى، حيث قام بتفنيدها تفنيداً علميا المؤرخ الناقد الإيطالى لورنزو فالا (١٤٠٦ - ١٤٥٧) سنة ١٤٤٠(٢). فقد هاجم المؤرخ

---

(١) Salvemini (Gaetano), Historian and Scientist (U.S.A., 1939), P. 72; Smellie, Why we read History., P. 76; Teggart, Theory and processes of History., P. 15.

(٢) بارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، جـ ١ ص١٥٢؛ جوزيف نسيم يوسف: تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها (القاهرة ٧٤-١٩٨)، ص ١٩١ - ١٩٢؛ حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٦٨ - ٦٩.

بعنف شديد هذه الوثيقة وطعن فى صحتها، وذكر أنه ليس من المعقول أن قنسطنطين كان أحمقا لدرجة أن يسلب نفسه من سلطة الهيمنة على روما، ويتركها للبابوية، وقد اكتشف لورنزو تزوير هذه الوثيقة بفضل درايته بالنحو اللاتينى وأسلوب الكتابة، حيث أثبت أن كتابتها ترجع إلى القرن الثامن الميلادى(١). وأحيانا أخرى تزيف الوثائق من أجل بيعها، فقد ظهرت رسائل مزورة لملكة فرنسا مارى أنطوانيت مراراً وتكراراً لهذه الغاية. كما زور بائع تواقيع (أوتوجرافات) من فيلادلفيا فى الولايات المتحدة الأمريكية إسمه روبرت سبرنج ذات يوم مئات من التزويرات الماهرة، خادعاً بذلك هواة جمع تلك التواقيع، ومن الأمثلة الحديثة المشهورة على التزوير مراسلة إبراهام لنكولن وآن روتلدج التى انطلت على «مجلة أتلانتيك الشهرية» فى سنة ١٩٢٨(٢).

ومما يجدر ذكره أن المعاهدات الدولية التى تنشر فى الصحافة، من الممكن أن يلحق بهابنود سرية لاتأتى هذه البنود على صفحات الجرائد، فى حين أن معرفة تلك البنود من الناحية العملية المغزى الحقيقى لهذه المعاهدت. وفضلا عن هذا، فإن مجموعات الوثائق الدبلوماسية التى تخرجها المكاتب الخارجية Foreign Offices من حين إلى آخر لتبرير أنشطتها والوقوف عليها هى بوجه عام تعتبر تزويراً ماهراً على وجه التقريب(٣).

ولعله لنامن تاريخنا خير مثال على تزييف التاريخ، فقد لجأ الخلفاء العباسيون إلى سياسة التشهير بنسب الفاطميين. وفى ذلك أمر الخليفة

---

(١) Hay (Denys), Annalists and Historians. (London, 1977), PP. 92-93; Tholfsen, Historical Thinking, PP. 078-79.

(٢) جونشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ١٤٠.

(٣) Salvemini, Historian and Scientist., PP. 39-40.

العباسى القادر بالله فى ربيع الثانى سنة ٤٠٢هـ (نوفمبر ١٠١١م) بكتابة محضر يتناول الطعن فى نسب الفاطميين وبطلان إمامتهم، على أن يقرأ فى بغداد وينشر فى الأمصار، وقد جاء فيه: «وهم (الفاطميون) منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرّمى إخوان الكافرين، ونطف الشياطين.. أدعياء خوارج لانسب لهم فى ولد على بن أبى طالب، وأن ذلك باطل وزور... وأن هذا الناجم بمصر (الحاكم بأمر الله الفاطمى) وسلفه كفار وفساق فجار زنادقة.. عطلوا الحدود وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ولعنوا السلف وادعوا الربوبية»(١).

وكثير من تاريخنا كتبه المستشرقون، الذى بالرغم من إتقانهم أدوات البحث العلمى وفن صناعة التاريخ، إلا أنهم استهدفوا خدمة أغراض التبشير والاستعمار، ولم يكن رائدهم فى كتابة التاريخ الحقيقة الموضوعية المجردة إلا قليلا(٢). ويؤكد ذلك ما كتبه الأب لامانس وجولد تسهير وكايتانى وغيرهم، التى تطفح كتاباتهم بالنظرة الاستعلائية والاستعمارية التى استهدفت السيطرة على الوطن العربى، وعلى هذا فإنها لم تتعامل مع التاريخ العربى على أنه تاريخ أمة أو شعب واحد، بل تعمدت أن تظهره بأنه فسيفساء لتاريخ فئات أو أحزاب أو قبائل أو طبقات أو أقليات أو أعراق، كما أنهم تناولوه ـ مرات كثيرة ـ بقسوة وكالوا له كثيراً من التهم، وأسقطوا عليه كثيرا من الأحكام والتفسيرات الخارجة عنه وعن روحه، والتى لايستحقها(٣).

وتعد الدولة العثمانية نموذجاً يستدل به فى تأييد الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى، فقد مرت تلك الدولة بمرحلتى العظمة والأفول،

---

(١) محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٢) سمير عبده: صناعة تزييف التاريخ (دمشق ١٩٨٩)، ص ٢٠.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٠ ـ ٢١.

والصعود والسقوط، وقد غطى عصرها الذهبى فترة من الزمان، من منتصف القرن الرابع عشر إلى منتصف القرن السادس عشر، بدأ بعدها الانحسار ثم السقوط. وقد قام العثمانيون بفتح مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية فى عام ١٤٥٣م، وأطلقوا عليها اسم إسلامبول، ومنها انطلقوا يرفعون راية الإسلام فى قلب أوربا. ولهذا السبب حقد الأوربيون على العثمانيين، ووصفوا محمد الثانى فاتح القسطنطينية بأنه السلطان الجاهل المتبربر المستغرق فى ملذاته مع جواريه، ونسبوا إلى تاريخ الدولة العثمانية كثيراً من التهم الباطلة الزائفة.

وهنا يجدر القول أن أغلب المؤرخين المسلمين لم يكونوا من المؤرخين الرسميين الذين تكلفهم الدولة بكتابة التاريخ، وإنما كانوا يتقدمون بمؤلفاتهم التاريخية إلى المجتمع الإسلامى برمته، ولا يعيشون فى كنف الأمراء، ولا يعتمدون على معونة الدولة، ولم تخل كتاباتهم بطبيعة الحال من التأثر ببيئتهم ونزعتهم المذهبية وعقيدتهم السياسية، ولكن حظهم من النزاهة كان موفوراً إلى حد كبير، فهم لم يكتبوا التاريخ فى الأغلب إرضاء للخلفاء والأمراء والحكام، وإنما كتبوه بدافع من ميلهم إلى البحث التاريخى وخدمة الإسلام بوجه عام[1].

ومن الصور النادرة التى نراها بين المؤرخين المسلمين والتى تدل على خوف المؤرخ من الحكام وأصحاب النفوذ والسلطان ومجاملته لهم ما فعله أبو إسحق الصابى الكاتب والأديب المشهور، وقد كلفه عضد الدولة بن بويه (٣٣٨ - ٣٧٢هـ) أن يؤلف له كتابا يجمع فيه أخبار دولة بنى بويه، فنصب الصابى همته لكتابة تاريخ لهذه الدولة جعل عنوانه

---

(١) على أدهم: تاريخ التاريخ، ص ٤٦.

(٢) محمد عبدالغنى حسن: علم التاريخ عند العرب، ص ٤٣-٤٤ك مرجوليوث: دراسات عن المؤخين العرب، ترجمة د. حسين نصار، ص ٢٥ - ٢٦.

«التاجى». وقد اتفق أنه وهو منشغل بتأليفه أن دخل عليه أحد أصحابه، فسأله عن ذلك العمل الذى يشغل به نفسه، فأجاب: «أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها» ولاشك أن ما حمل الصابى على كتابة ما أسماه أباطيل وأكاذيب إلا محاولة لعضد الدولة ومجاملة أسرته التى كانت هى صاحبة النفوذ الفعلى فى بغداد فى ظل الخلافة العباسية[1].

وعلى هذا، فإن كثيراً من المؤرخين يرون أن إعادة كتابة التاريخ أمر ضرورى، ولكن ينبغى ألا يقوم بهذه المهمة فرد واحد، لأن العصر الذى نعيشه هو عصر التخصص الدقيق، ويتعذر على أى باحث أيا كان إلمامه بأطراف المعرفة الشاملة. فكتابة التاريخ من جديد تحتاج إلى هيئة علمية متخصصة تضم المؤرخ والجغرافى والعسكرى والاقتصادى وغيرهم، وفقا للموضوع التاريخى المطروح للبحث. فإذا كان الموضوع عسكرياً، يستلزم الأمر الاستعانة بالمؤرخ العسكرى الذى يمكنه أن يصف تفاصيل المعارك وخططها واستراتيجيتها خيراً من المؤرخ الذى يفتقر إلى العلوم العسكرية. وإذا كان الموضوع المطروح عن التاريخ الاقتصادى ينبغى الاستعانةبالمتخصص فى علمى الاقتصاد والإحصاء. كذلك إذا تطلب الأمر تناول تاريخ الجمال، فلابد أن يضيف المؤرخ إلى حصيلة معارفه الإلمام بالفنون الجميلة. وبذلك يغلب على كتابة التاريخ روح العمل الجماعى الذى لايميل إلى الأهواء فى أحكامه، وأقرب ما يكون إلى الموضوعية.

وتأكيداً لذلك يذكر بارنز فى كتابه «تاريخ الكتابة التاريخية»[2] إن كل ما ننشده من المؤرخ هو ألا يركز اهتمامه على الموضوعات السياسية

---

(١) محمد عبدالغنى حسن: علم التاريخ عند العرب، ص ٤٣ - ٤٤ك مرغوليث: دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة د. حسين نصار، ص ٢٥ - ٢٦.

(٢) Barnes, Hist. of the Historical Writing., P. 295.

المألوفة، ولكن الأفضل له أن يعترف بضرورة وصف التطور فى كل جانب من جوانب الحياة والثقافة فى المجتمع. ومن الواضح أنه مع اتساع حقل التاريخ بهذه الطريقة، فإن إنجاز تاريخ شامل حتى لو كان لدولة واحدة، مسألة تتطلب تعاون عدد كبير من الخبراء المتحمسين. ولايستطيع فرد واحد أن يأمل أنه قادر على الإلمام بكل جوانب التاريخ لمجتمع ما ولو عن فترة قصيرة. وهكذا يتضح أن الأعمال التاريخية العظيمة فى حاجة فى المستقبل إلى جهود تعاونية مشتركة.

وفى مكان آخر يذكر بارنز أن أهم إسهام فى توسيع مجال التاريخ يتمثل فى الإلمام بالثقافة فى أوسع معناها، مثل تاريخ الفن، والأدب، والسلوك والعادات، والطباعة، والموسيقى، وغيرها من الأساليب الأخرى المعبرة عن الثقافة القومية. ونتيجة لذلك أصبح من الواضح أن كتابة التاريخ فى المستقبل ينبغى أن تقوم على التعاون المشترك، بحيث يسهم كتاب التاريخ بما يتفق واهتماماتهم وتدريبهم الخاص، وبذلك لايمكن التقليل من شأن أى عمل جماعى طالما أن إنتاجه يتصف بالدقة ويمكن الاعتماد عليه(١).

ولابد قبل أن يشرع الفريق الجماعى من المؤرخين فى التصدى لموضوع ما، أن توفر الدولة نشر المستندات والأصول التاريخية والمعلومات الكاملة المتعلقة بهذا الموضوع نشراً علمياً صحيحاً، لكى يسير عمل الفريق الجماعى أيضا سيراً علمياً منتظماً، أسوة بما فعلته أوربا من نشر مجموعات ضخمة من الوثائق التاريخية التى خلفتها أفكار السلف وأفعالهم. فالتاريخ - كما يقول المؤرخان الفرنسيان لانجلوا وسينوبس - بلا وثائق صحيحة لايفرز تاريخا حقيقياً بعيداً ما أمكنه عن الاحتمالات

---

(١) Ibid., P. 308.

والاجتهادات الشخصية، وحيث لا وثائق، فلا تاريخ No Documents, No History.

وقد تعمد الدولة إلى تشكيل لجنة من المؤرخين تنحصر مهمتها فى كتابة التاريخ أو التصدى لمسألة تاريخية محددة تحتاج إلى إلقاء الضوء عليها، كما حدث فى مصر فى أواخر عام ١٩٧٥م عندما أصدر رئيس الجمهورية وقتذاك قراراً جمهورياً بتشكيل لجنة لكتابة تاريخ ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م، وتشكلت اللجنة العامة لتسجيل تاريخ الثورة برئاسة رئيس الجمهورية آنذاك، يساعده الأمين العام للاتحاد الاشتراكى وقتئذ، وضمت اللجنة إلى عضويتها عدداً من أساتذة التاريخ فى الجامعات المصرية وبعض السياسيين والعسكريين. والواقع أن الترويج لكتابة التاريخ على هذاالنحو ربما لايكون أمراً سهل التطبيق، لأن كل مؤرخ يختلف عن الآخر فى طريقة استخلاص الحقائق بحسب اختلاف قدرات المؤرخين فى الفهم والتفسير والإستنتاج. وليس من السهل توفير عدد من المؤرخين تجمع بينهم ملكات متشابهة وفهماً عاما وانسجاماً بينهم، لما تستلزمه طبيعة مثل هذا النوع من العمل. والمشكلة الواردة هنا أن ظل الدولة إذا سقط على مؤرخ - أو أكثر - فى أية لجنة علمية أسندت إليها الدولة كتابة التاريخ أو إعادة كتابته، فليس ثمة ضمان موضوعى للحكم الذى يصدره هذا المؤرخ. فربما يجد المؤرخ نفسه فى وضع يدفعه إلى البعد عن النزاهة فى حكمه، وربما أيضا تبعد الحكومة المؤرخ عن الإطلاع على ما لا تودهى أن تراه، فيكون المؤرخ فى هذه الحالة مضطراً بحكم ظروفه إلى إلا يرى غير مايرى، فتكون روايته مشوبة بالكثير من النقص، ولا حياة فيها.

والسؤال هنا، هل تقبل الدولة أو الحكومة نشر الحقائق التى انتهت إليها اللجنة على الرأى العام فى سعة صدر ورحابة؟ الواقع أن الإجابة

على هذا السؤال تفتح بابا للشك. فعلى سبيل المثال، إذا أعادت اللجنة المكلفة بإعادة كتابة التاريخ النظر فى مواقف بعض الشخصيات الوطنية التى طمست الدولة أعمالها وشوهت دورها فى مرحلة ما، وردت اللجنة إليها اعتبارها وصورتها الحقيقية بعدأن فهمت الدوافع التى حركتها لاتخاذ موقف معين فى تلك المرحلة، فواجب الدولة عندئذ ألا تتدخل فيما كتبته اللجنة عن هذه الشخصية أو تمسه بالحذف والإضافة. فمن الخير للدولة أن يحاط الناس علما بالحقيقة التاريخية لأبطال الأمة والظروف التى أحاطت بهم، وإلا اهتزت صورة أولئك الأبطال أمام الناس، وحاول الواعون منهم معرفتها من مصدر آخر، لأن الحقيقة وإن طالت محاولة إخفائها لايمكن أن تغيب عن الأجيال المتعاقبة. ولذا فليس من المستحسن أن تشكل لجان حكومية أو رسمية لكتابة تاريخ البلاد أو إعادة كتابة تاريخها فى مرحلة معينة أو أن يكلف مؤرخ بعينه بهذا العمل على حساب الحد الأدنى من النزاهة والدقة العلمية، وإلا تزعزعت الثقة فى الدولة وانقطع الإيمان بها، وفى ذلك خطر ما بعده خطر.

ومما يوضح لنا مدى خطورة أن تهيمن الدولة على كتابة التاريخ أو إعادة كتابته أن التاريخ لايكتب مرة واحدة، ولكنه مادة يعاد كتابتها باستمرار على أوجه مختلفة. فالمؤرخ يدون الحدث وفقا لما يعرفه من معلومات وتفاصيل تتصل بهذا الحدث، فإذا اتفق أن ظهرت معلومات جديدة يجب أن تضاف إلى ما كتبه أو تعدل أخطاء وقع فيها، احتاج الأمر إلى أن يعيد المؤرخ النظر فيما كتبه ويعرضه عرضاً جديداً بصورة أدق وأفضل.

ولعله صار من السهل أن ندرك مدى خطورة أن تهيمن الدولة على «إعادة كتابة التاريخ»، وكأنها بذلك تصدر أحكاما على أحداث الماضى،

فتقول قد أخطأ هذا أو أصاب، وأساء ذلك أو أحسن، وهذا بالطبع أمر غائب عن الموضوعية، وبعيد عن التفكير العلمى الحديث.

وينبغى ألا يغيب عن البال أن كل عصر يجب أن يكتب التاريخ من وجهة نظره، لأن تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معنى بالنسبة له يختلف عن تقدير العصر الآخر، وكل عصر يحاول أن يرى الماضى من خلال اهتمامه والأفكار السائدة فيه. ومن هنا قال كثيرون من المؤرخين إن التاريخ حوار بين الحاضروالماضى، وهذا فى حد ذاته يكشف لنا عن جانب من جوانب المتعة فى الدراسات التاريخية، فإن التاريخ بطبيعته كدراسة للإنسان وأعماله، تتأثر صورته التى يراها المؤرخ تأثراً واضحاً بالأحوال المادية والمعنوية فى الوسط الذى كتبت فيه، وليس فى هذا مأخذ على التاريخ(١).

ومهما يكن من أمر، فإن ما قدمه لنا المؤرخون من قبل ليس ملكاً لنا نتناوله بالحذف أو بالإضافة، بل واجب الأمانة يحتم علينا أن نحافظ عليه مهما كانت درجة افتقاره إلى الدليل،وواجبنا أيضا ألا نسلط عليه معاول الهدم. فالمؤرخ حر فى أن يقول ما يشاء، وله مطلق التصرف فى تفسير أحداث التاريخ حسب معتقداته ومذاهب تفكيره، وهنا يترك للقارىء مهمة التحقيق والتثبيت وترجيح رواية على أخرى. وبعبارة أخرى، فإن كتابة التاريخ أو إعادة كتابته عملية متجددة بطبيعتها، والرأى النهائى لتاريخ أى فترة لم يبت فيه نهائياً، وأن الكلمة الأخيرة فى التصدى لكتابة تاريخ أى عصر أو حدث لم يتفق عليها بعد، ولايمكن أن يتفق عليها فى يوم ما. ومهمة القارىء الواعى الحصيف، هى الوقوف موقف الحكم بين المؤرخين وآرائهم، وتفضيل مؤرخ على آخر، وفقا لما قدمه من رؤية موضوعية وأمانة علمية.

(١) حسين مؤنس: التاريخ والمورخون، ص ٤٢ ـ ٤٣.



الفصل العاشر

كتابة البحث التاريخى

(أولاً) اختيار موضوع البحث

(ثانياً) وضع خطة البحث

(ثالثاً) جمع المادة العلمية

طريقة البطاقات

طريقة الدوسيه المقسم

(رابعاً) نقد المادة العلمية

١ ـ النقد الخارجى

٢ ـ النقد الباطنى أو النقد الداخلى

(خامساً) كتابة البحث

مسودات البحث

الهوامش أو الحواشى

ملاحق البحث

(أولاً) اختيار موضوع البحث:

يختلف اختيار موضوع البحث من باحث لآخر تبعا لاختلاف المستوى العلمي وحصيلة الثقافة، فالطالب المبتدىء في المرحلة الجامعية الأولى، يكون أقل وعيا عند اختياره لموضوع بحثه عن طالب الماجستير أو الدكتوراه. وهذا الأخير يختلف أيضا عن الباحث المحترف الذى أصبحت كتابة التاريخ صناعته ومهنته بعد مجهود شاق من البحث والدراسة والتدقيق، وتنقسم مراحل البحث إلى ثلاثة: مرحلة الليسانس والدكتوراه، وبعد ذلك تبدأ مرحلة الاحتراف والإجادة[1].

والطالب في المرحلة الجامعية الأولى يدربه أساتذته على وسائل تحصيل المادة وجمعها، وهذه الوسائل هي التي تصبح أسلحته في المستقبل للعمل العلمي الأصيل المبتكر، ولهذا السبب لانطالبه بالكتابة التاريخية للوصول إلى نتائج علمية جديدة لم تكن معروفة من قبل، إنما نساعده في اختيار موضوعات من تلك التي سبقت دراستها بهدف تمرينه وتدريبيه على الاقتباس، معتمداً على المصادر والمراجع التي يرشده إليها أستاذه[2]. وغالبا ما يكون الموضوع الذى يختاره الطالب في هذه المرحلة الأولى من كتابة البحوث، موضوعاً عاما شاملاً، ثم يتدرج بعد ذلك - تحت إشراف أستاذه أيضا - إلى اختيار الموضوعات المحددة التي تهتم بجانب واحد من جوانب الموضوع الشامل الذى كتب فيه أولاً. ويستطيع الأستاذ الجامعي أن يوجه طلابه في المرحلة الأولى إلى كتب بعينها من كتب التاريخ الهامة الجيدة التي تتناول موضوعا بعينه من الموضوعات التاريخية، ويطلب منهم أن يلخصوا هذه الكتب بحيث

(١) عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، ص ٥٨.

(٢) محمد عواد حسين: «صناعة التاريخ»، عالم الفكر، العدد الأول ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٤، الكويت، ص ١٣٦.

تصبح فى نصف حجمها ثم فى ربعه ثم فى صفحات محددة(١). وسيجد الطالب أنه قد أفاد فائدة طيبة، وتعلم القدرة على الإستيعاب والتركيز، فضلا عما يكسبه من المعلومات التاريخية، والحصيلة اللغوية والفكرية، والتدريب على الإيجاز.

وبعد أن يحصل الطالب على درجة جامعية، وينوى مواصلة دراسته للتاريخ، وهى التى تبدأ بما يسمى مرحلة السنة التمهيدية، ففى هذه المرحلة يختار الطالب بإرشاد أستاذه بعض الموضوعات العامة المطروقة، وذلك للتمرين على الاقتباس، وكتابة ملخص عام عن تاريخ أى شخصية من شخصيات التاريخ فى أى فترة من الفترات. ويعتمد الطالب فى إعداد هذا الملخص على القليل من المراجع الأساسية التى يأخذها عن أستاذه، أو التى يستخرجها بنفسه من كتب المراجع، ثم يجمع ما حصل عليه من المعلومات، وعند الكتابة عليه أن يقارن ويمزج جزئيات موضوعةبعضها وبعض، ثم يعرض تاريخ الشخصية أو الموضوع الذى اختاره. فإذا كانت الشخصية ـ مثلا ـ نابليون بونابرت، فإن الطالب يعرض بإيجاز نشأة نابليون وتعليمه، وتدرجه فى المناصب، وحروبه فى أوربا ثم فى الشرق ثم فى أوربا، وحكومته، ووقوف إنجلترافى سبيله، وتألب أورباعليه، ثم سقوطه وحياته فى المنفى(٢).

وبعد ذلك يتدرج الطالب فيختار جزءاً محدداً من الموضوع العام المشار إليه، مثل حملة نابليون على روسيا فى سنة ١٨١٢م. فيبحث الظروف التى أدت إلى تلك الحملة، ويتتبع سيرها والمعارك التى حدثت، ووصول نابليون إلى موسكو، ثم ارتداده وما لحق به من الخسائر..وهو فى هذا سيبحث موضوعاً أضيق من الموضوع السابق، ولكن بحثه سيكون بالضرورة أكثر عمقا. ثم يتدرج الطالب إلى بحث نقطة تاريخية

(١) المرجع السابق، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ٥٣ ـ ٥٤.

أكثر تحديداً، مثل معركة واترلو فى سنة ١٨١٥م، وهو فى هذه الحالة سيدرس الظروف التى أدت إلى هذه المعركة، ثم يدرس أرض المعركة وخططها، ويتتبع العمليات العسكرية، ويوضح كيف هزم نابليون، ويشرح ما ترتب على ذلك من النتائج. ولاشك أن بحث الطالب للموضوعين السابقين سيجلعه أقدر على دراسة هذه الناحية الأخيرة أكثر تحديداً، وسيعلمه هذا التدريب التدريجى فائدة الإلمام بموضوع أوسع وانتقاله منه إلى نقط أكثر تحديدا(١).

وبعد أن ينتهى الطالب من السنة التمهيدية ويختار موضوعاً للحصول على درجة الماجستير، أو إذا كان هناك طالب قد حصل على الدرجة الأخيرة ويرغب فى أن يمضى قدما فى دراسة التاريخ للحصول على درجة الدكتوراه، فإن اختيار موضع البحث يبدو فى صورة جديدة. ذلك أن الباحث فى هذه الحالة عليه أن يختار موضوع البحث الذى يروق له، وعلى الأستاذ المشرف أن يتحقق من أنه يفعل ذلك.

وقبل الإقدام على تحديد الموضوع الذى يبتغيه الطالب سواء لدرجة الماجستير أو الدكتوراه عليه القراءة والمسح الشامل لتاريخ العصر أو المكان الذى يريد التخصص فيه، وهو أمر ضرورى وأساسى للباحث، وينصح الطالب أن يقضى عاماً دراسياً على الأقل يغطى فيه معالم العصر أو المكان تغطية شاملة. وفى هذه المرحلة يبدأ الطالب بالرجوع إلى دوائر المعارف العالمية (الإنسيكلوبيديات) وكتب المراجع (الببليوجرافيا) Bil-bligraphy، وجميع المجلات العلمية المتخصصة، والمراجع الأساسية التى يتردد ذكرها خلال قراءاته(٢).

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) سيد الناصرى: كتابة التاريخ، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

وبعد هذه المرحلة يكون الطالب قد وصل إلى الموضوع الذى ينوى بحثه، ويستحسن أن يختار أكثر من موضوع، على احتمال أن يكون إحداها قد درس أو أن المادة التاريخية لاتكفى لتغطية ذلك الموضوع، ويراعى أن يكون الموضوع جديد ومبتكر، واضح الملامح، ولم يسبق دراسته أو على الأقل سبق دراسته دراسة غير كاملة، أو ظهرت وثائق جديدة تغير من مفهوم الدراسات السابقة[1].

وهنا نلاحظ أنه إذا كانت المعلومات المتوفرة حول الموضوع الذى اختاره الطالب كثيرة جداً، بحيث لايسهل تداولها، فيمكن أن يختزل الموضوع من حيث اتساع دائرته، وذلك باختصار المنطقة الجغرافية التى يشملها البحث، وعدد الأشخاص ، والفترة الزمنية أو مجال الحركة الداخل ضمن نطاق الموضوع[2]. ويحدث فى بعض الأحيان ألا يجد الطالب مادة كافية عن الموضوع الذى اختاره، أو يعرف أن هذا الموضوع قد درس من قبل على النحو الذى كان الطالب يزمع أن ينتهجه، أو يدرك صعوبة الحصول على بعض المراجع الأساسية فى الموضوع، والواجب حينئذ أن يبادر إلى تغيير هذا الموضوع حتى لايضيع الوقت فيما لا طائل تحته[3]. وليس من الضرورى بالنسبة للطالب أن يحدد عنوان موضوعه منذ بداية العمل، وحسبه أن يحدد العصر أو النواحى التى تصلح للبحث فى نطاق محدد، أما التحديد النهائى للعنوان فلا يتم غالبا إلا بعد أن يقطع الباحث شوطا طويلاً فى القراءة والإطلاع، ولعله من المفيد أن يحدد لنفسه المدة الزمنية التى يستطيع أن ينجز فيها عمله، علما بأنه محتاج إلى بعض الوقت لتقصى أحوال العصر الذى ينوى دراسة جزء منه[4].

(١) المرجع السابق، ص ١٨١.

(٢) جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ٧٨ - ٧٩.

(٣) أحمد شلبى: كيف تكتب بحثا أو رسالة (القاهرة ١٩٦٨)، ص ٣٢.

(٤) محمد عواد حسين: صناعة التاريخ، ص ١٣٩.

ولاريب أنه من الخطأ الواضح أن يختار الطالب موضوع تكون مصادره مكتوبة بلغة لايعرفها ولايتوقع أن يتعلمها، خاصة إذا كانت في الموضوع مصطلحات علمية فنية (كالطب أو اللاهوت أو الإحصاء) لاتكون في نية الطالب أن يتعلمها أو يستحيل عليه فهمها. ومثل ذلك يقال عن الموضوع الذى يستحيل الوصول إلى مصادره، كأن تكون المصادر نادرة باهظة التكاليف، أو أن تكون المصادر ملكا لأفراد يحرصون على أن لايطلعوا أحداً عليها، أو أن يكون ضمن الوثائق المحظور الاطلاع عليها فى المحفوظات الحكومية، مما ينجم عنه فى كل هذه الحالات توقع الإخفاق، وبالتالى لابد من تجنبه[1].

وينبغى ألا يقل الزمن الذى يفصل الطالب عن موضوعه عن خمسين عاما، بفضل إعطائه فرصة البعد عن الوقوع تحت أى تأثيرات شخصية، بحيث يكتب كتابة المحايد المتحرر الذى لايخشى الوقوع فى مضرة أو الانسياق وراء منفعة شخصية عاجلة أو انحرافا وراء تيار عام، حتى يخرج بحثه أقرب ما يكون إلى الحقيقة والصدق، وفضلا عن ذلك فإن انقضاء فترة نصف قرن على وقوع الأحداث يكفى بلورتها والخروج بها من حالة الفوران والغليان التى تواكب وقوع الحدث وتستمر بعده فترة غير قصيرة[2]. والمعروف أن الدول لاتنشر وثائقها المتصلة بسياستها المختلفة إلا بعد انقضاء خمسين عاما عليها، وفيما قبل ذلك فإنها تعتبر سراً لايجدر نشره أو الإطلاع عليه، وإن كانت بعض الدول تكتفى الآن بمرور ثلاثين سنة على هذه الوثائق[3].

وربما يريد طالب البحث الجديد أن يكتشف ما إذا كان الحقل الذى

---

(١) جوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) محمد عواد حسين: «صناعة التاريخ»، ص ١٤٠.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

يريد أن يبحثه قد تعرض تعرضا تاما للبحث من قبل، بحيث أن فرص الإتيان بجديد فيه أو الفرص المغايرة لما جاء به الاخرون تكون محدودة للغاية. ولاشك أن نصيحة خبير في مثل هذه الحالة لهي نعم العون، ويمكن في العادة أن تقدم إما بالإتصال الشخصي وإما بالمراسلة .وأحياناً تقترح الكتب مشكلات تاريخية تحتاج إلى مزيد من توضيح. ثم هناك المصادر المرتبة في مجلدات والتي تلخص الأبحاث التي تمت في فترات معينة محددة، وأحياناً يشير نقد الكتب الجديدة، والمقالات التي تنشر في المجلات العلمية التاريخية عن المصادر، إلى مشكلات تحتاج إلى مزيد من التحري[١].

ولايجوز للباحث الذي يريد أن يكتب بحثاً تاريخيا أن يتخذ على سبيل المثال تاريخ الدولة الأيوبية بأكمله موضوعا للبحث، لأنه موضوع طويل. فالأيوبيون حكموا دولتهم من سنة ١١٩٦ إلى سنة ١٢٥٠م، ودراسة هذه الفترة دراسة عميقة لايمكن أن تتم في سنوات قلائل. أما إذا خصص الباحث وقته وجهده في نفس الفترة المحددة من الزمن، لبحث ناحية معينة بالذات من تاريخ الدولة الأيوبية، مثل تاريخ صلاح الدين الأيوبي، أو تاريخ الملك العادل الأيوبي، أو تاريخ التجارة في عهد الدولة الأيوبية، أو حروب تلك الدولة مع الصليبيين، فإنه يستطيع في هذه الحالة إن يكشف عن حقائق تاريخية جديدة. وما يقال عن عهد الدولة الأيوبية ينطبق تماما على كل موضوع تاريخي آخر، منذ أقدم العصور حتى الأزمنة الحديثة. والمؤلفات التي لايراعى فيها ذلك لاتعد كتبا علمية، ولكنها قد تعد كتبا ثقافية نافعة للقارىء العام[٢].

---

(١) جوتشلك: المرجع السابق، ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي، ص ٥٧ - ٥٨.

وفى هذه المرحلة - أى مرحلة الماجستير والدكتوراه - تتغير العلاقة القديمة التى كانت قائمة بين الطالب وأستاذه، وتتحول إلى علاقة قائمة على أساس من المساواة، وعلى النقد الحر والتقدير المتبادل. وفى هذا الدور يمكن للباحث أخذ وإستيضاح رأى أساتذته الذين يمكنهم إرشاده فيما غمض عليه، دون أن يملوا عليه رأيا معينا، إذ أن الاختيار النهائى لموضوع البحث التاريخى أو تعديله أو تركه إلى موضوع آخر، ينبغى أن يترك للباحث لكى يقرر بنفسه مايراه[1].

وينبغى ألا يكون غرض الباحث مجرد الحصول على درجات معينة لتحقيق أغراض معينة، إذ لايعنى حصول الباحث على درجة علمية أنه قد بلغ نهاية الشوط أو أنه أصبح مؤرخا، لأن الدرجة العلمية لاتزيد عن كونها بداية الطريق. والباحث المخلص لايكف عن متابعة دراساته التاريخية بحصوله على الدرجة العلمية. وإذا جعل الدارسون هدفهم الأساسى هو الحصول على الدرجة العلمية وما يرتبط بها من المنافع، فلن يكون لهم من العلم إلا طلاء مظهر خارجي. والعلماء جميعا - ومن بينهم علماء التاريخ - لايصبحون علماء إلا إذا بحثوا العلم للعلم عن لذة ذاتية ورغبة أصيلة[2].

(ثانيا) : وضع خطة البحث:

خطة البحث تعنى تبويب الرسالة تبويبا أوليا، أى تقسيم البحث إلى أبواب وفصول تسهيلا للدراسة، ويمكن أن ينتفع بجهود من سبقوه، فإن مكتبات الجامعات تشمل مجموعة من الرسائل القيمة، وهذه الرسائل تقدم عونا كبيراً لطلاب الماجستير والدكتوراه، لأنها تلقى ضوءاً ينير السبيل

(١) المرجع السابق، ص ٥٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٢.

للطالب، ويسترشد به في وضع خطوط رسالته، مع ملاحظة أن الظروف تختلف من موضوع إلى موضوع، ومن فكرة إلى فكرة(١).

وبعد أن يتعرف الطالب على نماذج من التخطيط لرسائل تشبه رسالته، يستطيع أن يضع الخطوط العريضة الأولية لدراسته، ويشمل ذلك وضع عنوان لموضوع الرسالة، وتقسيمه إلى فصول. ويجب أن يلاحظ أن يكون عنوان الرسالة جذاباً، وواضحا تمام الوضوح، وشاملاً لكل ما يستوعبه من جزئيات وتفاصيل. ويجب كذلك أن تخضع أبواب الرسالة وفصولها في ترتيبها إلى أساس سليم، وفكرة منظمة، ورابطة خاصة، كالترتيب الزمني أو الموضوعي، وعلى الطالب أن يتجنب وضع الأبواب والفصول ارتجالا، وعلى غير أساس مقبول(٢).

وعلى الباحث أن يدرك أن خطة البحث التي وضعها أولية وليست نهائية، وبالتالي فهي قابلة للتغيير سواء بالحذف أو الإضافة وفقا للمادة العلمية التي يجمعها، فقد يحدث حذف فصل أو نقطة من الخطةلم يستطع الباحث أن يعثر لها على المادة العلمية اللازمة، ويدرك بذلك أن تصوره في هذه النقطة كان مثالياً جداً. وقد يحدث إضافة فصل جديد أو نقطة جديدة توصل إليها الباحث من خلال المصادر والمراجع التي يستشيرها لم تكن واردة في ذهنه عند التصور الأولي. وهذا يعني أن يتصف الباحث بالمرونة، ولايتوقف عند الخطة التي وضعها في البداية. ومن الإغراق في الخيال أن يتمسك الباحث بخطة لايستطيع الوفاء بها من خلال المادة العلمية المجموعة(٣).

---

(١) أحمد شلبي: كيف تكتب بحثا أو رسالة، ص ٣٣ - ٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤ - ٣٦.

(٣) عاصم الدسوقي: البحث في التاريخ، ص ٦٢ - ٦٣.

(ثالثاً) جمع المادة العلمية:

والخطوة التالية بعد اختيار الباحث للموضوع الذى سيتناوله بالدراسة وتقسيمه إلى أبواب وفصول، هى أن يتوفر على جمع المادة التاريخية من كافة المصادر الأصلية Sources، وهى الوثائق سواء المنشورة أو غير المنشورة والمخطوطات والمذكرات الشخصية واليومية، وكذلك على الباحث الإفادة من المراجع العامة References وهى التى تشمل قوائم المراجع (ببيلوجرافيا) والدوريات العلمية †Periodicalsالتى تصدرها الجامعات والهيئات العلمية المختلفة. ومن الأفضل للباحث أن يبدأ بجمع مادته العلمية من المصادر الأصلية، ثم من المراجع الحديثة بعد ذلك، لأن المادة التاريخية التى تأتى من الأصول، هى التى تبرز عناصر البحث، وتوجهه إلى الكمال.

ويجب على الباحث أن يتحدث مع من له خبرة بموضوع دراسته، فأغلب الظن أنه سيرشده إلى بعض المراجع، كما يفيده فى تنسيق الموضوع، ويفتح له أبوابا نافعة. وكذلك على الباحث أن يتعرف بل أن يعقد صلات ودية مع المشرفين على المكتبات التى يتردد عليها، أو مع رؤساء الأقسام التى تتبعها دراسته إذا وجدت هذه الأقسام، فأغلب هؤلاء لهم خبرة كبيرة بالمراجع وببعض المخطوطات الثمينة التى قد تتصل بالموضوع، ولايفتأ هؤلاء يعملون فى الكتب وينقبون فيها، فلا نزاع أنهم سيمدونه بين الحين والآخر بما يعاونه معاونة ظاهرة(١).

ويحسن بالباحث أن يعد قائمة أو فهرسا بالمصادر والمراجع التى سوف يرجع إليها موضحا إسم المصدر أو المرجع ومكان وجوده ورقمه

---

(١) أحمد شلبى: كيف تكتب بحثا أو رسالة، ص ٣٩.

ورمزه. فإذا كان المرجع فى مكتبته الخاصة كتب أمامه: مكتبتى الخاصة، وإلا بحث عنه فى المكتبات الأساسية التى يعتمد عليها، فإذا وجده بها كتب أمامه الرمز الموضوع له بهذه المكتبة(1). ويعمد بعض الباحثين وهم يعدون فهرساً عاماً للمراجع التى سيرجعون إليها إلى اتباع نظام البطاقات وطريقة ذلك أن يحضر الباحث عدداً من البطاقات، ويخصص كل بطاقة لكتاب واحد، على أن يوضع إسم المؤلف فى أعلى البطاقة، وتحته عنوان الكتاب، وفى السطر الثالث يدون إسم المكتبة التى بها الكتاب، وكذلك الرمز الموضوع له، وترتب هذه البطاقات فى درج ترتيبا أبجديا حسب أسماء المؤلفين، وكلما عثر على كتب جديد يتصل بموضوعه أعّد له بطاقة ووضعها فى موضعها فى درج البطاقات، والباحث بذلك يكون له مكتبةهامة وإن لم يمتلك كتبها(2). وبالإضافة إلى ذلك يمكن للباحث أن يحتفظ بكراسة أو أجندة، ويسجل بها أسماء المصادر والمراجع التى اقتبس منها مادته العلمية أولا بأول، وأسماء المؤلفين، وأسماء المكتبات التى توجد بها تلك المصادر والمراجع والرموز الموضوعة لها.

ومن المفيد جداً أن يحتفظ الباحث بفهرس موجز للكتب التى لايمكن الاستغناء عنها، بحيث تكون فى متناوله دائماً وأهم ما ينبغى الاحتفاظ به هو: فهرس مطبوع لإحدى المكتبات، ودائرةمن دوائر المعارف ويحسن أن تكون من تلك المتخصصة فى حقل الدراسة، وقاموس من قواميس الاعلام، وقاموس متخصص فى حقل البحث اذى يتناوله الباحث (اقتصادى أو دينى أو إجتماعى...الخ)، ودورية أو أكثر من الدوريات المتصلة بالبحث، ومجموعة للوثائق المتعلقةبعصر البحث(3).

---

(1) المرجع السابق، ص ٤١ ـ ٤٢.
(2) المرجع السابق، ص ٤٤.
(3) على إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث (القاهرة ١٩٦٣)، ص ٤٠ ـ ٤١.

وعندما يعمد الباحث فى التاريخ إلى البحث عن المصادر المتعلقة بموضوعه، يجب عليه أن يستقصى هذا البحث إلى أبعد حد ممكن، فلا يزدرى أيا من المصادر أو يهمله، لأن أضألها وأقلها شأنا لدى النظرة الأولى قد يصبح بعد التحقيق أشدها خطورة وأغناها بالمعلومات(١).

ويجب على الباحث أن يجتهد فى تدوين ما تجمع من مادة بالجبر وبخط واضح وبدقة تامة، كى لا تعوقه رداءة الخط أو عدم وضوحه عن استعمال ما جمع عندما يبدأ فى الكتابة. وكذلك يجب على الباحث أن ينقل ما يأخذه من المصدر حرفيا دون تعديل أو اختصار، سواء كانت المادة مدونة باللغة العربية أو باللغة الأجنبية(٢). وحين يعكف الباحث على نقل شيء من المصادر عليه أن يهتم بالمصطلحات التاريخية، وأن يفهم كل كلمة وتعبير ويقرأ السطور وما بين السطور، وينقل فى البطاقات كل ما يهم موضوع البحث، وإذا طرأت عليه أثناء عملية جمع المادة العلمية أية تعليقات أو خواطر، فيجب أن يثبت ذلك كله فى مكان منفصل على أحد جانبى البطاقة حتى لاتختلط ملاحظاته بكلمات المصدر الذى ينقل عنه(٣).

ومن الضرورى أن يتنبه الباحث إلى أنه إذا استعمل طبعة ما لمصدر من المصادر، كان عليه أن يستعمل نفس الطبعة فى جميع بحثه كلما أمكن ذلك، فإذا اضطر لاستعمال طبعتين لمصدر واحد، فإن من الواجب أن يحدد الطبعة التى اعتمد عليها فى كل اقتباس يورده عن ذلك المصدر(٤).

---

(١) حسنين ربيع: محاضرات فى علم التاريخ، ص ١٠٠.
(٢) على إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ٤١.
(٣) حسنين ربيع: المرجع السابق، ص ١٠٢.
(٤) أحمد شلبى: كيف تكتب بحثا أو رسالة، ص ٤٤.

أما فيما يتعلق بالمادة العلمية التى يجمعها الباحث فى التاريخ، فهناك طريقتين لجمعها:

طريقة البطاقات:

وتصنع البطاقات (الجذاذات ـ الفيش ©Fiches) غالبا من الورق المقوى، وحجم البطاقة هو ١٠×١٤سم تقريبا، ويلزم أن تكون متساوية وتدون الكتابة على عرض البطاقة وعلى وجه واحد منها، ويستحسن أن يوضع عنوان لكل اقتباس، ليدل على ما ورد فى البطاقة من مادة علمية. وتكون الكتابة بالحبر وبخط واضح، ويكتب فى صدر البطاقة إسم المصدر الذى استمدت منه المادة، وكذلك إسم المؤلف ورقم الجزء والصفحة ولايكتب فى كل بطاقة إلا اقتباس واحد (نقطة واحدة أو فكرة واحدة).

طريقة الدوسيه المقسم:

والدوسية المقسم Loose leaf book هو عبارة عن غلاف من الكرتون المقوى مع كعب يتفاوت عرضه بتفاوت حجم الدوسيه، وبهذا الكعب حلقتان يمكن فتحها وإقفالها. ومن الممكن أن يضاف ما قد يلزم من أوراق فى أى وقت وفى أى مكان من الدوسيه. ويقسم البحث الدوسيه أقساما، يكون القسم الأول منها للمقدمة ثم فصول الرسالة والقسم الأخير لقائمة المصادر والمراجع[١].

غير أن طريقة البطاقات أسهل بكثير فى الاستخدام من طريقة الدوسيه المقسم، وذلك لسهولة نقل البطاقة من مكان إلى آخر أى من فصل إلى فصل، حيث إن بعض البطاقات قد تخدم أكثر من نقطة واحدة داخل البحث الواحد. وهذه الطريقة هى الأكثر شيوعاً بين الباحثين.

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٤ ـ ٦٦.

وينبغى الإشارة إلى عدم اللجوء مطلقا إلى الاقتباس فى كراسات وكشاكيل أو غيرها نظراً لاستحالة إستخدامها بسهولة وخاصة فى رسائل الماجستير والدكتوراه[1].

(رابعاً) نقد المادة العلمية:

يذكر لانجلوا وسنيوبوس فى كتابهما «المدخل إلى الدراسات التاريخية» (١٨٩٨م)، أن التاريخ يصنع من وثائق. والوثائق هى الآثار التى خلفتها أفكار السلف وأفعالهم. والقليل جداً من هذه الأفعال والأفكار هو الذى يترك آثاراً محسوسة، وإن وجدت فنادراً ما تبقى، لأن عارضا بسيطا قد يكفى لزوالها. وكل فكرة أو فعل لايخلف أثراً، مباشراً أو غير مباشر، أو طمست معالمه، هو أمر ضاع على التاريخ، كأن لم يكن البتة. وبفقدان الوثائق صار تاريخ عصور طويلة من ماضى الإنسان مجهولا أبدا. إذ لا بديل عن الوثائق: وحيث لا وثائق، فلا تاريخ[2].

ويعرف البعض الوثيقة تعريفا جزئياً ويحصرها فقط فى نطاق كل مستند له صفة رسمية حكومية، كالمراسيم والمعاهدات والبيانات، والمراسلات الرسمية، وما شاكل ذلك. ويستمد هذا التعريف قوته من أن هذه الأوراق المستندية فوق الشبهات، ولأنها محفوظة بملفات رسمية، وموثقة بشكل رسمى، فهى تدعو إلى الثقة بها، واستخدامها فى أى بحث يعطيه وزنا خاصاً ومقبولاً من القراء، وتكون معلوماته فوق مستوى الشك. ولهذا فالأصوب أن نصف هذا النوع من الوثائق بالمعلومات الرسمية Formal Informations أو الوثيقة الرسمية[3].

---

(١) عاصم الدسوقى: البحث فى التاريخ، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٢) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى: يتضمن ترجمة كتاب لانجلوا وسينوبس عن الفرنسية بعنوان «المدخل إلى الدراسات التايخية»، وكذلك يتضمن ترجمة «نقد النص» لبول ماس، وترجمة نصوص لكانت وديكارت وبول فاليرى فى التاريخ، (الكويت ١٩٧٧)، ص٥.

(٣) عاصم الدسوقى: البحث فى التاريخ، ص ٦٧.

أما التعريف الأشمل للوثيقة فى التاريخ وبالنسبة لكتابة البحث، فهو أكثر اتساعا ويشمل كل نص يحتوى على معلومات تتعلق بنشاط الإنسان فى أى فترة من الفترات. وهذا التعريف يضم الوثيقة الرسمية بالمعنى السابق، والأوراق، واليوميات، وكتب الذكريات والمذكرات، والمخطوطات، والكتابات المعروفة بالمصادر الأصلية، والمراجع العامة من كتب ومقالات وأبحاث وأخبار مأخوذة من الدوريات، وفى كلمة واحدة: المعلومات(١).

والوقائع التاريخية لايمكن معرفتها تجريبياً إلا بطريقتين: إما مباشرة إذا لوحظت وهى تحدث، أو بطريقة غير مباشرة بدراسة الآثار التى تركتها. فلنفرض حادثا وليكن زلزالا مثلا، فإنى أعرفه مباشرة إذا أنا حضرت هذه الظاهرة، وأعرفه بطريقةغير ماشرة إذا كنت لم أحضره ولكنى عاينت آثاره المادية من شقوق وجدران متداعية، أو إذا قرأت وصفا مكتوبا عنه بعد أن انمحت آثاره، كتبه شخص شاهد بنفسه هذه الظاهرة أو شاهد آثارها. والخاصية المميزة للوقائع التاريخية هى بطبيعتها غير مباشرة(٢).

على كل حال، عندما ينتهى الباحث من جمع المعلومات المتعلقة بموضوع بحثه، يدخل فى عملية رئيسية وأساسية قبل الشروع فى كتابة البحث فى شكله النهائى، وهى عملية تحليل هذه المعلومات وفرزها والتثبت من صحتها، وتوزيعها على فصول الخطة. وهذه العملية إحدى عمليات المنهج الأساسية، وتعرف بنقد الأصول. وممارسة النقد تعنى فى

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى، ص ٤٣ ـ ٤٤.

أبسط الأمور عدم التقديس الأعمى للمعلومات المستمدة من النصوص، وخاصة من الوثيقة الرسمية، إلا بعد إخضاعها لعملية النقد المنهجى، فلا يصح للباحث أن يقترب من الوثيقة وهو منخفض الرأس، ويتحدث عنها بإجلال واحترام، فالوثائق أساسية بالنسبة للباحث، ولكن على الباحث أن لايجعلها معبوداً، فهى لاتشكل التاريخ بحد ذاتها(١).

وتمر الوثيقة بمرحلة طويلة من الفحص والتدقيق قبل أن نستخرج المعلومات التاريخية منها، وبغير ذلك لايستطيع المؤرخ أن يكتب التاريخ، لأنه إذا بنى على أصول مزورة منتحلة، خرج بنتائج بعيدة عن الحقيقة.

والوثيقة التى لايعرف شىء عن مؤلفها وتاريخها ومكان كتابتها، هى وثيقة لاتفيد شيئا. ومعظم الوثائق الحديثة تحمل إشارة دقيقة إلى مصدرها، ففى أيامنا هذه نجد أن الكتب ومقالات الصحف والأوراق الرسمية، بل والكتابات الخاصة مؤرخة وموقع عليها. وعلى العكس نجد كثيراً من الوثائق القديمة بلا تاريخ ولا إسم مؤلف ولايعرف مكان صدورها على وجه الدقة(٢).

وينقسم نقد الأصول إلى قسمين رئيسيين: النقد الخارجى أو الظاهرى external criticism وهو يتعلق بعدة أمور مثل إثبات صحة الأصل التاريخى، وأسلوب الخط الذى كتب به، ومعرفة نوع الورق، وتعيين شخصية المؤلف وزمان التدوين ومكانه. أما النقد الباطنى أو الداخلى in-ternal criticism فيبحث فى الحالات النفسية والعقلية التى مر من خلالها كاتب الأصل التاريخى، ومحاولة الكشف عن أهدافه من الكتابة، ومدى اعتقاده فى صحة ما كتبه. والأساس الذى ينبنى عليه النقد بقسميه هو

---

(١) كولنجوود: فكرة التاريخ، ص ٨٧؛ كار: التاريخ، ص ١٤ ـ ١٧.

(٢) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى، ص ٦٥.

الشك فيما ورد فى الأصل التاريخى، ثم الدراسة الواعية المتعمقة لكل ما نقرأ فيه لاستخلاص الحقائق، وتلك مهمة بالغة العسر، لأن المرء بطبيعته يميل إلى تصديق كل ما يصادف هوى فى نفسه، بينما يميل بنفس الدرجة إلى تكذيب كل ما يتعارض مع رغباته وميوله، ونحن لانستطيع أمام هذه الحقيقة أن نأخذ كل ما يصادفنا من مدونات على أنه حقيقة خالصة، لأن الناس يختلفون فى ميولهم ونزعاتهم وما يعتنقون من قيم. وسنتناول الحديث عن كل من النقد الخارجى والنقد الباطنى بشىء من التفصيل.

١ ـ النقد الخارجى:

يقوم هذا النقد على أساس التحقق من صحة الوثائق التى لدينا عن الحادث، فكثيراً ما يدخل فى الوثائق كثير من الحشو أو قد يضاف إليها كثير من الإضافات الزائدة المقصود بها الإكمال، وأحيانا يكون النص محرفاً فى بعض أجزائه، وأحياناً أخرى يكون النص مزيفا تماما، وإذا توفر لدينا نسخة بخط المؤلف من الوثيقة موضوع البحث، فحينئذ يكون الأمر يسيراً وما علينا فى هذه الحالة إلا أن ننسخ هذه الوثيقة كما هى فى الأصل تماما دون أن نزيد فيها حرفا أو ننقص منها شيئاً، حتى لو كانت مليئة بالأخطاء[١].

وأحياناً تكون الوثيقة نسخة وحيدة، ولكنها ليست مخطوطة بخط المؤلف، وهذه النسخة الوحيدة قد تكون أحياناً كثيرة مليئة بالأخطاء الناجمة عن الجهل من جانب الناسخ أو بمحاولة إصلاح النص حسب فهمه الضيق فيسىء إلى النص من حيث أراد أن يصلحه. ونحن نجد الكثير جداً من هذه الأخطاء التى تحدث عن جهل الناسخ وعدم فهمه

---

(١) عبدالرحمن بدوى: مناهج البحث العلمى، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

للأصل تماماً خصوصاً في المخطوطات العربية[1]. ولكي يصلح النص إصلاحا حقيقيا يجب على من يتصدى لهذا العمل أن يكون محيطا باللغة التي كتب بها النص، وأن يكون عالما بالخطوط التي كتبت بها النصوص التي يشتغل فيها، وبكل الخطوط التي مرت بلغة من اللغات إذا كان يتناول عصوراً طويلة، ويجب أن يكون على علم بالأخطاء الشائعة الخاصة بكتابة لغة من اللغات مما يرد عادة لدى النساخ في أحوال كثيرة تبلغ درجة أن تكون هذه الأخطاء أخطاء عامة[2].

وتمييز المنتحل والصحيح من المؤلفات صعب تماما بالنسبة للأقدمين وأسهل نسبيا بالنسبة إلى المحدثين، لأن المحدثين قد اعتادوا أن يكتبوا أسماءهم على مؤلفاتهم أو يمهروا لوحاتهم بتوقيعاتهم أو بتعليقات تدل عليهم. وأما الأقدمون فإما أنهم كانوا لايهتمون بذلك، وإما أن المواضع التي تمهر فيها هذه التوقيعات قد درست وزالت، أو لعدة أسباب أخرى. ومن هنا كان على المؤرخ، خصوصا الباحث في العصور القديمة أو الوسيطة أن يكون دقيقا كل الدقة في النظر إلى النصوص، وعليه ألا يأخذ بالوثيقة إلا إذا ثبتت لديه صحتها[3].

وهناك قواعد تساعد الباحث على التعرف على وثيقة مجهولة المصدر على النحو التالي:

(أ) يجب أن نقوم بما يسمى «التحليل الباطن»، ومعناه أن ننظر في الوثيقة من حيث الخط الذي كتبت به. فالخطوط تختلف فيما بين العصور بعضها وبعض. فإذا وجدنا وثيقة من القرن الأول أو الثاني الهجري مكتوبة بخط فارسي أو نسخي عادي، فيجب أن تعد قطعا

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

منحولة، وإذا وجدنا وثيقة فى القرن الرابع الهجرى مكتوبة بخط كوفى قديم قد خلا من النقط والإعجام، فليس من شك فمن المرجح جداً أن تكون منحولة. وعلينا أن ننظر فى الوقائع التى ترد فى الوثيقة من حيث إمكان حدوثها فى الزمان المنسوبة إليه، أو فى المكان الذى تزعم الوثيقة أنها جرت فيه، وأن ننظر فيما عسى أن تكون هناك من إشارات إلى هذه الوقائع فى كتب المعاصرين، فعن طريق معرفة هذه الإشارات نستطيع أن نتبين إلى حد ما العصر الذى تنتسب إليه الوثيقة(١).

فعلى سبيل المثال، ثمة خطبة منسوبة إلى القائد طارق بن زياد ألقاها على جنده قبل خوض المعركة الحاسمةضد القوط الغربيين فى أسبانيا فى ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ (١٩ يوليو ٧١١م)، يحثهم فيها على الجهاد، جاء فيها: «أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لاوزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وأن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإنى لم أحذركم أمراً أنا منه بنجوة، ولاحملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسى..». والملاحظ أن تلك الخطبة لم يشر إليها المؤرخون المسلمون المتقدمون، وهى أكثر ظهوراً فى كتب المسلمين المتأخرين، التى ذكروها فى القرن الخامس الهجرى

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٦ - ١٩٧.

الأمر الذى يجعلنا نشك فى نسبتها إلى طارق بن زياد، خاصة أن طارق كان حديث عهد بالإسلام، لم يكن باستطاعته صياغة خطبة بذلك الأسلوب الرائع. ولايغيب عن الأذهان أنه ليس من مصلحة طارق حرق السفن قبل بداية المعركة، وبمعنى آخر لم يكن حرقها عملا عسكريا سليما، خاصة أن طارق قد احتاج إلى النجدة قبل خوض المعركة.

وفى كتاب «مصطلح التاريخ» للدكتور أسد رستم(١)، مثال للمعاناة التى لاقاها حين كلف بفحص إحدى الوثائق المكتوبة - وكانت عبارة عن رسالة من عهد محمد علي - للوقوف على مدى صحتها، وكيف اضطر إلى فحص نوع الورق الذى دونت عليه الوثيقة وفحص نوع المداد، ومقارنتها بمثيلاتها من الوثائق فى أماكن مختلفة، ودراسة عادات المراسلة والأسلوب واللغة وتاريخ ومكان الكتابة واتفاق ما جاء بها مع الظروف التاريخية، وذلك كله يبين لنامدى الصعوبة التى يجب على المؤرخ أن يواجهها ويتغلب عليها ليصل إلى الحقيقة.

(ب) لاتكفى الاعتبارات السالفة لتحديد دقيق لمؤلف الوثيقة، ولهذا يمكن أن نؤكد النتائج التى نصل إليها عن طريق الخطوة السالفة، بواسطة ما عسى أن يوجد لدى المؤلفين الآخرين، من اقتباسات من هذه الوثيقة، بشرط أن يكون هؤلاء المؤلفون المقتبسون معاصرين أو شبه معاصرين، وأن يذكر صراحة إسم مؤلف الوثيقة، مما يرجح لدينا أنه إذا كان ثمة انتحال فإن هذا الانتحال لم يتم إلا متأخراً، أو أنه لم يتم انتحال إطلاقا(٢).

(جـ) من بين أنواع التزييف نوع خطير، وإن كان أقل خطورة من التزييف الكامل، وهو الحشو والإكمال interpolation &continuation: أما

(١) ص ١٧ - ٢٨ك محمد عواد حسين: «صناعة التاريخ»، ص ١٤٥.
(٢) عبدالرحمن بدوى: مناهج البحث العلى، ص ١٩٧ - ١٩٨.

الحشو فهو أن تولج فى داخل النص أقوالاً لم يأت بها المؤلف، أو تزيد بعض الشروح أو الزيادات الدخيلة فى العبارة، إما للإيضاح أو لأن النص قد استعصى فهمه على الناسخ الجاهل أو القارىء غير العالم، وهذا ظاهر خصوصا مثلا فى كتاب «الرسالة» للإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤هـ (٨١٩م)، فنجد فى النسخ المتعددة أنها قد احتوت على كثير من القراءات التى كتبها نساخ جهلة أو قراء أشد جهلا، ظنوا أن فى الكلام تحريفا أو خطأ، فاستبدلوا به غيره، وخصوصاً أن الشافعى كان يستخدم تعابير فى غاية من الرصانة، والجزالة، مما يدل على عربيته الأصلية فى الكتابة. ولكن هؤلاء القراء الجهلة كتبوا بدلا من بعض الألفاظ ألفاظاً أخرى بدت لهم أيسر، واستبدلوا ببعض التعبيرات أخرى غيرها أنسب لعصرهم. ومهمة الناقد إن يستخرج القراءة الصحيحة التى أملاها الشافعى على تلميذه الربيع بالنسبة إلى هذه «الرسالة»[1].

وهناك نوع من التزوير لم يسلم منه كثير من الأصول. وذلك أن أصحاب الكتب الخطية، كانوا فى بعض الأحيان، يضيفون على الهامش أوفى أواخر الفصول والأبواب، أخباراً أو آراء جديدة تتعلق به. ثم تمر الأيام، وينسخ بعض هذه الكتب، فتدخل الزيادة فى الأصل، ويثبت الشرح فى المتن، ويختلط الأمر على المتأخرين فينسب كل ما فى النسخة الخطية المتأخرة إلى المؤلف. وهذا النوع من التزوير هو ما نريد أن نسميه الدس سواء كان مقصوداً أو غير مقصود. وفى محيط المحيط دس الشىء ودسّه فيه يدسه دساً أدخله ودفنه تحته وأخفاه[2].

أما الإكمال فكثير الحدوث خصوصا عند رجال العصور الوسطى.

---

(١) عبدالرحمن بدوى: مناهج البحث العلمى، ٢ ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٩.

فأكثر تواريخ العصور الوسطى المسيحية قد أكملت قرنا بعد قرن بوساطة مؤلفين لم يذكروا أسماءهم، فاختلطت بمؤلفي الكتب الأصليين، فأصبحنا في حيرة من أمر ما عسى أن ينتسب حقا إلى المؤلف الأصلي، وما عسى أن يكون قد ألفه مؤلفون متأخرون، وإن كنا نستطيع إلى حد ما أن نقوم بتمييز هذه المسألة بسهولة بمعرفة تاريخ حياة من ينسب إليه المؤلف صراحة، فمن المعلوم قطعاً أن ما حدث بعد وفاته لاينتسب إليه(١).

ومهما يكن من أمر، فإن نقد المصدر خطوة تمهيدية لابد من القيام بها حتى نستطيع الوصول إلى النص الحقيقي، أعني ذلك الذي وضعه مؤلفه، وكذلك لكي نتبين المصدر الذي صورت عنه الوثيقة. فبهاتين نستطيع أن نصل إلى تحديد الوثيقة من حيث الصحة ومن حيث النسبة، ولكن يجب ألا نعتبر أننا بهذا قد قمنا بعملية النقد الحقيقي، ذلك أن الخطوة التمهيدية التي قمنا بها هي في ذاتها وسيلة لخطوة أعلى منها هي النقد الباطني.

٢ ـ النقد الباطني أو النقد الداخلي:

والخطوة الحقيقية في المنهج التاريخي هي عملية النقد الباطني، ويقصد بهذه العملية بيان ما قصده صاحب الوثيقة منها، ثم معرفة صدقه في الرواية سواء أكان شاهد عيان أو كان ناقلا عن غيره. وعملية النقد الباطني ضرورية لأن الظواهر الماضية لاتقع تحت ملاحظتنا، ولايمكن الثقة بما يذكره الرواة عنها، دون تمحيص أو نقد. وفرص الخطأ كثيرة، إذ أن كل وثيقة ما هي إلا نتيجة لسلسلة طويلة من العمليات التي لايذكرها صاحب الوثيقة تفصيلا. فقد يكون قد رأى أو سمع، ثم تصور الوقائع بناء على ثقافة خاصة به، ثم حرر ماتصوره كتابة. وفي كل

---

(١) عبدالرحمن بدوى: مناهج البحث العلمي، ص ١٩٩.

خطوة من هذه الخطوات يكون عرضة للخطأ. ولذلك يقول سينيوبس: «ينبغى أن تمر بجميع الأفعال التى تنتج الوثيقة، ابتداء من اللحظة التى رأى فيها صاحبها الحدث الباطنى للأصول التاريخية .مسألة شاقة معقدة تحتاج إلى مثابرة وصبر طويل وقدرة على استعادة كل الخطوات الفعلية التى مر بها صاحب الوثيقة حتى سجلها على النحو الذى وصلتنا عليه. ونستطيع أن نلخص هذه الخطوات فى عمليتين: الأولى عملية التحليل للنص والنقد الإيجابى لمعناه أى تفسيره، والعملية الثانية هى عملية النقد السلبى للنزاهة والدقة.

(أ) العملية الأولى: النقد الإيجابى للتفسير:

وهذه العملية الغرض منها فهم مدلول نص الوثيقة التى نعنى بدراستها فعلينا أن نحدد بالدقة ماذا قصد صاحب الوثيقة منها، أى أن العملية التى نقوم بها هنا هى فى الواقع عملية تفسير. وتقوم فى البداية على عملية فهم للنص كما هو فى لغته أى أنها فى البداية عملية لغوية. وهذه العملية صعبة تماماً، خاصة إذا كانت اللغة قديمة. ذلك أن اللغات كائنات حية تتطور، ومعانى الألفاظ تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة. فعلينا إذن أن نعرف اللغة التى كتبت بها الوثيقة، وأن نعرف ثانيا هذه اللغة كما كانت فى العصر الذى كتبت فيه الوثيقة -فعلى سبيل المثال نجد أن المؤرخ جريجورى التورى (٥٣٩ - ٥٩٤م) مؤلف كتاب «تاريخ الفرنجة»، قد كتب تاريخه باللغة اللاتينية، ولكن اللغة اللاتينية الكلاسيكية تختلف اختلافا بينا عن اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى[1].

والاستعمال اللغوى يمكن أن يختلف من إقليم إلى اخر، ولهذا ينبغى معرفة لغة الإقليم الذى كتبت فيه الوثيقة، أى المعانى الخاصة المستعملة

---

(١) عبدالرحمن بدوى: مناهج البحث العلمى، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

بها الألفاظ فى الأقاليم المختلفة. والتعبير يختلف معناه بحسب الموضع الذى يوجد فيه، ولهذا ينبغى أن نفسر كل كلمة وكل جملة لامفردة، بل بحسب المعنى العام للفقرة، أى فى نطاق السياق العام للنص التاريخى، وقاعدة السياق هذه هى قاعدة أساسية فى التفسير[١].

ويظهر فى المحاولات الدفاعية التى يحاول بها كثير من الناس أن يشيدوا بمجد قديم أوبتراث حضارى معين، فيحاولواأن يقتبسوا عبارات واردة في كتب قديمة فلسفية أو دينية أو علمية وفقا للبحث، زاعمين أن هذه العبارة تتفق مع مايقول به الفيلسوف المعاصر أو المحدث أو هذا الاقتصادى أو هذا المذهب السياسى. وفى هذا فى الواقع خيانة علمية إلى أقصى درجة، وعلينا أن نتجنبها دائما، وألا نفسر النص إلا وفقا للموضوع الذى وجد به، وألا نحاول أن نتقول عليه ما لا يمكن أن يكون قد فكر صاحبه فى القول به[٢].

وعندما ينتهى الباحث من تحديد المعنى الحرفى للألفاظ والتراكيب التى تحتمل الشك فى معانيها، عليه أن يصل إلى معرفة غرض الكاتب والمعنى الحقيقى لما كتبه. فكثيراً مايكون ظاهر النص غير معبر حقاعما رمى إليه المؤلف بالفعل. والدواعى إلى هذا عديدة، منها أن يكون المؤلف قد عبرعن قول من الأقوال من باب السخرية منه والتهكم عليه، أو قاله من باب الهزل أو التلميح والتعريض، أو حاول به التعمية عن قصده وصرف النظر عما يقصده فى الواقع. وفضلا عن هذا كله، فقد يدعو التحسين اللفظى إلى كثير من الاستعمالات المجازية، كاستخدام التشبيهات والاستعارات والمجازات والكنايات. مما يؤدى فى أحيان كثيرة

---

(١) عبدالرحمن بدوى: النقد التاريخى، ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) عبدالرحمن بدوى: منهج البحث العلمى، ص ٢٠٨.

إلى أن يتبدى من مظاهر النص غير ما يقصده المؤلف بالفعل. ولهذا يجب علينا ألا نأخذ النصوص بظاهرها، وذلك أن ننظر أولا فى النص، فإذا وجدناه غامضا أو يختلف مع ما نعرفه من أقوال أخرى للمؤلف، أو توجد به تلميحات تتبدى أحيانا فى شيء من الوضوح، وغالبا فى اختفاء وإيماء، فإن علينا أن نعتبر أن النص هنا يجب ألا يؤخذ بحروفه، بل علينا أن نفترض معنى خفيا قصده المؤلف، واضطر إلى إخفائه للأسباب التى ذكرناها[1]. ومن أشهر ما حدث فى هذا الصدد نجد مثلا أن الملحدين وأصحاب البدع فى الحضارة الإسلامية يستخدمون ألفاظاً مثل الدنيا والدهر والزمان، ويقصدون منها فى الواقع «الله»، ولكن لأنهم يريدون أن يصبوا عليها كل اللعنات ويعزوا إليها أسباب المصائب، فإنهم لايستطيعون قطعا أن ينسبوها إلى الله، فيلبسون عن قصد بمثل هذه الألفاظ التى يجب أن تعد معبرة عن قصدهم، وهذا هو ما نبه إليه فى الحديث الشريف المشهور «لاتسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»، وعلى الرغم من هذا التحذير فقد استمر هؤلاء فى سب الدهر[2].

وبهذا نستطع أن نحدد المعنى الذى قصد إليه المؤلف تماما، وبذلك تكون عملية النقد الباطنى الإيجابى للتفسير قد تمت، ويصبح الباحث على بينة من المعلومات التى أوردها صاحب الأصل، ومن أفكاره الخاصة عن الموضوعات والأحداث التى تناولها. وتبدأ بعد هذا العملية الثانية للنقد الباطنى، وهى العملية السلبية للنزاهة والدقة.

(ب) العملية الثانية: النقد السلبى للنزاهة والدقة:

لايكفى القيام بعملية النقد الباطنى الإيجابى للتفسير، فكل ما يقدمه

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٩.

لنا هذا النقد هو قصد المؤلف فحسب، أما كيف شاهد الحادث وهل أصاب فى مشاهدته أم لا، وهل قصد إلى الكذب أم لم يقصد، وإلى أى مدى نثق بالوثيقة التى رجع إليها، وإلى أى حد هى تعبر عن الواقعة، كل هذه مسائل لابد أن تقوم بها عملية ثانية للنقد الباطنى هى عملية النقد الباطنى للنزاهة والدقة فعلينا أن نبحث فى صحة مشاهدة مؤلف الوثيقة للحادث، وهل أصاب في وصف له. وهل لم يخطىء فى بعض الجزئيات، وهل لم يكن مخدوعاً فى بعض ما شاهده وهل لم تكن تحدوه دوافع أجنبية من شأنها أن تشوه تصويره للحادث، وفى إيجاز: إلى أى حد نثق برواية صاحب الوثيقة(١) ؟

وفى هذه المرحلة يصبح من حق الباحث أن يشك فى صحة وأمانة المعلومات الواردة فى الأصول التاريخية عن موضوع معين، فالأصل أن كل صاحب وثيقة متهم بالخيانة والتزييف والخطأ وعدم النزاهة، ويمكننا أن نبدأ بحثنا إما بتأييد هذا الحكم السابق، أو بإثبات براءته. وبهذا الشك الحاسم المتناول لكل شيء، نستطيع أن نقيم فعلا منهجا علميا لدراسة التاريخ. وهنا يجب أن نتبع قاعدتين: القاعدة الأولى هى أنه يجب ألا نثق فى رواية لمجرد أن صاحبها شاهد عيان، فشهادة العيان ليست بصحيحة دائماً لأن صاحبها قد يخطىء، وقد يكون عرضة لكثير من الأوهام. والقاعدة الثانية هى يجب ألا نأخذ الوثيقة ككل، بل ينبغى أن ننقد جزئياتها وتفصيلاتها وحوادثها المفردة واحدة بعد أخرى(٢).

وعلينا أن ننظر فى الأحوال التى وضعت فيها الوثيقة، والظروف التى أحاطت بالمؤلف، فنجمع أوفر قسط من المعلومات عن المؤلف وعن

(١) المرجع السابق، ص ٢١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٠ - ٢١١، حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ١٢٥ - ١٢٦.

ثقة الناس به وعن العصر الذى كتب فيه وعن الوثائق المشابهة التى روت نفس الحادث، وعن الوقت الذى وجد به. حتى إذا ما استطعنا أن نجمع كل هذه المعلومات كان علينا أن نضع لأنفسنا مجموعة من الأسئلة العامة تدور حول نزاهة المؤلف ودقته(١). وتدور كل الأسئلة فى هذه الحالة حول إمكان أن يكون المؤلف قد كذب فى روايته أو نقله. والأسباب الداعية إلى الكذب أشهرها:

١ - أن يكون المؤلف قصد إلى التزييف لحاجة عملية، كأن يستفيدمادياً من هذا التزييف، أو أن يكون ملحقاً بحاشية ملك أو أمير فيضطر إلى تزييف الأخبار والوثائق لصالح الأمير الذى يوجد فى بطانته.

٢ - أن يكون المؤلف قد وجد فى وضع اضطره إلى هذا التزييف.

٣ - أن يكون المؤلف مدفوعاً، بدافع البغضاء والكراهية لجماعة من الجماعات: دينية أو وطنية، أو اجتماعية، أو بدافع الاختلاف فى الرأى مع مبدأ من المبادىء أو حزب من الأحزاب، فيميل دائماً فى هذه الحالة إلى تمجيد مبادئه هو أو مبادىء حزبه أو مبادىء الجماعة التى ينتسب إليها، والحط من قيمة خصومه وتزييف أقوالهم والتقول عليهم بأشياء لم يقولوها إطلاقاً، وإنما قصد بها كذباً التشهير بهم.

٤ - أن يكون المؤلف قد قصد - لغاية شخصية معينة - أن يضع من قدر شخص من الأشخاص أو حادثة من الحوادث، فيميل إلى الكذب فى الرواية، ولهذا لا يمكن أن يقال إنه نزيه فى روايته(٢).

أما الدقة فتتصل بالخداع أو الخطأ، ومعناها أن يكون صاحب الوثيقة

---

(١) عبدالرحمن بدوى: مناهج البحث العلمى، ص ٢١١ - ٢١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢١٢ - ٢١٣.

فريسة لوهم من الأوهام، فيظن أنه رأى الحادث على هذا النحو ويؤكد هذا، مع أن الحادث كان على نحو آخر، ولكن حالت دون رؤيته على النحو الصحيح موانع أشهرها:

١ ـ أن يكون الشخص فى وضع يشاهد فيه الحادث فعلا ويعاينه ويباشره دون أن يكون ثمة مانع قسرى، ولكنه لايراه على حقيقته لوجود معان سابقة فى ذهنه. وهذا يشاهد كثيراً فى الروايات العيانية عن حادث واحد، فنحن نرى، أنه لو شاهد عشرون شخصاً حادثا من الأحداث،وليكن سياسيا، لرووه بروايات متعددة، تكاد أن تتناقض فى أكبر الأحيان، وذلك وفقا لطبيعة الملاحظ من حيث تأثره بالحادث ومن حيث المعانى السابقة الموجودة فى ذهنه.

٢ ـ أن يضطر الراوى إلى رواية الحادث على نحو معين خاص لايستطيع أن يرى الأشياء فيه إلا على هذا النحو كما يحدث غالبا فى مشاهدة الزائرين لبلد من البلدان، فإن الحكومات تلجأ دائما إلى تنظيم الرحلة بطريقة من شأنها أن تبعد هذا الزائر عن مشاهدة كل ما لا تود هى أن يراه، فيكون فى هذه الحالة مضطراً بحكم ظروفه إلى إلاّ يرى غير ما رأى.

٣ ـ أن تكون الوقائع معقدة ومتشابكة أو موجودةفى أمكنة متعددة، أو تحتاج إلى معونة الكثيرين من المخبرين أو العيون والأرصاد، فتكون روايتهم فى هذه الحالة مشوبة بالكثير من النقص لأنه لم يستطع أن يشاهد الحادث كله جملة، فهذا كله يتنافى مع الدقة التى يجب أن يحرص عليها فى الرواية، فيضطر فى هذه الأحوال إلى أن يورد الرواية على نحو غير دقيق. فالفارق بين النزاهة وبين الدقة إذن هو

أنه فى عدم النزاهة يفترض سوء النية، وفى عدم الدقة يفترض حسن النية، ويأتى الخطأ عن وهم أو استحالة مادية(١).

(خامسا) كتابة البحث:

وبعد هذا الشوط الطويل الذى قطعه الباحث، يكون قد وصل إلى المرحلة النهائية، وهى كتابة البحث. ولاتصبح كتابة التاريخ سهلة إلا عندما تكون كافة الحقائق ماثلة أمام الباحث مثبتة معللة مشروحة، وعندما يتخيل الباحث موضوع البحث كله كوحدة متكاملة، ويدرك الأهمية النسبية لأجزاء البحث المختلفة.

والواقع أنه لا يستقيم المنهج العلمى التاريخى إلا إذا توفرت له أدواته من معاجم وأدلة وفهارس وكشاف مصطلحات، ودوائر معارف متخصصة، وقد بدأ المستشرقون عملهم العلمى الضخم بإعداد أدوات العمل، فحققوا المعاجم ونشروها، وواحد منهم وهو راينهارت دوزى، عمل ملحقاً للقواميس العربية، جمع فيه كل الألفاظ التى عثر عليها فيما قرأ من النصوص، ولم ترد فى المعاجم العربية، ومعظمها من الدخيل والمعرب والعامى والاصطلاحى، وما يستعمل فى صنعة من الصناعات أو حرفة من الحرف، ثم عمل معجما لأسماء الملابس العربية، ويدخل فيها أنواع النسيج(٢).

وعلى الباحث فى التاريخ أن يحسن اللغة التى يكتب بها، ويحسن التعبير بها، وأن يكتب بلغة سهلة واضحة تلائم الموضوع الذى يتناوله، وعليه أن يكتب بأسلوبه الخاص الذى تتضح فيه شخصيته، فلا يقلد غيره من الباحثين، فلكل كاتب طريقته الخاصة فى التعبير عن آرائه. وينبغى

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٢) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، ص ٥٦.

على الباحث أن يتجنب الكتابة بأسلوب أدبى صرف حتى لايؤثر ذلك على واقعية الأحداث، وليس المطلوب من المؤرخ إجادة استعمال التورية والسجع والجناس والتشبيه وما إلى ذلك. وإنما يكون أسلوبه بسيطا وممتعا، خاليا من الأخطاء اللغوية، فى دقة وإيجاز، فالمؤرخ غير الأديب أو الشاعر، وياحبذا لو يجمع المؤرخ بين البساطة والدقة وروح الفن، لأن غياب الخيال نهائيا يؤدى إلى ركاكة الأسلوب[1]. ومشكلة الأسلوب آخر الأمر يمكن أن تحل - ولو جزئيا - بشىء من التعاون، فبوسع المؤرخ بعد أن يفرغ من كتابة بحثه معتمداً على المادة التى استقاها من مصادرها، بوسعه أن يدفع بهذا البحث إلى زميل أو صديق يتمتع بأسلوب أدبى رفيع ليعيد له صياغة ما كتب، ولاعيب فى ذلك على الإطلاق، شريطة ألا يكون هذا الأديب ممن يؤثرون الأسلوب الجذاب على الحقيقة التاريخية.

وقبل أن يبدأ الباحث فى التاريخ فى الكتابة عليه أن يجعل الخطة التى سيسير بمقتضاها أكثر تحديداً، وليس من الضرورى أن يكتب فصول البحث بترتيب وضعها، فقد يكتب الفصل الخامس قبل الفصل الأول مثلا، بشرط أن يتم مراجعة الفصول كلها لتحقيق التناسق وحتى لايحدث تكرار. ويجب أن يكتب الباحث وفى ذهنه احتمال الوقوع فى الخطأ، وعليه أن يبادر بتصويب مايمكن أن يكشف عنه من الأخطاء إذا ما ظهرت أمامه معلومات أو أدلة جديدة، وحينما يكون غير واثق من معلومة فعليه أن يقرر ذلك بصراحة، وأحيانا يكون التعديل فى معلومة ما أمر متروك لضمير الباحث، فالأمر مسألة أمانة علمية ووفاء للبحث العلمى[2].

---

(١) عبدالمنعم ماجد: مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى، ص ٧٣؛ حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) حسن عثمان: المرجع السابق، ص ١٩٨ - ١٩٩.

كذلك على الباحث فى التاريخ أن يثبت وجوده باستمرار فى البحث، وأن يعلق على الحوادث بين حين وآخر، حتى لايكون ما يكتبه مجرد سرد لأقوال الآخرين. وعلى الباحث أن يراعى فى كتابة بحثه أن تكون فصول هذا البحث متساوية فى حجمها قدر الإمكان، حتى يحدث التوازن المطلوب فى البحث، فلا يكون هناك فصل عدد صفحاته ١٥ صفحة مثلا وآخر ٦٠ صفحة(١).

وعلى الباحث فى التاريخ أن يتجنب استخدام ضمير المتكلم بكل أنواعه، سواء فى ذلك ضمائر الرفع وضمائر النصب والجر منفصلة أو متصلة بارزة أو مستترة. وعلى هذا فلا يقول: أنا، ونحن، وأرى، ونرى، وقد انتهيت فى هذا الموضوع إلى، ورأى، ونحو ذلك، وكمثل ضمير المتكلم ضمير المخاطب. وينصح الباحث أيضا ألا يكثر من استخدام الأساليب الآتية: ويرى الكاتب، والمؤلف لايوافق، والباحث يميل. أما التعبيرات التى يجب أن تغلب على الأسلوب فهى مثل: ويبدو أنه، ويظهر مما سبق ذكره، ويتضح من ذلك، والمادة المعروفة عن هذا الموضوع تبرز.. الخ. وعلى هذا ينصح الذين يكتبون بحوثهم ألا يكثروا من استعمال ضميرى المتكلم والمخاطب، وأن يلاحظوا إذا استعملوا ضميرى المتكلم والمخاطب مراعاة التواضع والأدب الجم، فالحديث عن النفس غير محبب غالباً للقارىء والسامع(٢).

وينبغى على الباحث فى التاريخ أن يحترم آراء المؤرخين الأعلام ويقدر وجهات نظرهم، على ألا يصدق كل ما يقولونه. ولكن يجب أن يكون تفنيده لما ذهبوا إليه مما لا يتفق وآراءه برفق حين يكتب، كأن

---

(١) على إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث ص ٤٤٥ عطية القوصى: علم التاريخ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) أحمد شلبى: كيف بحثا أو رسالة، ص ٨٦ ـ ٨٧.

يقول: ذهب المؤرخ فلان إلى القول بأن .. ولكن ما أجمع عليه المؤرخون يدلنا على أن.. دون أن تذكر عبارات مثل: تريذا الحادثة الآتية كذب المؤرخ فلان أو دحض كلامه، لأن ذلك فيه تحقير للمؤرخين دون موجب، مما ينافى جانب الوفاء والتقدير لأمثالهم(١).

وإذا كنا نرى الماضى بعيون عصرنا، إلاأن بعض المصطلحات التى تستخدم فى عصرنا، قد لايكون لها مدلولها الذى ينطبق على حياة الماضى، فعلى سبيل المثال يعتبر غريبا عن البيئة الإسلامية وتاريخها فى العصور الوسطى التعبيرات الاصطلاحية المستعملة فى أوربا فى تاريخها الحديث: ليبرالية، ويمين، ويسار، وانتهازية، وشيوعية، واشتراكية، إذ لايجوز تطبيقها على واقع البيئة الإسلامية وعصرها(٢).

وينبغى كذلك ملاحظة أن الفقرة وحدة قائمة بذاتها لاتحتاج إلى عنوان، وهى مجموعة من الجمل بينها اتصال وثيق لإبراز معنى واحد أو شرح حقيقة واحدة، ولها استقلالها الكامل، حتى أنه يطلق عليها «بحث قصير» أو «بحث داخل بحث»، وللفقرة طول متوسط فلا ينبغى أن تكون طويلة جداً ولا قصيرة جداً، وإن كان قصرها مقبولا عن طولها(٣).

ويعد الاقتباس من أهم المشكلات التى يجب على الباحث أن يدرسها بعناية واهتمام، ويدرس كل ما يحيط بها من ظروف، فعليه أن يتبع الدقة التامة فى النقل، ويضع ما يقتبس بين شولات« »، وإذا كان الاقتباس لأكثر من فقرة يجب أن توضع شولتان قبل بدء كل فقرة، ولكن الفقرة الأخيرة فقط هى التى تختم بشولتين، ويشار فى الحاشية إلى المرجع

---

(١) على إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ٤٦.
(٢) عبدالمنعم ماجد: ذيل على مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى (القاهرة ١٩٧٩)، ص٧٢.
(٣) أحمد شلبى: كيف تكتب بحثا أو رسالة، ص ٨٨.

الذى اقتبس منه. ويجب ألا تختفى شخصية الباحث بين ثنايا كثرة الاقتباسات، وألا يكون البحث سلسلة اقتباسات متتالية، كما يجب أن تنسق الاقتباسات تنسيقا بديعا[1].

وإذا أشار الباحث فى بحثه إلى شخص ما، فالقاعدة العامة أن يذكر إسمه دون ذكر لقبه أو الوظيفة التى يشغلها. ولكن هناك بعض حالات يكون ذكر الألقاب والوظائف فيها ضروريا، وذلك فى حالة ما إذا كان للقب أو الوظيفة دون أن يكون القصد تكريم الشخص، بل الإيضاح ودعم الرأى. وينبغى على الباحث أن يبتعد تماما عن ذكر العبارات التالية: أستاذنا الكبير - العالم الجليل - العلامة[2].

وعلامات الترقيم هامة للغاية فى كتابة البحث، ويتوقف الفهم عليها أحيانا، وهى دائماًتعين مواقع الفصل والوصل، وتسهيل الفهم والإدراك عند سماع الكلمات ملفظا، أو قراءته مكتوبا. وهذه العلامات هى:

١ - النقطة (.) وتوضع فى نهاية الجملة التامة المعنى، وكذلك توضع عند إنتهاء الكلام وانقضائه.

٢ - الفصلة (،) وتوضع بعد لفظ المنادى مثل: ياعلى، أحضر الكتاب. وتوضع بين الجملتين المرتبطتين فى المعنى والإعراب. وكذلك توضع بين الشرط والجزاء وبين القسم والجواب. وتستخدم الفصلة بين المفردات المعطوفة.

٣ - الفصلةالمنقوطة (؛): وتوضع بعد جملة، ما بعدها سبب فيها، مثل: محمد من خيرة الطلاب فى فريقه؛ لأنه حسن الصلة بأساتذته

---

(١) المرجع السابق، ص ٨٩ - ٩٢.
(٢) المرجع السابق، ٩٤ - ٩٧.

وزملائه. وتوضع أيضا بين الجملتين المرتبطتين في المعنى دون الإعراب.

٤ ـ النقطتان (:) وتوضعان بين القول والكلام المقول: مثل: روى، حكى:، قال:، أجاب: وتوضعان أيضا بين الشيء وأقسامه وأنواعه، مثل: إثنان لايشبعان: طالب علم، وطالب مال.

٥ ـ علامة الانفعال (!) وتوضع في آخر جملة يعبر بها عن فرح أو حزن أو تعجب أو استغاثة أو دعاء أو تأسف.

٦ ـ الشرطة (ـ) وتوضع من أول السطر في حال المحاورة بين إثنين إذا استغنى عن تكرار إسميهما. وتوضع الشرطة أيضا بين العدد والمعدود إذا وقعا عنوانا في أول السطر مثل أولا ـ ... أو ١ ـ ...

٧ ـ الشرطتان (ـ ....) وتوضع الشرطتان ليفصلا جملة أو كلمة معترضة فيتصل ما قبلها بما بعدها.

٨ ـ الشولتان المزدوجتان « » وتستعملان للدلالة على أن ما بينهما هو من كلام الغير.

٩ ـ القوسان ( ) ويوضع بينهما عبارات التفسير والدعاء القصير، ومثال هذا الدعاء أن نقول: كان عمر (ؓ) مثال الخليفة المسلم العادل.

١٠ ـ علامة الحذف وهي نقط أفقية أقلها ثلاثة مثل (...)[١]، وتستعمل تبين بأن كلمات وردت في المصدر قد حذفها الباحث عن عمد.

مسودات البحث:

قبل أن يبدأ الباحث في التاريخ في كتابته، يجب عليه أن يخطط

---

(١) المرجع السابق، ٩٨، ١٧٣ ـ ١٨٠.

المقالة أو الفصل ليعرف بدايته ونهايته ثم ما سيقوله بينهما. وحتى عند قيامه بهذا التخطيط، يجب عليه أن يكتب مستعينا بما لديه من مادة وملحوظات دونها، ومن كتب، وجرائد، ومقالات، وغير ذلك من وسائل جمع المعلومات، التي يجب أن تكون تحت يده، وذلك لأن الدقة هي أحد أهدافه الكبرى. وهنا يجدر القول بأن المسودة الأولى، قد يبدو كأنها ملحوظات موضوعة ومصفوفة مقلوبة رأسا على عقب، ولاحياة فيها، على الرغم من أن المؤرخ لن يألو جهداً في وضع مسودته في أعلى قالب من الأسلوب اللغوى[1].

وبعد أن تنتهى المسودة الأولى، لابد من أن تعاد قراءتها، حتى يمكن أن تزاد عليها بعض المعلومات، التي تكون قد أفلتت عند تسويدها، والتي تكون ذات صلة مباشرة بالموضوع. ومن هنا لابد له من إعداد مسودة أخرى جديدة، حتى تصبح مخطوطة الباحث واضحة القراءة وضوحاً كاملا[2].

ولعل هذه المسودة تحمل في طياتها فضيلة واحدة، وهي فضيلة الاكتمال. ولربما تعوزها سلاسة الأسلوب، ولباقة في الانتقال من نقطة إلى أخرى، وتنظيم جيد، ولربما تحتفظ بزيادات، وتتكرر فيها الأفكار، وتكون في جملتها أطول مما ينبغي. فعلى الباحث والحالة هذه أن يباشر في صقل جمله وفقراته، ويصل ما انقطع من أفكار، وينقل فقرات من مواضعها، ويحذف ما زاد من كلمات، ويعدل في عباراته والمجازات اللغوية، ويصلح ترجمته وأن يضع ملحوظاته الهامشية في شكلها النهائى الكامل[3].

---

(١) حوتشلك: كيف نفهم التاريخ، ص ٢١٧ ـ ٢١٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٢١٨.
(٣) المرجع السابق، ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

أما المسودة الثالثة، فلابد من أن تكون على أحسن حالة يمكن أن يضعها بها الباحث. على أنه قد يجد الكثير من الفقرات غير المنسجمة مع الكتابة وتحتاج إلى تبديل وتغيير، وكذلك ربما بدا له بعض المسائل التى كانت تبدو مرتبطة بسياق الحديث فى المسودة الثانية لم تعد كذلك. إن هذه المسائل يجب أن تراجع الآن من جديد، وإن لزم الأمر، فلابد من كتابة مسودة رابعة للصفحات التى تأثرت بالتعديلات الجديدة على الأقل. وكلما طالت الفترات بين المراجعات للمسودات، كانت نظرة الباحث أصوب وأدق فى كل مسودة عن سابقتها(١).

الهوامش أو الحواشي Footnotes:

وهى مايكتب أسفل الصفحة، وتحتاج كتابتها إلى معرفة وخبرة، وتقدر مهارة الباحث بمدى دقته فى ترتيب وتنظيم حواشي البحث، وللهوامش فائدة كبرى فى الكتابة التاريخية، ولعلها أداة الحكم على أصالة هذه الكتابة وجدواها، ولهذا يعتبر المؤرخ الذى يهملها أو يتخلى عنها تماماً فى أى مؤلف يضعه، كأنما تخلى عن أهم وسيلة يستطيع بها غيره أن يفحص ماوصل إليه من نتائج، والملحوظة الهامشية هى التى تهيء للقارىء فرصة الاستدلال على صدق المؤلف، كما تهيء له فى نفس الوقت فرصة الحصول على مزيد من المعلومات التى قد تستهويه أو تهمه أهمية مباشرة(٢).

وتستخدم حواشي البحث فى ثلاثة أمور رئيسية هى:

١ ـ الإشارة إلى المراجع الذى استقى منه الباحث معلوماته، اعترافاً بالفضل لهؤلاء الذين انتفع بجهودهم واقتبس منهم.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٢) محمد حسين عواد: «صناعة التاريخ»، ص ١٥٥.

٢ ـ ذكر إيضاحات تورد أحيانا لتفصيل مسألة وردت فى صلب الرسالة أو لتحقيق موضع أو نحو ذلك، ولايمكن إثبات هذه الإيضاحات فى صلب الرسالة لأنها غير أساسية فيها، فلو أوردت لقطعت اتساق الرسالة وتسلسلها.

٣ ـ إحالة القارىء إلى مكان آخر من البحث أو إلى مراجع أخرى لمناقشة نقطة ما يتعرض لها الباحث.

وهناك ثلاث طرق للترقيم بالهامش:

١ ـ أهم هذه الطرق وأسهلها وأكثرها شيوعاً هو وضع أرقام مستقلة لكل صفحة من البحث على حدة، وهى تبدأ من رقم (١) وتوضع فى أسفل كل صفحة هوامشها، وسهولة هذه الطريقة واضحة، فكل صفحة بأرقامها ومراجعها وكل ما يتصل بها.

٢ ـ إعطاء رقم مسلسل متصل لكل فصل على حدة، ويبدأ أيضا من رقم (١) ويستمر إلى نهاية الفصل، وإحداث تغيير بالحذف أو بالإضافة فى الأرقام هنا أيضا يستلزم تغيير ما بعده حتى نهايةالبحث، وتوضع فى أسفل كل صفحة هوامشها، أو تجمع الهوامش كلها لتوضح فى نهاية الفصل.

٣ ـ إعطاء رقم مسلسل متصل للرسالة كلها، ويبدأ من رقم (١) كذلك ويستمر إلى نهاية البحث، وإحداث أى تغيير بالحذف أو بالإضافة فى الأرقام هنا أيضا يستلزم تغيير ما بعده حتى نهاية البحث، وتوضع فى أسفل كل صفحة هوامشها، أو تجمع الهوامش كلها لتوضع فى نهاية البحث[١].

---

(١) أحمد شلبى: كيف تكتب بحثا أو رسالة، ص ١٠١ ـ ١٠٣.

وإذا أخذ الباحث من مرجع أو مؤلف مطبوع، عليه أن يضع إسم المؤلف أولا، اسمه الأول والثانى أو الحروف الأولى منهما يليه اللقب (Surname)، ثم يضع إسم الكتاب كاملا، فاسم الناشر، ومكان طبع المرجع، وترتيب الطبعة إذا كان المرجع قد طبع عدة مرات، ويراعى دائماً أن آخر طبعة هى أفضلها، وهى الأجدر بالرجوع إليها، لأن المؤلف دائماً يصحح نفسه ويضيف إلى مؤلفه فى الطبعة الجديدة، ثم تاريخ الطبعة، وإذا لم يجد تاريخا للطبعة يذكر ذلك بين قوسين دائرين[١].

وفى المراجعة الأجنبية يشار إلى الجزء بـ. Vol إختصار كلمة Vol-ume، وإلى الصفحة بـP. إختصار كلمةPage ، وإذا تعددت الصفحات تذكر.PP . أما إذا كانت المعلومات التى اعتمد عليها الباحث موزعة فى كل صفحات الكتاب بحيث لايمكن تحديد صفحة معينة، فيضع الرمز Passim وهى كلمة لاتينية معناها فى كل مكان، أى هنا وهناك.

وإذا تكرر مرجع فى نفس الصفحة بدون فاصل فإنه يذكر فى المرة الأولى كاملاً، وفى المرة الثانية يذكر هكذا: نفس المرجع، ص (كذا)، وفى حالة المرجع الأجنبى، يذكر إسم المؤلف متبوعاً بعبارة =.Op. Cit Opero citato = In the work cited ثم رقم الصفحة. وإذا كان التكرار لمرجع أجنبى دون فاصل يشار إليه هكذا. Ibid., P. وإذا كان الإقتباس الثانى من نفس الجزء والصفحة، ففى حالة المرجع العربى تكون الإشارة: نفس المكان. وفى حالة المرجع الأجنبى تكون الإشارة Loc. Cit = Loco .Citato = In the palce cited

وإذا كان الاقتباس من كتاب نشر عدة أبحاث علمية لأكثر من باحث، يذكر فى الهامش إسم صاحب البحث، ثم عنوان بحثه، وأخيراً

---

(١) سيد الناصرى: فن كتابة التاريخ، ص ٢٧٣.

إسم الكتاب وناشر الكتاب وعنوانه. وكذلك الحال فى المجلات الشهرية أو الفصلية بشكل عام. وفى اللغة الأوربية يكتب إسم المؤلف، ثم عنوان الدراسة، ثم كلمة فى in ويذكر بعدها إسم الكتاب الذى ضم كل الدراسات وبعدها كلمة edited by أى حرره فلان ويذكر رسم المحرر[١].

ومن الإختصارات الأجنبية التى توضع فى الحاشية:

مخطوط Ms. (manuscript)

مخطوطا تؤسس Mss. (manuscripts).

مجلد - مجلدات Vol., Vols. (volme - volumes).

طبعة ed. (edition).

وفى أحوال كثيرة يضطر الباحث إلى أن يورد فى الهامش نصاً أصلياً مأخوذاً من مخطوط أو مطبوع، ويحسن أن يكون ذلك بلغة النص الأصلية لأن الترجمة قد تغير المعنى، وألا تكتب الترجمة إلا إذا تعذر الحصول على الأصل التاريخى[٢].

ويلى ذلك أن يضع الباحث خاتمة البحث التى تضم النتائج العلمية التى توصل إليها من البحث دون حاجة إلى الإشارة إلى حواشى أو هوامش.

ملاحق البحث:

يجوز تقديم ونشر مختارات من الأصول التاريخية النادرة التى اعتمد عليها الباحث، وفى بعض الأحيان يكون نشر مثل هذه الملاحق أمراً جوهرياً، لأنه يقدم للقارىء جزءاً من المواد الأولية التى استخرج منها

---

(١) عاصم الدسوقى: البحث فى التاريخ، ص ٨٩.

(٢) حسن عثمان: منهج البحث التاريخى، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

الباحث معلوماته، خاصة إذا كانت وثائق لم تنشر. ومن الأفضل أن تنشر هذه الأصول بلغاتها وهجائها وأخطائها، كما وردت بغير تعديل، ويكون نشرها مصحوبا بشرح ألفاظها الغريبة وتصحيح أخطائها والتعليق عليها، وبيان قيمتها التاريخية. وأحياناً ينشر الباحث فى هذه الملاحق مناقشات خاصة بشأن التثبت من صحة أصل تاريخى، أو تحديد العلاقة بين بعض الأصول وبعض، أو بحث نقطة تفصيلية خاصة بشخصية أو بحادث أو بمكان أو بتاريخ أو برقم ما. وقد تنشر هذه المختارات أو هذه المناقشات أو الصور والرسوم والخرائط التوضيحية، أو جداول الإحصائيات والتعليقات فى ملحق متصل بالبحث ذاته، أو تنشر فى مجلد خاص تابع له[١].

وفى نهاية البحث يضع الباحث قائمة بالأصول والمصادر والمراجع التى رجع إليها الباحث وأفاد منها، وينبغى أن تنظم بحسب أسماء المؤلفين، فيذكر اللقب، ثم الاسم الأول والثانى أو الحروف الأولى لهذين الإسمين الأوليين وذلك فى المراجع الأجنبية. أما فى المراجع العربية فيكتب الإسم عاديا بعد أن تسقط أداة التعريف (أل) و(ابن) و(أبو) فى ترتيب الأسماء العربية. ومن الأفضل أن يقدم الباحث دراسة تحليلية ينقد ويبين فيها أهمية الأصول والمراجع الأساسية التى أوردها، كدليل على جهوده، وكعون للباحثين فى التاريخ من بعده.

ومهما يكن من أمر، فتلك هى أسس كتابة التاريخ العلمى، وذلك هو المنهج السليم الذى ينبغى أن يتبعه كل من يريد أن يكتب بحثا فى التاريخ تكون له أهميته وقيمته، أما الكتابات التقليدية التى تكتفى بسرد الأحداث وحسب، فهذه لاتدخل فى نطاق التاريخ، وإنما هى مجرد قصص قد يتسلى بها الإنسان.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

المصادر والمراجع العربية

إبراهيم طرخان: (دكتور)

تاكيتوس والشعوب الجرمانية (القاهرة ١٩٥٩م).

إتكن (هيوج.):

دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة د. محمود زايد (بيروت ١٩٦٣).

ابن الأثير: (على بن أحمد بن أبى الكرم، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م)

الكامل فى التاريخ، ٩ أجزاء (طبعة بيروت).

أحمد أمين:

ضحى الإسلام. جـ ٢ (القاهرة ١٩٧٩).

أحمد حسين الطماوى:

على أدهم بين الأدب والتاريخ (القاهرة١٩٩٠)

أحمد شلبى: (دكتور)

كيف تكتب بحثا أورسالة. (القاهرة ١٩٦٨)

أحمد صبحى: (دكتور)

الحضارة الإغريقية (الإسكندرية بدون تاريخ).

- فى فلسفة التاريخ (الإسكندرية - بدون تأريخ).

أرنولد توماس):

الدعوة إلى الإسلام. ترجمة د. حسن ابراهيم حسن، د. عبدالمجيد عابدين، اسماعيل النحراوى. (القاهرة ١٩٧٠).

إسحق عبيد: (دكتور)

معرفة الماضى (القاهرة ١٩٨١).

السيد عبدالعزيز سالم: (دكتور)

التاريخ والمؤرخون العرب (الإسكندرية ١٩٨٧).

السيد محمد بذوى: (دكتور)

مخطط تاريخى لتقدم العقل البشرى لكوندرسيه (القاهرة ١٩٩٥).

بارنز (هارى إلمر):

تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة د. محمد عبدالرحمن برج، مراجعة د. سعيد عبدالفتاح عاشور. جزءان (القاهرة ١٩٨٢، ١٩٦٧).

توفيق الطويل: (دكتور)

أسس الفلسفة (القاهرة ١٩٦٧).

جوتشلك: (لويس):

كيف نفهم التاريخ. مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخى،؛ ترجمة د. عائدة سليمان عارف، د. مصطفى أبو حاكمة (بيروت ١٩٦٦).

جوزيف نسيم يوسف: (دكتور)

تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٤).

- تاريخ العصور الوسيطة الأوربية وحضارتها (القاهرة ١٩٨٤).

حامد عمار: (دكتور)

المنهج العلمى فى دراسة المجتمع (القاهرة ١٩٦٤).

حسن عثمان: (دكتور)

منهج البحث التاريخى (القاهرة ١٩٨٠).

حسنين محمد ربيع: (دكتور)

محاضرات فى علم التاريخ (القاهرة ١٩٩٦).

حسين مؤنس: (دكتور)

التاريخ والمؤرخون (القاهرة ١٩٨٤).

= «التاريخ والمؤرخون»، عالم الفكر أبريل - مايو - يونيو، العدد الأول الكويت ١٩٧٤.

حسين نصار: (دكتور)

نشأة التدوين التاريخى عند العرب (القاهرة بدون تاريخ).

= نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى (القاهرة ١٩٦٦).

إبن خلدون (عبدالرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

المقدمة، جـ١ تحقيق د. على عبدالواحد وافى (القاهرة ١٩٦٥).

داهموس (جوزيف):

سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر (القاهرة ١٩٨٩).

ديفز (هـ. و. كاريس):

شارلمان، ترجمة د. السيد الباز العرينى (القاهرة ١٩٥٩).

رأفت الشيخ: (دكتور)

فى فلسفة التاريخ (القاهرة ١٩٩٦).

راوس (أ.ل.):

التاريخ أثره وفائدته. ترجمة مجدى حفنى ناصف، مراجعة د. محمد أحمد أنيس (القاهرة ١٩٦٨).

رسل (برتراند):

الفلسفة بنظرة علمية، ترجمة د. زكى نجيب محمود (القاهرة ١٩٥٦)

روزنثال (فرانز):

علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح أحمد العلى، مراجعة محمد توفيق حسين (بغداد ١٩٦٣).

السخاوى (محمد بن عبدالرحمن، ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧).

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (القاهرة ١٣٤٩هـ).

سعيد عبدالفتاح عاشور: (دكتور)

أوربا العصور الوسطى، جـ ١ (القاهرة ١٩٧٥)، جـ٢ (القاهرة ١٩٧٦).

سمالى (بيريل):

المؤرخون فى العصور الوسطى؛ ترجمة د. قاسم عبده قاسم (القاهرة ١٩٨٤)

سمير عبده:

صناعة تزييف التاريخ. (دمشق ١٩٨٩).

سيد أحمد الناصرى: (دكتور)

فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه (القاهرة ١٩٨١).

سيدة إسماعيل كاشف: (دكتورة)

مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه (القاهرة ١٩٧٦).

شاكر مصطفى: (دكتور)

«التاريخ هل هو علم؟» أبريل - مايو - يونيو، العدد الأول، الكويت ١٩٧٤.

صلاح قنصوه: (دكتور)

الموضوعية فى العلوم الإنسانية (بيروت ١٩٨٤).

طه حسين: (دكتور)

فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ترجمة محمد عبدالله عنان (بيروت ١٩٧٥).

عاصم الدسوقى: (دكتور)

البحث فى التاريخ، قضايا المنهج والإشكالات (القاهرة ١٩٨٦).

عبدالباسط محمد حسن: (دكتور)

أصول البحث الاجتماعى (القاهرة ١٩٩٠).

عبدالحميد زايد: (دكتور)

مصر الخالدة (القاهرة ١٩٦٦).

عبدالرحمن بدوى: (دكتور)

مناهج البحث العلمى (بيروت ١٩٧٧)

= اشبنجلر (بيروت ١٩٨٢).

- النقد التاريخى، يتضمن ترجمة كتاب لانجلوا وسينوبس عن

الفرنسية بعنوان «المدخل إلى الدراسات التاريخية»، وكذلك يتضمن ترجمة «نقدالنص» لبول ماس، وترجمة نصوص لكانت وديكارت وبول فاليرى فى التاريخ (الكويت ١٩٧٧).

عبدالعزيز الدورى: (دكتور)

بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب (بيروت ١٩٦٠).

عباللطيف أحمد على: (دكتور)

مصادر التاريخ الرومانى (القاهرة ١٩٦٤).

عبدالمنعم ماجد: (دكتور)

ذيل على مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى (القاهرة ١٩٧٩).

عطية القوصى: (دكتور)

علم التاريخ (القاهرة ١٩٨٤).

عفت محمد الشرقاوى (دكتور)

أدب التاريخ عند العرب، جـ١ (القاهرة ١٩٧٦).

على إبراهيم حسن: (دكتور)

استخدام المصادر وطرق البحث •القاهرة ١٩٦٣).

على أدهم:

بعض مؤرخى الإسلام (القاهرة بدون تاريخ).

= تاريخ التاريخ (القاهرة ١٩٧٧).

= التاريخ بين الذات والموضوعية»، مجلة العربى، العدد ١٧٥، يونيو ١٩٧٣.

على الغمراوى: (دكتور)

مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط (القاهرة ١٩٧٧).

- موضوعات فى الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٧٢).

عماد الدين خليل: (دكتور)

التفسير الإسلامى للتاريخ (بيروت ١٩٧٥).

فؤاد زكريا: (دكتور)

التفكير العلمى (القاهرة ١٩٩٦).

فؤاد محمد شبل:

منهاج توينبى التاريخى (القاهرة ١٩٦٨).

- توينبى مبتدع المنهاج التاريخى الحديث (القاهرة ١٩٧٥).

قاسم عبده قاسم: (دكتور)

الرؤية الحضاريةللتاريخ (القاهرة١٩٨٥).

قسطنطين زريق: (دكتور)

نحن والتاريخ (بيروت ١٩٦٩).

القلقشندى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩)

كار (إدوارد):

ما هو التاريخ، ترجمة أحمد حمدى، راجعه على أدهم (القاهرة بدون تاريخ).

كاسيرر (إرنست):

في المعرفة التاريخية، ترجمة د. أحمد حمدى محمود، مراجعة على أدهم (القاهرة بدون تاريخ).

كولنجوود: (ر.ج):

فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، راجعه محمد عبدالواحد خلاف، (القاهرة ١٩٦٨).

كوماس (خوان):

خرافات عن الأجناس، ترجمة د. محمد رياض، مراجعة د. محمد عوض محمد (القاهرة بدون تاريخ).

كوهن (هانز):

عصر القومية، ترجمة عبدالرحمن صدقى، مراجعة مصطفى حبيب (القاهرة ١٩٦٤).

لطفى عبدالوهاب: (دكتور)

اليونان، مقدمة فى التاريخ الحضارى (بيروت ١٩٧٩).

مارغوليوث (د.س):

دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة د. حسين نصار (بيروت بدون تاريخ).

محمد أنيس: (دكتور)

مدرسة التاريخ العثمانى (القاهرة ١٩٦٢).

محمد صقر خفاجة (دكتور)

هيرودوت يتحدث عن مصر (القاهرة ١٩٨٧).

محمد الطالبى:

«التاريخ ومشاكل اليوم والغد»، عالم الفكر، أبريل - مايو - يونيو، الكويت ١٩٧٤، العدد الأول.

محمد عبدالغنى حسن:

التاريخ عند المسلمين (القاهرة ١٩٧٧).

- علم التاريخ عند العرب (القاهرة ١٩٦١).

محمد عبدالواحد حجازى:

العقاد فيلسوف التاريخ (القاهرة ١٩٨٨).

محمد عواد حسين: (دكتور)

«صناعة التاريخ»، عالم الفكر، أبريل - مايو - يونى، العدد الأول، الكويت ١٩٧٤.

محمد فؤاد شكرى، محمد أنيس: (دكتور)

أوربا فى العصور الحديثة، جـ ١ (القاهرة ١٩٦٦).

محمود قاسم: (دكتور)

المنطق الحديث ومناهج البحث (القاهرة ١٩٤٩).

محمود محمد الحويرى: (دكتور)

الأوضاع الحضارية فى بلاد الشام، فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من الميلاد (القاهرة ١٩٧٩).

- اللومبارديون فى التاريخ والحضارة (القاهرة ١٩٨٦).

- رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية (القاهرة ١٩٩٥).

- مصر فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٩٦).

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على، ت ٨٥٤هـ/١٤٤١م)

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، جزءان (بولاق ١٢٧٠هـ)

نظير حسان سعداوى: (دكتور)

المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين. (القاهرة ١٩٦٢).

نور الدين حاطوم، نبيه عاقل، أحمد طرمين، صلاح مدنى: (دكاترة)

المدخل إلى التاريخ (دمشق ١٩٦٥).

نورى جعفر: (دكتور)

التاريخ مجاله وفلسفته. (بغداد ١٩٥٥).

نيفين علم الدين (دكتورة)

فلسفة التاريخ عند توينبى (القاهرة ١٩٩١).

هرنشو (ف.ج.س):

علم التاريخ، ترجمة عبدالحميد العبادى (القاهرة ١٩٤٤).

هويزنجا (يوهان):

أعلام وأفكار: نظرات فى التاريخ الثقافى، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، مراجعة د. زكى نجيب محمود (القاهرة ١٩٧٢).

هيجل (جورج لودفيج):

محاضرات فى فلسفة التاريخ، جـ١ ترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام، مراجعة د. فؤاد زكريا ٠القاهرة ١٩٨٦).

ولدردج (س.و)، جوردن إيست:

الجغرافيا مغزاها ومرماها، ترجمة د. يوسف أبو الحجاج، مراجعة د. محمد محمود الصياد (القاهرة ١٩٥٨م).

وولش (و. هـ):

مدخل لفلسفة التاريخ، ترجمة د. أحمد حمدى محمود، مراجعة محمد بكير خليل (القاهرة ١٩٦٢).

ويدجرى (آلبان. ج):

التاريخ وكيف يفسرونه، من كنفوشيوس إلى توينبى، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد (القاهرة ١٩٩٦).

يحيى هويدى (دكتور)

مقدمة فى الفلسفة العامة (القاهرة ١٩٧٩).

Writtan (John):

Karl Marx, in the Historian at work,ed. by John Canon (London, 1980).

Winlker (Henry R.):

George Macaulay Trevelyan, in some the 20th century historians, ed. by william halperin, (U.S.A.. 1961).

Young (Louise Merwin):

Thomas Carlyle and·Art of History (New York, 1971).

Taylor (H.O.):

The Mediaeval Mind. Vol. I. London, 1936).

Taylor (Joan):

A lexis de Tacqueville, in the Historian at work , ed. by John Canon (New York, 1975).

Tholfsen (Trygve R.):

Historical Thinkings. An Introduction. (New York, 1967).

Thompson (James Westfall):

A History of Historical Writing . (New York, 1942).

Tillinight (Pardon E.):

The Specious Past: The Historians and Others. (London, 1972).

Trevelyan (G.M.):

History and the reader. London, 1945).

Ramm (Agatha):

Leopold von Ranke, in the Historian at Work, ed. by John Canon. (New York, 1975).

Renier (G.J.):

History and Method. (London, 1950).

Rowse (A.L.):

History. (New York, 1948).

Salvemini (Gaetano):

Historian and scientist. (U.S.A., 1939).

Scheville (Ferdinand):

Six Historians. (U.S.A., 1956).

Shyder (Phil. L.):

Dteachment and the writing of history Essays and letters of care L. Becker (New York, 1958).

Smellie (K.B.):

Why we read History, ed. by H.M. Burton (London, 1947).

Stern (Fritz):

The Varieties of History from Voltaire to the Present (New York, 1964).

Joinville & Villehardouin:

Chronicles of the Crusades. (U.S.A., 1977).

Krey (A.C.):

William of tyre, the Making of an historian in the middle ages, in speculum. A Journal of Mediaevel srudies. Vol. XVI, April, 1941.

Nordau.

The Interpretaton of History, tr. from the german by M.A Hamilton (London, MCHX).

Oman (Sir Charles):

On the WQriting of History (London, 1969).

Paul the Deacon:

History of the Londbards, tr. by william Dudley Foulk, ed. by Edward Peters. (U.S.A., 1974).

Einhard:

The Life of Charlemagne, with a forward by Sidney Painter (U.S.A., 1959).

Gay (Peter):

Style in History. (New York, 1974).

=Historian at Work (New York, 1975).

Gesta Francorum et A liorum Hierosolimitanorum, ed, by Rosalind Russel. (London, 1962).

Gregory of Tours:

The History of the Franks, tr. by Lewis Thorpe. (London, 1974).

Halperin (S. William), Hadsel (Fred L.):

George Peabody Gooch, In Some 20th Century Historians. (U.S.A., 1961).

Heilbroner (Robert L.):

Future as History. (New York, 1960).

Hay (Denys):

Annalists and Historians. (London, 1977).

المصادر والمراجع الأوربية

Ausubel (Herman):

Historians and their Craft. New York, 1965).

Barnes:

A History of Historical Wtitıng.

Bede:

A Hitsory of the English Church and People, translated by leo Sherley - Price (London, 1968).

Boyd (C. Shafer) & Others:

Historical Study in the West (U.S.A., 1969, 1986)

Buddha Prakash:

The Modern Approoch to History. (Delhi, 1963).

Butterfield (Herbert):

Man on his Past (U.S.A., 1966)

Cate (Janes L.):

Henry Pirenne, in Some 2oth Century Historians. ed. by S. William Halpernn. (U.S.A., 1961).

Chlide (V.G ordan):

History. (London, 1977).

Davis (R.H.):

William of Tyre, in Relations between East and West in the Middle Ages by Derek Baker (London, 1973).



محتويات

صفحة





